الموسوعة الذهبية

عظماء غيروا مجرى التاريخ

الشيخ / بكر محمد إبراهيم

عضو إتحاد الكتاب

كاتب إسلامى وقاص ومؤرخ

الناشر

دار مصطفى للنشر والتوزيع

أسم الكتاب : الموسوعة الذهبية
عظماء غيروا مجرى التاريخ
الشيخ / بكر محمد إبراهيم

الناشر / دار مصطفى للنشر والتوزيع

ت / 010-5834163
3059544

الطبعة الأولى / 2006
رقم الإيداع / 2006/9268

الترقيم الدولى : ISBN-977-583-27-4
جميع التجهيزات والإخراج بالقسم الفنى لدار مصطفى للنشر والتوزيع
تحت إشراف / محمد جابر محمد

المقدمة

الحمد لله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى. أرسل الرسل وأنزل الكتب هداية لعباده وفضل منه ورحمة والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله الذين اصطفاهم وفضلهم على العالمين.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العرش الكريم ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

وبعـــد ،،،

فهذا كتاب عن العظماء الذين غيروا مجرى التاريخ ويأتي على رأس هؤلاء العظماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والخلفاء الراشدون وهذه هى قناعتى الشخصية . قال الله تعالى عنهم :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف]،

وقال تعالى لرسوله محمد ﷺ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

فهم خير البشر وسادة الأمم بلغوا دين الله وجاهدوا فى الله حق جهاده حتى نصرهم الله وأعلى دينهم وجعلهم هداه مهديين وقدوة للعالمين صلوات ربى

وسلامه عليهم أجمعين وشفع فينا خير المرسلين وإمام الغر المحجلين سيد الأولين والآخرين رسول رب العالمين محمد بن عبد الله الذى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونحن على ذلك من الشاهدين ،

فالخلفاء الرشدون حملوا مشعل الهداية إلى العالمين وخلفوا الرسول ﷺ فى أمته وفتحوا الفتوح ومصروا الأمصار وأنشؤا نهضة دينية وعلمية وتاريخية وثقافية واقتصادية وحملوا نور الإسلام إلى سائر أقطار المعمورة وتغلبوا على الأباطرة والأكاسرة ونشروا العدل والإيمان والرخاء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

---

(١) أخرجه أحمد ٥/٥ والترمذى ٣٠٠١ ، وابن ماجه ٤٢٨٨ وسنده حسن .

آدم ـ عليه السلام ـ

كان الله ولا شئ معه فخلق الخلق وعرفهم بنفسه فعرفوه ، فلما عرفوه عبدوه وسبحوا بحمده، وخضعوا لأمره، طوعا وكرها.

وكان فيمن خلق آدم ـ عليه السلام ـ.

وقد ذكر الله تعالى قصة خلق آدم فى كثير من سور القرآن – فى سورة البقرة وآل عمران، والأعراف والحجر، والاسراء، والكهف، وطه، وص ، وغيرها.

أطوار خلقه :

خلق الله تعالى آدم من تراب فقال تعالى : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران]

أى أن شأن عيسى عليه السلام وصفته فى خلق الله إياه على غير مثال سبق كشأن آدم عليه السلام ، بل إن خلق آدم أعجب إذ أن الله تعالى خلقه من تراب من غير أب ولا أم وعيسى عليه السلام خلقه من أم بلا أب.

ثم صب الله تعالى الماء على التراب فصار طينا ثم اشتد سواد الطين وانتن فصار حمأ مسنون ثم صلصالا كالفخار عندما جف .

قال تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾[السجدة]

وقال جل شأنه :﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر]

وقال تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن]

ثم سواه ونفخ فيه من روحه، أى من سره المكنون (الخفى) فصار إنسانا

سوياً مزودا بالعقل والعلم وكل المؤهلات التى تجعله قادراً على تأدية وظيفته التى خلقه الله من أجلها .

ويعتبر أولاد آدم مخلوقون من تراب أيضا لأنهم أبناء ذلك المخلوق من تراب .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ... (٢) ﴾[الأنعام].

وقد عرف العلماء فى هذا العصر أن الطين يحمل عناصد كثيرة وهى نفس العناصر فى جسم الإنسان لأن الإنسان مخلوق من التراب. ومن هذه العناصر الأوكسجين والألومنيوم والحديد والجير وغيرها .

أخبر الله تعالى ملائكته بخلق آدم قبل أن يخلقه بحين من الدهر (بوقت طويل) لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.

قال عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [البقرة]

ولعل الله تعالى قد عرض هذا الأمر على الملائكة ليتهيئوا لاستقبال آدم عليه السلام، وليعدوا أنفسهم لخدمته وخدمة ذريته ، وليقوموا بتعظيمه عند تمام تسويته ونفخ الروح فيه، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾، يدل على أن هذا الكائن البشرى أرضى المولد والنشأة والوطن.

والمراد بالخليفة : آدم وذريته وكلوا بتعمير الأرض واصلاحها ، وكشف مافى باطن الأرض من قوى وطاقات وكنوز ومعادن ، والقيام بعبادة الله عز وجل ، ولزوم طاعته فيما أمر ونهى.

وقد سمى الله عز وجل آدم وذريته خليفة لأن بعضهم يخلف بعضا على تعمير هذه الأرض وإصلاحها وإقامة حدود الله فيها.

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٥) ﴾ [الأنعام].

وقال سبحانه: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾ [النمل].

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ يشعر بأن لهذا المخلوق شأنا عظيما، ودورا كبيرا فى هذا الكون ، بل يشعر بأنه المخلوق الوحيد الذى خلق الله مافى السماوات والأرض لأجله، وركب فيه من الغرائزما يحمله على حفظ دينه ونفسه ونسله وعقله وعرضه وماله. وهذه تسمى الضرورات الخمس التى جاءت الشريعة بحفظها. فهو مخلوق ضعيف أمام كثير من المخلوقات، كما قال عز وجل: ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾.

ولكنه قوى بعقله وعلمه وإرادته وتحكمه فى كثير من المخلوقات التى تفوقه فى قوة الجسم وضخامته. فإننا نرى الجمل الكبير يجره الصبى الصغير وليتعلم الإنسان ان الله تعالى هو الذى سخر له مثل هذه المخلوقات القوية فإن الإنسان لا يستطيع أن يسخر البرغوث.

ثم بين الله للملائكة ما يتميز به آدم عليهم، وما استحق به الخلافة فى

الأرض دون غيره فقال عز وجال :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾ [البقرة]

والأسماء التى علمها الله لآدم عليه السلام هى جميع المسميات، بمعنى أن الله مكنه من معرفة أسماء الملائكة، وأسماء ذريته، وأسماء كل شئ مما وقعت عليه عيناه من جبال وبحار. وأنهار وعيون وآبار وغير ذلك، وأعطاه إلهاما خاصا يعرف به حقائق الأشياء ومنافعها، ليكون ذلك معجزة له تشهد بنبوته وخلافته.

والمعجزة أمر خارق للعادة يجريه الله سبحانه على يد نبى على سبيل التحدى ويقع على وفق ما يخبر به النبى ولا يكون هناك معارض لهذه المعجزة - أى لا يستطيع أحد من الخلق أن يأتى بمثلها.

وهذا التحدى يوحى بفضل آدم عليه السلام ويخبر عن أحقيته فى الخلافة.

فما كان من الملائكة إلا أن أعترفوا بعجزهم الكامل عن الاتيان بما طلب منهم . ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) ﴾ [البقرة] أى إنك أنت العليم بما كان وما يكون ، وهذا هو كائن، والمحيط علما بكل صغير ،كبير، الحكيم فى خلقك وأمرك، وفى تعليمك من تشاء. ثم وجه الله تعالى الخطاب إلى آدم بأمره بأن يخبر الملائكة بالأسماء التى سئلوا عنها،

فقال تعالى: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) ﴾ [البقرة]

سجود الملائكة لآدم:

ثم ذكر الله تعالى كرامة أخرى خص بها آدم ثم أتبع ذلك ببيان كرامة أخرى وهى أمره الملائكة بالسجود له، فقال جل جلاله :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ﴾ [البقرة]

السجود فى اللغة هو التذلل والخضوع، ويطلق على الانحناء من أجل التحية والتكريم. كما فى قوله تعالى حكاية عن أخوة يوسف عليه السلام:

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ... (١٠٠) ﴾ [يوسف].

والسجود الذى فعلته الملائكة هو الإنحناء على هيئة مخصوصة على حسب خلقتهم ،

وقد أمروا به تعظيما له وتحية. أما فى شريعتنا فيحرم السجود لغير الله تعالى. وسجود الملائكة لآدم كان عن أمر الله تعالى لهم بذلك فهم طائعون لله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون.

حقيقة إبليس:

الحقيقة أن إبليس ليس من الملائكة بدليل أن الملائكة خلقوا من نور وأن إبليس خلق من النار، ولم يكن على شاكلة الملائكة، بدليل خروجه على إجماعهم، فهو الوحيد الذى شذ (خرج، وانفرد) عن الملائكة وأن الملائكة أخبر الله تعالى

كما لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وبهذا أخبر الله عنهم، وهناك احتمال بأن الله تعالى قد أمر إبليس بالسجود وحده وليس مع الملائكة وذلك لقوله تعالى:

﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ... (١٢) ﴾[الأعراف]

وإبليس من الإبلاس، ومعناه اليأس والطرد والإبعاد.

إسكان آدم وذريته الجنة:

ولما أظهر الله للملائكة ما خص به آدم من العلم والفضل والعقل تلك المؤهلات التى استحق بها الخلافة فى الأرض، وأمرهم بتحيته وتعظيمه بالسجود له - فحيوه وعظموه - أمره أن يسكن الجنة هو وزوجه التى خلقها الله من ضلعه، فسكنها إلى حين.

وفى ذلك يقول الله تعالى :

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

السكنى تفيد أنه سيقيم إقامة مؤقته، وقد أباح الله لهما أن يأكلا من ثمار الجنة حيث شاءا إلا شجرة واحدة عينها لهما .

والرغد طيب العيش واتساعه. قال عز وجل : ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

أى فتكونا من الظالمين لأنفسكما بالمعصية. وكلمة لا تقربا أشد فى التحذير من كلمة لا تأكلا لأنه سبحانه نهاهما عن مجرد الاقتراب من الشجرة.

اخراج آدم وزوجه من الجنة:

ثم أخبرنا سبحانه وتعالى أن الشيطان أغرى آدم وزوجه فقال :

﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ... (٣٦) ﴾ [البقرة]

أى : أبعدهما عن الجنة بكذبه عليهما أنه ناصح لهما، كما دل عليه قوله عز وجل :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) ﴾ [الأعراف]

أى : أنزلهما بخداع منه وغفلة منهما ، فقد حلف لهما بالله تعالى أنه صادق فيما ادعاه، فاعتقدا أنه لا يجرؤ أحد أن يحلف بالله كاذبا فصدقاه، وغفلا عن تحذير الله لهما كما فى قوله تعالى :

﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) ﴾ [طه].

وقوله تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ يدل على المبالغة فى القسم وتكراره. وقد أغراهما اللعين بأنهما لو أكلا من الشجرة فسوف يكونا كملكين فى القوة وطول العمر، بل يكونان فى الجنة خالدين لا يموتان البتة، وهما أمران يطمع فيهما

الإنسان بحكم ما ركب فيه من الغرائز ومنها غريزة حب التملك وغريزة حب البقاء. ولقد عصى آدم زوجه من غير قصد إلى المعصية لقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه]

أى فنسى النهى عن الأكل من الشجرة، ونسيا تحذير الله لهما من عداوة الشيطان.

ولما أكل آدم وزوجه من الشجرة حل بهما الخجل والألم والفضيحة فقد أخذا يضعان على سوآتهما (عوراتهما) من أوراق الشجر، ليستترا بها حياء من الله وملائكته، وقد طارت الملابس الحريرية التى كانا يتحليان بها.

وقد عاقبهما الله تعالى بالهبوط إلى الأرض ومكابدة الشقاء فيها وكان من حكمة هذا الإهباط إلى الأرض أن يعمراها هما وذريتهما ويؤديا مهمة الخلافة فى الأرض فيخلف بعضهم بعضا فى عمارة الأرض والحكم بما أنزل الله وعبادة الله عز وجل وتحقق الاختبار الدنيوى الذى كتبه الله على البشر.

وكأن الله تعالى قد أسكنه الجنة ليستمتع فيها بعروسه بعض الوقت وليقبل على عمله بعد ذلك فى الأرض بهمة ونشاط، ولكى يعرف الفرق بين الراحة والنصب (التعب)،

ولكى يأخذ درسا يعرف به عداوة الشيطان له ولذريته فيحذره ، ولا يتبع خطواته.

قال عز وجل : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧) ﴾ [الأعراف]

وقد نبأ الله تعالى آدم ليكون هاديا لذريته وتعاقب إرسال الأنبياء والرسل إلى البشر وكان خاتمهم محمداً ﷺ.

قال تعالى :

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

قال تعالى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة]

عن عبد الله بن مسعود وناس من الصحابة : أن آدم كان يزوج ذكر كل بطن بأنثى الأخرى وأن هابيل أراد أن يتزوج بأخت قابيل ، وكان أكبر من هابيل وأخت هابيل أجمل فأراد هابيل أن يستأثر بها على أخيه، وأمره آدم عليه السلام أن يزوجه إياها فأبى، فأمرهما أن يقربا قربانا، وذهب آدم ليحج إلى مكة" الحديث.

وروى أبو جعفر الباقر أن آدم كان مباشرا (حاضرا) لتقربهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل ، فقال قابيل لآدم: إنه تقبل منه، لأنك دعوت له ولم تدع لى ، وتوعد أخاه فيما بينه وبينه، فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى السعى، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به فلما ذهب إذ هو به ، فقال له : تُقبل منك ولم يُتقبل منى فقال : إنما يتقبل الله من المتقين، فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه وقتله.

وقيل : إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشرخته (حطمت رأسه).

وأحس قابيل أنه فقد الأخ والمعين والصديق.. وأدرك سوء فعلته وشناعة جريمته، فوقف وسط دموعه يفكر ماذا يفعل بجثمان أخيه، أيلقيه فى النهر أم يتركه فوق صخرة على الجبل، ثم قال لنفسه إنى لو فعلت ذلك فستأكل الوحوش والطيور الجارحة جثمانه.

ولاحقه الخزى والفضيحة وتأنيب الضمير، فأحتمل أخاه على ظهره وكان به حائرا مذهولا حزينا لا يدرى ما يصنع بجثته.

ثم ابتدأ يشم رائحة كريهة تنبعث من الجثة - رائحة لا تطاق، فوضع جثته عن ظهره على الأرض وجلس متفكرا متأملا فإذا به يرى غرابا يتقاتل مع طائر آخر فيقتله ثم يحفر فى الأرض بمخالبه ثم يدفنه ويهيل (يردم) عليه التراب وهو يتأمل ويتابع أفعال الغراب.

وتعجب قابيل من فعلة الغراب وقال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين.

وقام قابيل من فوره وأحضر مسحاة (فأسا) وأخذ يحفر فى الأرض حفرة عميقة ثم وضع فيها جسد أخيه وأهال عليه التراب مثل ما فعل الغراب.

وطار الغراب واختفى بعد أن علم قابيل درسا لا ينسى وأراه كيفية الدفن وقد غابت عنه هذه الفكرة من قبل.

وكان الشيطان محرضا قابيل على ما فعله بآخيه ومزينا له جريمته الشنعاء. وهكذا نجح الشيطان في بث بذور العداوة والبغضاء بين أبناء آدم واستطاع أن يغوى قابيل كما نجح من قبل مع أبيه آدم عليه السلام حتى أوقعه فى المعصية وأغراه بالأكل من الشجرة المحرمة.

يقول تعالى بعد هذه الآيات التى وردت لنا فى قصة بنى آدم :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) ﴾ [المائدة].

ويقول تعالى فى سورة البقرة :

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩) ﴾ [البقرة].

ويقول تعالى فى سورة طه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

ويقول الرسول ﷺ : لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل".

والكفل هو النصيب.

شيث ـ عليه السلام ـ

معنى شيث : هبة الله، وسماه آدم ـ عليه السلام ـ كذلك لأنهما رزقا به بعد أن قتل قابيل أخاه هابيل طمعا فى الزواج من توأمته.

قال أبو ذر فى حديثه عن رسول الله ﷺ أن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسين صحيفة.

ولما حضرت آدم عليه السلام الوفاة بعد أن عمر ألف عام عهد إلى ابنه شيث وعلمه ساعات الليل والنهار، وعلمه عبادات تلك الساعات وأعلمه بوقوع الطوفان بعد ذلك.

ولما توفى آدم عليه السلام - وكان ذلك يوم الجمعة - جاءته الملائكة بحنوط وكفن من الجنة، وعزوا فيه ابنه ووصيه شيثاً عليه السلام. وقبض الملائكة آدم وغسلوه وكفنوه، ثم حثوا عليه التراب، ثم قالوا يا بنى آدم هذه سنتكم.

وقد روى فى الأحاديث أن الملائكة كبرت على آدم أربعا وأن حواء ماتت بعده بسنة وأن نوح عليه السلام نقله من الهند ودفنه فى بيت المقدس هو وحواء.

وقام ابنه شيث بالأمر بعده، فلما حانت وفاة شيث عليه السلام أوصى إلى ولده أنوش فقام بالأمر بعده ، ثم قبض ثم مهلابيل ثم ابنه يرد فلما حضرته الوفاة أوصى إلى ولده (خنوخ) وهو إدريس عليه السلام.

إدريس ـ عليه السلام ـ

قال الله تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) ﴾ [مريم].

فمدحه الله تعالى ووصفه بالنبوة والصديقية، وكان أول نبى بعد آدم وشيث عليهما السلام.

وهو أول من خط بالقلم.

وقبض فى السماء الرابعة وأنه كان يرفع له فى كل يوم مثل عمل جميع بنى آدم فى عصره.

وأنه نظر فى النجوم وعرف علم الفلك والحساب وكثير من العلوم. وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة وثمانى سنين.

ولم يذكر القرآن الكريم قصة لإدريس عليه السلام.

نبى الله ورسوله

نوح عليه السلام

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا

أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾ [هود].

وردت قصة نوح - عليه السلام - فى سورة الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصافات، والقمر. كما جاءت قصته عليه السلام فى سورة كاملة سميت بإسمه هى سورة نوح.

وهذه القصة تصف دعوة نوح عليه السلام إلى الله تعالى، والصراع بين الحق والباطل ورحمة الله بعباده حيث أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وترسم القصة صورة من صور البشرية العنيدة الضالة المتبعة لكبرائها المشركين الضالين.

ثم تعرض القصة صور الجهد المضنى والعناد المرهق والصبر الجميل من جانب نوح عليه السلام لهداية قومه، ثم هلاك الكافرين المكذبين ونجاة المؤمنين الطائعين الصابرين.

نسب نوح ـ عليه السلام :

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ (إدريس) بن يرد بن مهلاييل بن قينان ابن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر عليه السلام. وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة. وقومه بنو راسب.

صفاته ـ عليه السلام :

كان نوح عليه السلام شكوراً صواماً صابرا بليغاً تحققت فيه صفات العبودية الحقة لله تعالى كما نفهم من قصته وثناء الله تعالى عليه قال تعالى :

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء] قيل أنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.

وقد ورد فى حديث رواه الإمام أحمد أن نوحا عليه السلام حج البيت الحرام ذكر الحافظ أبو يعلى بسنده إلى ابن عباس قال : حج رسول الله ﷺ فلما أتى وادى عسفان قال : يا أبا بكر أى واد هذا : قال هذا وادى عسفان قال : لقد مر بهذا الوادى نوح وهود وإبراهيم على بكرات[1] لهم حمر خطمهم[2] الليف ازرهم العباء وأرديتهم النمار يحجون البيت العتيق (رواه أحمد (٢٣٢/١) وذكره الهيثمى (٢٢٠/٣).

دعوته إلى التوحيد :

مكث نوح عليه السلام فى قومه تسعمائة وخمسين عاما، يدعو قومه إلى الله تعالى دون كلل ولا ملل يدعوهم فى الليل والنهار، فى السر والعلن، فما زادهم ذلك إلا فرارا من الهدى، وإعراضا عن دعوة التوحيد دعوة الحق. واستمروا يعبدون أصنامهم ويدعونها يرجون منها الخير ودفع الشر وسموها بأسماء اخترعوها من عند أنفسهم واتهموه بالكذب والضلال والجنون، ومجالسة السفهاء – يقصدون الفقراء ، وكانوا إذا رأوه غطوا وجوههم بثيابهم ووضعوا أصابعهم فى آذانهم.

ولكن نوحا عليه السلام كان يدخل عليهم فى مجالسهم ونواديهم ، ويسمعهم كلمة الحق رغما عنهم، ويجادلهم فى شأن أصنامهم، ويبين لهم ما هم عليه من ضلال وكفر ويحذرهم مغبة الشرك والظلم، ويدعوهم إلى الهداية والرشاد ويرغبهم فيما عند الله. فيقولون : يا نوح كيف نؤمن لك وقد اتبعك

(١) البكر : الجمل الصغير .

(٢) الخطم : زمام الناقة .

الأرذلون من الضعفاء والفقراء فاطردهم نسمع منك وما أنت إلا بشر مثلنا تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة، وقالوا : ما نرى لك ولصبحك علينا من فضل من العقل أو فى العلم أو المال أو الجاه بل نظنكم كاذبين.

لما مل القوم من دعوة نوح عليه السلام طلبوا العذاب سخرية منه وكفا لوعظه ودعوته يقول تعالى : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) ﴾ [هود].

فعاود نوح إسداء النصح لهم والرفق بهم، وقال لهم : إنكم تسرفون فى الجهل، وهل أنا إلا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد، أبلغكم ما أمرت به، والمشيئة إلى الله تعالى إن شاء هداكم وإن شاء استعجل عذابكم، وإن شاء أمهلكم.

شكوى نوح ـ عليه السلام ـ إلى ربه :

ولما وجد نوح أن الكافرين لا يسلم منهم أحد ولا يلدوا إلا كفارا، ورأى إصرارهم على الكفر والإمعان فى السخرية واستعجال العذاب دعا عليهم ربه فقال شاكيا إلى ربه تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) ﴾ [نوح].

فاستجاب الله تعالى له. وأمره أن يصنع الفلك ويكف عن مخاطبته فى شأنهم فإنهم هالكون لا محالة، فقال سبحانه :

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧) ﴾ [هود].

فانتحى نوح ـ عليه السلام ـ مكانا بعيدا عن المدينة وأخذ يعد الألواح والمسامير وأخذ يعمل فى صناعة السفينة، بينما المشركون من قومه يسخرون منه ويقولون له : يا نوح هل تركت النبوة وعملت نجاراً؟ يانوح كيف ستسير هذه السفينة هل ستجرها بالحبال إلى البحر أم ستنقل البحر إليها.

فكان نوح يرد عليهم فى عفة لسان :

﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٩) ﴾ [هود].

فأوحى الله تعالى إليه : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (٤٠) ﴾ [هود].

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) ﴾ [المؤمنين].

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) ﴾ [هود].

وأطل نوح عليه السلام إطلالته من الفلك ليرى ما حل بالقوم فأبصر ولده كنعان بين الكافرين يقاوم الأمواج ، فناداه مستعطفا أن يركب معه فأبى وقال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء.

كانت السماء تمطر مطرا كأفواه القرب وتنفجر الأرض عيونا .

قال تعالى :

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ [القمر]

ويحكى القرآن وما دار بين نوح وابنه.

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾ [هود].

فاستغاث نوح بربه مستشفعًا لابنه فرُدت شفاعته حيث لا تقبل فى الكافرين شفاعة.

قال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ [هود].

ولما تم إغراق الكافرين، أمر الله السماء أن تقلع عن إنزال الماء، وأمر

الأرض أن تغيب الماء فى أعماقها، لتعود الحياة عليها كما كانت قبل الطوفان لينزل المؤمنون من السفينة ويستأنفوا حياة طاهرة فى ظل الإيمان والتوحيد.

قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) ﴾ [هود].

وهبط نوح عليه السلام ومن معه على الأرض وعاشوا فترة من الزمان حتى مات المؤمنون الذين آمنوا بنوح وكانوا معه فى السفينة ولم ينجبوا أولادا فكانت الذرية من نسل نوح من أولاد سام وحام ويافت تفرقوا فى الأرض وعمروها، فكان العرب وبنو إسرائيل من سام، والسودان والحبشة وسائر الأفارقة من حام، وكان الترك والعجم من يافت.

وفاة نوح ـ عليه السلام ـ :

كان نوح ـ عليه السلام ـ يصوم الدهر إلا يوم الفطر والأضحى، وحج نوح عليه السلام بيت الله الحرام.

وعن ابن عباس -رضى الله عنه- أن نوحا ـ عليه السلام ـ بُعث وله أربع مائة وثمانون سنة وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة كما ذكر العلامة ابن كثير فى تفسيره لأنه دعا قومه تسعمائة وخمسين سنة وأوصى نوح عليه السلام أبناءه قبل موته بألا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده، ونهاهم عن الشرك والكبر.

وقيل إن نوحا ـ عليه السلام ـ دفن بمكة وقيل بالبقاع والله أعلم.

ويروى أن ملك الموت سأل نوحا ـ عليه السلام ـ قبل قبضه كيف رأيت الدنيا يا أطول الأنبياء عمرا؟ فقال : كأنها دار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر.

وكان نوح - عليه السلام - رسولا من أولى العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - عليهم أفضل الصلاة والسلام - وبهذا يكون نوح - عليه السلام - أطول البشر عمرا فلم يعلم فى تاريخ البشرية أن إنسانا عاش أكثر من ألف عام إلا نوحا - عليه السلام - . أما آدم أبو البشر - عليه السلام - فعاش ألف سنة.

وكما أن آدم هو أبو البشر فإن نوحا هو الأب الثانى للبشرية صلاة الله وسلامه على آدم ونوح وجميع الأنبياء والمرسلين.

هود - عليه السلام -

لما تفرقت ذرية نوح عليه السلام فى الأرض ليعمروها، سكن بعضهم الشام، وبعضهم العراق، ومنهم من سكن مصر، واتخذ قوم عاد لهم سكنا شرقى عدن باليمن قرب ساحل البحر الأحمر يقال له الأحقاف، والأحقاف : جمع حقف، وهى الرمال الغزيرة والروابى المرتفعة. وكانت أرضهم قاحلة يقل فيها الماء ، ويعتمدون فى السقيا على ماء المطر.

وقد رزقهم الله بالأنعام والإبل والبقر (الغنم) والبنين والجنات (الحدائق) والعيون، وزادهم فى الخلق بسطة (ضخامة) وقوة لا مثيل لها، كما قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) ﴾ [الفجر].

أى مثل قبيلة عاد وإرم هو أبو قبيلة عاد، وهم عاد الأولى قال تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَىٰ (٥٠) ﴾ [النجم].

وهم أبناء عاد بن عوص من إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

وقد كان هؤلاء القوم يعبدون الله عز وجل على دين أبيهم نوح عليه السلام زمنا، فلما طال بهم العمر قست قلوبهم وساءت أخلاقهم، وفسدت طباعهم وأضلتهم الشياطين، فسولت لهم عبادة الأصنام. فاتخذوها آلهة، يدعونها رغبة ورهبة، فأرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم، هو هود بن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

فدعاهم إلى التوحيد، والدين القيم بلغتهم العربية. كما قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾ [إبراهيم].

وكان أفضلهم نسبا، وأعرقهم حسبا (شرفاً) وأفصحهم لسانا، وأعذبهم بيانا، فأدلى إليهم بالحجج المقنعة والبراهين (الأدلة) القاطعة الساطعة على صدق ما دعاهم إليه، وحثهم عليه، وانذرهم به، وحذرهم منه فأعرضوا عنه، وأغلظوا له القول، واتهموه بالسفه والجنون والكذب.

وقالوا : يا هود ما أنت إلا سفيه طائش، فاسد العقل، كيف تعيب آلهتنا، وتعيب ما وجدنا عليه آباءنا؟ من أنت بيننا؟ وبأى شئ تتميز علينا، حتى يخصك الله بالرسالة من بيننا ؟ هلا اختار لها عظيما من عظمائنا ذا آل ومال وسعة وجاه وسيادة.

قال هود عليه السلام : يا قوم ليس بى سفاهة عقل ولا حماقة رأى، وما جربتم على كذبا، ولقد لبثت فيكم عمرا طويلا لم تروا منى إلا خيرا، وما العجب فى أن يختص الله واحداً من خلقه برسالته، ويؤتيه من لدنه علما وقدرة على تبليغها بالحكمة والموعظة الحسنة ، والحجة البالغة، ففكروا بعقولكم فيما دعوتكم إليه، وانفذوا إلى حقائق هذا الكون ببصائركم، تروا أن كل شئ في هذا الوجود يدل على أن الله واحد لا شريك له، فآمنوا به، واستغفروه يرسل السماء عليكم

مدراراً ويمددكم بأموال فوق أموالكم، ويزدكم قوة إلى قوتكم، ولا تتولوا مجرمين، واعلموا أنكم بعد موتكم سوف تبعثون، من عمل صالحا لنفسه، ومن أساء فعليها، فقدموا لأنفسكم وخذوا الاستعداد لآخرتكم. وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ولكنى أراكم قوما تجهلون.

ولكنهم سخروا منه وقالوا يا هود : ما جئتنا بخير، وما أتيت على قولك هذا ببينة، وما نقول إلا أن إلها من آلهتنا قد أصابك بسوء فأفسد عليك عقلك ورأيك، ثم ما هذا الاستغفار الذي يرسل الله به السماء (ينزل المطر) مدراراً، غزيرا . ويمدنا بالمال ويزيدنا قوة؟ وما يوم البعث الذى تزعم أننا نعود فيه بعد أن نصبح عظاما نخره، وجثثاً بالية؟ بَعُد ما تَعدُ وتزعم، وما هى إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين.

ثم ما العذاب الذى تعدنا وتتوقع أن نلقاه؟، إننا لم نخضع لما تقوله. ولن نرجع عن عبادة إلهتنا، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين. فلما ظهر له أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم، أشهد الله عليهم، وأشهدهم على أنفسهم، وتبرأ منهم، وتحداهم أن يصيبوه بسوء إن استطاعوا، فلم يستطع أحد على كثرتهم وقوتهم أن يناله بأذي، وفى هذا التحدى معجزة على صدق دعوته.

ولما سألوه عن السر الذى عصمه منهم، والقوة التى حمته منهم، أخبرهم بأنه قد توكل على الذى بيده مصير الخلق كلهم، فعصمه منهم ، لأنه هو صاحب القوة والأمر، الغالب الذى لا يغلب، والقاهر الذى لا يقهر.

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا

تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦) ﴾ [هود].

وظل هود عليه السلام ينتظر ما يحل بهم، فما هى إلا أيام حتى رأوا سحابة سوداء قد أظلتهم، فحسبوا من السحب الممطرة، ففرحوا واستبشروا واستعدوا لاستقبالها، فأخبرهم أنها العذاب الذى استعجلوه، قد حل بواديهم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾ [الأحقاف]

واستمرت هذه الريح حتى أتت على آخرهم فأهلكتهم كلهم فى سبع ليال وثمانية أيام متتابعة، فجعلتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل فارغة، ونجى الله هودا ومن معه من المؤمنين.

وقد وردت هذه القصة فى سورة الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء، وفصلت والأحقاف، والذاريات والقمر، والحاقة والفجر وغيرها.

نبى الله صالح - عليه السلام -

عمرت قبيلة ثمود الحِجْر. بالجزيرة العربية وكانوا بعد قوم عاد الذين أهلكهم الله بعد تكذيبهم لنبيهم هود عليه السلام. ففجروا منها العيون والآبار، وزرعوا الحدائق والبساتين، ونحتوا فى الجبال بيوتاً، فكانوا فى رغد من العيش، ووفرة من الأولاد والأنعام، فطغوا وتجبروا وعبدوا الأوثان من دون الله تعالى. وكانت ديارهم فى الحجر فى شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام، فأرسل الله إليهم صالحا يدعوهم إلى الله تعالى.

نسب صالح ـ عليه السلام ـ :

هو صالح بن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والسلام.

دعوة صالح ـ عليه السلام ـ :

دعاهم صالح ـ عليه السلام ـ إلى عبادة الله وحده، لأنه خالقهم ورازقهم الذى استخلفهم فى الأرض، وأسبغ عليهم النعم، ونهاهم عن عبادة الأصنام التى لا تضر ولا تنفع، ولا تملك لهم من الله من شئ، وحذرهم من عاقبة الإشراك والكفر والفساد فى الأرض.

وذكرهم بقرابته لهم ونسبه فيهم، فهم قومه وعشيرته الذين عاش بينهم عمرا طويلا وهو الحريص عليهم لا يأمرهم بما يشق عليهم ولا يبتغى منهم أجرا ولا شكوراً، ولا ملكا ولا رياسة.

صفات صالح ـ عليه السلام :

كان صالح ـ عليه السلام ـ متصفا بالرحمة والعطف على الصغير والكبير، صادقا لا يكذب، أمينا لا يخون، كريما حليما ودودا، رشيدا سديدا فى أقواله وأفعاله متصفا بمكارم الأخلاق والاستقامة والطهر والفطنة.

قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) ﴾ [هود].

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ

(١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) ﴾ [الشعراء].

أغلظ القوم القول لصالح ـ عليه السلام ـ، وتمادوا فى الضلال والتكذيب، واتهموه بالسحر، وسألوه معجزة تكون برهانًا على صدقه، وتعنتوا فى سؤالهم استهزاء منهم به وسخرية برسالته.

طلب ثمود للمعجزة:

اجتمعت ثمود يوما فى ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله، وبشر وأنذر ووعظهم وذكرهم فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ، وأشاروا إلى صخرة هناك- ناقة، وذكروا لها أوصافا وطلبوا أن يكون معها فصيلها يخرج معها من الصخرة- قالوا إن فعلت ذلك آمنا بك وصدقناك.

فقال لهم رسول الله صالح ـ عليه السلام ـ : أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم أتؤمنون بى وتصدقونى ؟ قالوا : نعم. فأخذ عليهم العهود والمواثيق على ذلك، ثم قام إلى مصلاه فصلى ودعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى ما سألوا، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة ومعها فصيلها، وقيل أنها كانت عُشَراء ثم وضعت.

فلما رأوها هالهم ما رأوا، كان أمرا هائلا ومنظراً أخاذا، وقدرة باهرة ودليلا ساطعا على صدق صالح عليه السلام حينما يبلغ عن ربه سبحانه وتعالى. فآمن بعضهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وتكذيبهم.

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩) ﴾ [الإسراء].

ناقة الله :

سميت تلك الناقة ناقة الله تشريفا لها وتعظيما لشأنها فهى ناقة معجزة تتميز بصفات معينة، ولها حرمة ليست لغيرها، فاشترط عليهم صالح عليه السلام أن يتركوها ترعى فى أرض الله، ولا يتعرضوا لها بسوء حتى لا يصيبهم عذاب أليم.

وبقيت هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم، وتروى الماء يوما بعد يوم، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجاتهم من الماء فى اليوم الذى لا تشرب فيه.

وفى اليوم الذى كانت تشرب فيه يأخذون كفايتهم من لبنها فلا يشربون فى يومهم ذلك إلا اللبن.

وكانت الماشية والغنم تخاف منها وتفر من أمامها إذا مرت أمامهم.

قال تعالى : ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) ﴾ [الشعراء].

ولكن القوم استطالوا أيامها وملوا حياتها وزين لهم الشيطان قتلها وتصدى قوم لذلك، وهم قدار بن سالف بمعاونة ثمانية نفر من أفراد قبيلة ثمود وقد عرضت امرأة بناتها الأربع على قدار ووعدته بأن تبيحهن له إن قتل الناقة.

قتل الناقة :

ترصد المجرمون لناقة الله ورماها قدار بسهم ثم شد عليها القوم بعد أن

وقعت فنحروها وفر فصيلها فزعا إلى الصخرة فانطبقت عليه.

قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) ﴾ [الأعراف].

محاولة قتل صالح ـ عليه السلام ـ :

قال تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) ﴾ [النمل].

وقال تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ﴾ [النحل].

نجاة صالح ـ عليه السلام ـ :

ونجى الله تعالى نبيه صالح، ونزل جبريل عليه السلام يخبره بما دبر القوم وأمره ألا يبيت فى بيته.

هلاك ثمود :

قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾[هود].

وكان هذا الوعيد سببا فى محاولة قتل صالح عليه السلام حيث أبلغهم صالح أنهم يتمتعون فى دارهم ثلاثة أيام ثم يأتيهم العذاب، فى اليوم الأول

اصفرت وجوههم، وفى الثانى تحمر وفى الثالث تسود وجوههم فكان كما أخبرهم وتوعدهم نبيهم صالح عليه السلام.

وفى صبيحة اليوم الرابع جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة شديدة من أسفلهم فزهقت نفوسهم، وسكنت حركاتهم ، وخشعت أصواتهم، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين جثثاً بلا حراك وهذا عاقبة الظالمين المكذبين لرسولهم المفسدين فى الأرض الكافرين لنعم ربهم المشركين والمتخذين معه أندادا.

وكان القوم قد سكتوا على هذه الجريمة جريمة قتل الناقة ورضوا عما فعله المجرمون فأصابهم مثل ما أصاب من باشر قتلها، هكذا يؤاخذ الناس بنياتهم ، وتقع التبعة عليهم لرضاهم بالمنكر ومشاركتهم فيه أو سكوتهم عليه أو استحسانهم له، أو استخفافهم بوعيد الله سبحانه وتعالى قال عز وجل :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ (٦٨) ﴾ [هود].

وقال عز وجل فى سورة الشمس : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥) ﴾ [الشمس].

نبى الله ورسوله

إبراهيم ـ عليه السلام ـ

مولده ونشأته ـ عليه السلام ـ:

ولد إبراهيم عليه السلام فى بلدة فدام آرام من أرض بابل (العراق) فى عهد ملك طاغية يسمى نمروذ بن كنعان.

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ هو بن آزر بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن خالع بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ (إدريس) بن يرد بن مهلابيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر عليه السلام.

وقيل أن آزر يسمى أيضاً تارخ.

وقد نشأ إبراهيم ـ عليه السلام ـ وسط قوم ضالين مشركين، وكانوا فريقين فريق يعبد الأصنام، ويدعونها رغبا ورهبا من دون الله تعالى، ويتمسحون بها، ويرجون منها جلب الخير ودفع الضر.

وفريق آخر كانوا صائبة يعبدون الكواكب والنجوم ويصنعون لها هياكل ترمز إليها، ويسمونها أسماء اخترعوها من عند أنفسهم، ويزعمون أنها إلهة تعبد، وأنها تدعى فتجيب وتنفع وتضر، وأن لها تأثيراً بذاتها فى الأفعال وأن لها روحانية تُستنزل . تعالى الله عما يشركون.

كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ معتزلا لهذين الفريقين، قد عصمه الله تعالى عن ضلالهم وأتاه رشده منذ صغره، فنشأ طاهر الذيل موحدا، سليم القلب والاعتقاد صالحا فى أخلاقه ومعاملاته وسلوكه وعقيدته رغم أن أباه كان يصنع الأصنام ويبيعها للناس.

﴿ ولَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء].

ولما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة أرسله ربه للناس بشيرا ونذيرا، فبدأ بدعوة أبيه بأسلوب رقيق فى حلم ولين وأدب جم، وبلطف وحنو، واقناع واستمالة مع شدة فى الحق لا تنافى الأدب والمروءة.

إبراهيم ـ عليه السلام ـ يدعو أباه :

قال تعالى فى سورة مريم :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم].

قرر إبراهيم ـ عليه السلام ـ كلمة يا أبت ليظهر حنوه على أبيه وتوقيره وحرصه على ما ينفعه ويصلحه وليرقق قلبه ليقبل الحق.

وفى سورة الأنعام حوار أشد من هذا :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام].

وكما رأى إبراهيم صدود أبيه وعناده وإصراره على الكفر تبرأ منه.

يقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ﴾ [التوبة].

والأول كثير الرجوع إلى الله بالتوبة والإنابة والتسليم والتفويض والتوكل، يشكو إلى الله همه وما يلقاه من أبيه ومن قومه.

وهو حليم وكذا جميع الأنبياء والمرسلين يتصفون بالحلم والعلم والفطنة والصبر والتوكل على الله ومكارم الأخلاق كلها.

ولهذه الصفات التى أتصف بها إبراهيم - عليه السلام - من الإنابة والحلم وغيرها من مكارم الأخلاق والاخلاص والصبر واليقين والرشد وإتمام كلمات الله التى ابتلاه بها سبحانه وتعالى اتخذه الله خليلاً وأراه ملكوت السموات والأرض.

دعوة إبراهيم- عليه السلام- لقومه :

دعا إبراهيم - عليه السلام - قومه إلى الله، وتحدث عن عقيدته ومنهج وذكرهم بالبعث والحساب، وجزاء المؤمنين، ليرقق قلوبهم، ويترك لهم فرصة التفكير ومراجعة الضمائر.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ

﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء].

وجاء في سورة الأنبياء حوار أشد وأكثر حدة، إزاء إصرارهم وعنادهم ورفضهم لدعوة الحق .

قال تعالى : ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[الأنبياء].

إبراهيم ـ عليه السلام ـ يحطم الأصنام :

تحين إبراهيم ـ عليه السلام ـ الوقت المناسب لينفذ ما عزم عليه من كسر الأصنام، وكان ذلك الوقت يوم عيد لهم خرجوا في النزهة خارج المدينة، فتسلل خفية إلى أصنامهم فحطمها وعلق الفأس على كبيرها، لعلهم يسألونه فيحيلهم إلى الأصنام ، فلا يجدون منها جواباً ، ويتنبهون إلى أنها لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنهم شيئا فيفيقون من ضلالهم.

﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى فى سورة الصافات :

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) ﴾ [الصافات].

موقف قومه بعد تحطيم الأصنام :

رجع القوم من لهوهم ودخلوا المعبد فإذا هم يجدون آلهتهم محطمة وبدلا من أن يفيقوا ويتنبهوا إلى أن هذه الآلهة المزعومة لم تستطع حماية نفسها فهى أعجز عن حماية غيرها فلا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا صاحوا مستنكرين قائلين :

﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) ﴾ [الأنبياء].

فرد آخرون: ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) ﴾ [الأنبياء].

وقبضوا على إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ [الأنبياء].

المحاكمة :

أخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ يسفه عقولهم ويقول لهم :

﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾ [الصافات].

إلقاء إبراهيم عليه السلام فى النار:

نفذ القوم المجرمون الحكم الجائر فى إبراهيم عليه السلام غير أن الله تعالى رد كيدهم فى نحورهم.

شرعوا يجمعون حطبا حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحريق إبراهيم: !! ثم عمدوا إلى حفرة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فى النيران فاضطقت وتأججت، وعلا شررها، ثم وضعوا فيها إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن طريق منجنيقة وهى آلة لقذف الحجارة، وخسف الله الأرض بصانع المنجنيق وهو "هيزن".

وكان كلام إبراهيم فى النار حسبنا الله ونعم الوكيل.

قال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

فلم تحرقه النار وخرج منها سالماً بين دهشة القوم وذهولهم.

حجته على عباد الكواكب :

واجه إبراهيم عليه السلام عباد الكواكب الصائبة من قومه .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا

أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام].

المناظرة بينه وبين النمروذ :

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة].

نهاية الطاغية النمروذ :

كان إهلاكه لما قصد المحاربة لدين الله تعالى ففتح الله عليه بابا من البعوض فسدوا عين الشمس وأكلوا عسكره، ولم يتركوا إلا العظام، ودخلت واحدة منها فى دماغه فأكلته، فكان أعز الناس عنده من يضرب رأسه بالنعال، ثم مضي فى البلاد أربعين يوما. ثم أهلكه الله تعالى : ذكره القرطبى.

مع الطيور الأربعة :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة].

ذبح إبراهيم عليه السلام الطيور وفرقها على الجبال المجاورة بعد أن ضمها إليه وتحقق منها ثم دعاها فتجمعت عظامها ولحومها ورأته تسعى إليه بعد أن ناداها فاطمئن قلبه على طريقة إحياء الموتى ولكن سر الحياة أمر متعلق على المخلوقين.

هجرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

ثم هاجر إبراهيم عليه السلام إلى الشام ومصر فى طريقه بمصر فولد له إسماعيل عليه السلام من هاجر المصرية ثم هاجر بها إلى مكة.

قال تعالى على لسان إبراهيم ـ عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٣٨) ﴾ [إبراهيم].

بئر زمزم :

لما نفد الماء والتمر أخذت هاجر تسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط وبعد الشوط السابع نبعت بئر زمزم تحت قدمى إسماعيل.

بناء الكعبة المشرفة :

رفع إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإسماعيل القواعد من البيت ولم يبتدأ البناء فإن الكعبة بنيت قبل إبراهيم بناها آدم عليه السلام أو بنتها الملائكة والدليل على أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لم يكن أول من بنى الكعبة قوله تعالى على لسان

إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم].

وذلك لما ترك هاجر وإسماعيل معها رضيعا. وكذلك قوله تعالى في سورة آل عمران :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [آل عمران] وكان بناء الكعبة بعد حادثة الذبح التى فدى الله تعالى فيها إسماعيل بذبح عظيم.

قال تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الصافات].

وعن بناء البيت يقول تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج]

ويقول تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ

إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير (١٢٦) وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم (١٢٧) ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم (١٢٨) ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم (١٢٩) ﴾ [البقرة].

قوله تعالى : ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين (٩٧) ﴾ [آل عمران] .

أى دلالات ظاهرة، وأن الله عظمه وشرفه قال مجاهد أثر قدميه فى المقام. مقام إبراهيم أى الحجر الذى كان يقف عليه قائما لما ارتفع البناء عن قامته، موضع له ولده هذا الحجر المشهور.

مولد إسماعيل ـ عليه السلام ـ :

﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ (٦٩) فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط (٧٠) وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب (٧١) قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب (٧٢) قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت

إنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود].

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) ﴾[الحجر].

وكان هؤلاء الضيوف جبريل وميكائيل وإسرافيل.

فلا يمكن أن يكون إسحاق هو الذبيح بعد أن بشر به الملائكة إبراهيم وبشره بيعقوب ولد إسحاق.

وفاة إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

توفى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد حياة حافلة بالجهاد والصبر والدعوة إلى الله تعالى بعد أن عاش مائة وخمسة وسبعين سنة، ودفنه إسحاق وإسماعيل عليهما السلام فى مغارة بالخليل من مدن فلسطين.

نبى الله لوط

عليه السلام

نسبه ـ عليه السلام ـ ونشأته :

لوط ـ عليه السلام ـ هو ابن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو لوط بن هاران بن تارح (آزر).

وكان لوط قد آمن مع عمه إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله تعالى إلى أهل سدوم، وأعمالها، التى دمرها التى تعالى بعد ذلك وهى الآن

وكان لوط قد نزح عن محلة الخليل عليه السلام بأمره وإذنه له ، نزل مدينة سدوم من أرض غور زغر، وكان لتلك المحلة أرض وقرى مضافة إليها، ولها أهل، من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية، وأخبثهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل ويأتون فى ناديهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون.

ابتدعوا فاحشة ما سبقهم إليها أحد من العالمين، وهى إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين.

دعوة لوط ـ عليه السلام ـ :

أرسل الله تعالى لوطا إلى قوم سدوم وما جاورها، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات، والفواحش والمنكرات، فتمادوا فى ضلالهم واستمروا على نحورهم وكفرهم، فأحل الله بهم عذابا ما عذبه أحداً من العالمين قبلهم وجعلهم مثله فى العالمين وعبرة لأولى الألباب.

قال تعالى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١) وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤) ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى فى سورة النمل :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ

الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾

وفى سورة الشعراء :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) ﴾ [الشعراء].

صفات قوم لوط

روى عن ابن عباس قوله :

"عشر خصال من أعمال قوم لوط : تصفيف الشعر، وحل الإزار، ورمى البندق، والخذف بالحصى، واللعب بالحمام الطيارة، والصفير بالأصابع، وفرقعة الأكعب وإسبال الإزار، وحل أزر الأقبية، وإدمان شرب الخمر، وإتيان الذكور، وستزيد عليها هذه الأمة مساحقة النساء للنساء.

ويروى أيضا أن قوم لوط فيهم عشر خصال : أهلكوا بها: كانوا يتغوطون فى الطرقات، وتحت الأشجار المثمرة، وفى شطوط الأنهار، ويرفعون ثيابهم قبل أن يتغوطوا، وإخراج الريح بينهم، واللطم على الرقاب، ويحذفون الناس بالحصى ويظهرون المنكر فى مجالسهم، ويأتون بالطامة الكبرى وهو اللواط".

وروى أن من أعمال قوم لوط اللعب بالنرد "الطاولة" والمسابقة بالحمام ، والمهارشة بين الكلاب، والمناطحة بين الكباش، والمناقرة بين الديوك، ودخول

الحمام بلا مئزر، ونقص الكيل والميزان ويل لمن فعلها.

قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (٧٧) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (٧٩) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠) قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) ﴾ [هود].

هلاك قوم لوط:

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣) ﴾ [هود].

أمطر الله تعالى عليهم حجارة من السماء ونزل جبريل عليه السلام فرفع أرضهم وجعل عاليها سافلها أى قلبها فجمع لهم بين عذاب الخسف والرجم. وصاروا عبرة ومثلة وجعلت أرضهم بحرا منتنا هو البحر الميت بالأردن.

الترهيب من عمل قوم لوط:

روى ابن ماجة عن النبى ﷺ : «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى

يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم الذين مضوا». (رواه ابن ماجة وحسنه الألبانى).

وقال رسول الله ﷺ : «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى الثوب الواحد، ولا المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد». (رواه مسلم وأحمد).

وعن ابن عباس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «ملعون من سب أباه، ملعون من سب أمه، ملعون من ذبح لغير الله، ملعون من غير تخوم[1] الأرض، ملعون من كمه[2] أعمى عن طريقه، ملعون من وقع على بهيمة، ملعون من عمل بعمل قوم لوط». (رواه أحمد . صحيح الجامع (٥٨٩١).

وروى الترمذى : «لا ينظر الله – عز وجل– إلى رجل أتى رجلا، أو امرأة فى دبرها، صححه ابن حيان.

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العالمين ويدخلهم النار– فى أول الداخلين– إلا أن يتوبوا، ومن تاب تاب الله عليهم: الناكح يده، والفاعل والمفعول به، ومدمن الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا ، والمؤذى جيرانه حتى يلعنه الناس، والناكح حليلة جاره». (رواه أبو الشيخ، والديلمى، والفريابى وحسنه الشيخ الغمارى فى الاستقصاء ص١٦).

وعن ابن عمر –رضى الله عنه– قال : أقبل رسول الله ﷺ فقال : «يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم

---

(١) تخوم : حدود .

(٢) كمه : أضل .

تكن فى أسلافهم الذين مضوا ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يُمطروا. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم، (رواه ابن ماجة وحسنه الألبانى. أ.هـ).

وبعد وضوح حكم القرآن والسنة فى عمل قوم لوط وشناعة جريمتهم فإن العقوبة الشرعية على هذه الجريمة النكراء هى القتل رجما أو حرقاً أو القاء من فوق جبل أو مكان شاهق نرى الدول الكافرة الغربية تريد أن تفرض على الدول الإسلامية ما يعرف بزواج الجنس المتماثل الرجل من الرجل والمرأة من المرأة، ويريدون أن يصدروا إلينا العفن الذى استشرى فيهم والمتمثل علاوة على ماسبق فى إباحة الزنا والإجهاض بل والمطالبة بسن التشريعات لحماية هذا الفساد وعقوبة من يتصدى له والتهديد باستخدام القوة العسكرية والمقاطعة الاقتصادية فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وليعلم المسلمون أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وليست العزة للكافرين وأن الحرة تموت ولا تأكل بثدييها.

وندعو الله تعالى أن يجعل كيدهم فى نحورهم.

يقول الرسول ﷺ «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به». (رواه أحمد فى المسند (١/٣٠٠) وصححه الشيخ أحمد شاكر.

وقال تعالى فى سورة الذاريات :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)

فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٣٧) ﴾ [الذاريات].

وفى سورة القمر:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) ﴾ [القمر].

عقوبة اللواط فى الشريعة الإسلامية:

روى الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبى عمرو عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال:

«من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول» أ.هـ.

وجعل الله تعالى مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لها بعد أن اقتلع جبريل عليه السلام قراهم بطرف جناحه من فرارهم وكن سبع مدن حتى بلغ بهم عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها.

ذرية إبراهيم - عليه السلام

إسماعيل - عليه السلام

ولادته. عليه السلام. :

ولد إسماعيل ـ عليه السلام ـ وإبراهيم له من العمر ست وثمانون سنة فهو بكر إبراهيم خليل الرحمن عليهما السلام. وهاجر به إبراهيم الخليل ووضعه وأمه هاجر فى برية فاران (مكة) وتركهما وليس معهما من الزاد والماء إلا القليل وذلك ثقة بالله وتوكلا عليه فخاطبهما الله تعالى بعنايته وكفايته.

قال تعالى فى سورة الصافات : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات].

وقال تعالى فى سورة مريم : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ [مريم].

وغير ذلك من الآيات كما فى سورة البقرة وسورة الأنبياء وسورة النساء وسورة ص وغيرها.

دعوته عليه السلام :

بعث إسماعيل عليه السلام إلى قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن وتزوج من العماليق امرأة وطلقها بأمر أبيه إبراهيم عليه السلام ثم نكح غيرها وهى ابنة مضاض بن عمرو.

نسبه ـ عليه السلام ـ :

هو إسماعيل بن إبراهيم خليل الله، وأمه هاجر، وهو البكر من ولد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو الذبيح وهو جد النبى محمد ﷺ .

قال تعالى :

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾ [مريم].

وقال تعالى :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) ﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾ [الصافات].

وقال ﷺ فيما رواه وائلة بن الأسقع -رضى الله عنه- قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله عز وجل اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم..» (رواه مسلم).

نشأته ـ عليه السلام ـ :

عاش إسماعيل عليه السلام فى مكة مع أمه هاجر، ونشأ فى رعاية أمه نشأة كريمة وبين قبيلة جرهم، ولما كبر وبلغ مبلغ الشباب تزوج من تلك القبيلة العربية، وماتت هاجر عليها السلام، وجاء إبراهيم عليه السلام يزور إسماعيل فلم يجده.

فسأل امرأته، فقالت: خرج يبتغى لنا رزقا، ثم سألها عن عيشها وهيئتهم، فقالت : نحن بشر فى ضيق وشدة، وشكت إليه، فقال : فإذا جاء زوجك فأقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس (رأى) شيئا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ فقالت : نعم جاء شيخ صفته كذا وكذا. فسألنا عنك فأخبرته وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أننا فى جهد وشدة، قال : فهل أوصاك بشئ ؟ قالت : نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة بابك، قال : ذاك أبى وأمرنى أن أفارقك، فالحقى بأهلك، فطلقها وتزوج من جرهم أخرى.

ولبث عنهم إبراهيم عليه السلام، ما شاء الله ثم أتاهم بعد ، فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت : خرج يبتغى لنا رزقا، قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت : نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم، قال : ما شرابكم؟ قالت : الماء، قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء.

قال : فإذا جاء زوجك فأقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل، قال : هل أتاكم من أحد؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألنى عنك فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير.

قال : فأوصاك بشئ؟ قالت : نعم وهو يقرأ عليه السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال : ذاك أبى وأمرنى أن أمسكك. ثم لبث عنهم ماشاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الولد بالوالد، والوالد بالولد ،

ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر. قال : فاصنع ما أمرك به ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل

إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) ﴾ [البقرة].

(البخارى بسنده إلى ابن عباس – رضى الله عنه–).

وفاته. عليه السلام.:

مات إسماعيل ـ عليه السلام ـ بعد عمر ناهز مائة وثلاثين سنة. وقيل أنه دفن فى الحجر مع إمه هاجر، وهذا لا يصح لحرمة الدفن في المسجد الحرام وغيره من المساجد ولأنه لا يجوز وطأة القبور أو الجلوس عليها ولأن الصلاة فى المساجد التى بها قبور غير جائزة وقد جاء فى السنة الصحيحة ما يفيد ذلك فى أحاديث كثيرة.

وما روى فى أنه دفن فى الحجر وهو من الموضوعات والله تعالى أعلم.

وقد أنجب إسماعيل ـ عليه السلام ـ اثنا عشر ولدا من زوجته الثانية وعرب الحجاز ينتسبون إلى ابنيه نابت وقيذار.

إسحاق. عليه السلام.

لقد كان لإبراهيم ـ عليه السلام ـ كثير من الولد، وكان إسماعيل بكره، وظل وحيده أكثر من ثلاث عشرة سنة، ثم رزقه الله تعالى باسحاق من سارة، ثم تزوج بعدها "قنطورا بنت يقطن، الكنعانية، فولدت له ستة : مدين، وزمران، وسرح، ويقشان، ونشق والسادس لا يعرف إسمه. ثم تزوج بعدها "حجون بنت أحين" فولدت له خمسة : كيسان، وسورج، وأميم، ولوطان، ونافس.

وإسماعيل وإسحاق هما أشهر أولاده، وأكرمهم وأرفعهم منزلة عند الله تعالى ورثا من أبيهما النبوة والكتاب والعلم والحلم.

وقد عاش إسماعيل بمكة مع أمه هاجر بين جبال فاران[1] فى جوار عصبة من قبيلة جرهم، ونشأ بينهم نشأة كريمة، وظهرت عليهم علامات الذكاء وحسن الخلق والتقوى والعلم والحلم والقوة والشجاعة والفتوة، وأحبهم وأحبوه، وتكلم بلغتهم العربية، وكان أفصحهم لسانا وأعذبهم (أجملهم) بيانا، وأصدقهم قولا، وأسدهم رأيا، وأقواهم حجة وهكذا يكون المرسلون.

أما إسحاق عليه السلام فقد ذكر الله سبحانه قصته ضمن قصة أبيه إبراهيم عليهما السلام، فقد بُشر به على الكبر، وشب بين أبويه الكريمين على مثال الخلق الفاضل، والكمال الوافر، والعلم الواسع، والحلم والخلق الرفيع.

ولما شب إسحق عليه السلام وبلغ مبلغ الرجال زوجه أبوه من "رفقة بنت بتونيل" فولدت له "عيسو" ويقال "عيصو" ويقال عيص" ويعقوب فى بطن واحدة.

ويذكر أهل الكتاب أن خلافات نشبت بين عيصو ويعقوب فهاجر يعقوب إلى خاله "لابان بن بتونيل" وقد أرسل الله إسحاق إلى قومه فلبث فيهم عمرا طويلا يدعوهم إلى الله، ويعلمهم أحكام الشريعة التى جاء بها إبراهيم عليه السلام حتى لقى ربه عز وجل. وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كريمة غير وصف العلم فقال سبحانه :

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ﴾ [الصافات].

وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ

---

(١) فاران : مكة .

الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ [ص].

وعاش إسحاق حتى بلغ من العمر مائة وثمانين سنة، وكانت وفاته بعد غياب حفيده يوسف بمصر باثنتى عشرة سنة، ودفنه أبناه عيسو ويعقوب فى الغار الشريف حيث دفن إبراهيم وزوجه سارة، ورفقه امرأته.

يعقوب ـ عليه السلام ـ

ورث يعقوب ـ عليه السلام ـ من أبيه النبوة والحلم والعلم والصبر الجميل وسائر الصفات التى تحلى بها إبراهيم خليل الله ـ عليه السلام ـ، فحقد عليه أخوه "عيسو" وأضمر له شيئا فخاف يعقوب من أن يقتله فرحل إلى "حاران" فى "فدام آرام" عند خاله "لابان" أخى "رفقة" وهو ابن ناحور.

وتزوج يعقوب ابنة خاله الكبرى "ليئة"، ثم زوجه أختها الصغرى "راحيل" فاجتمعا عنده معا، وكان الجمع بين الأختين جائزا فى شريعتهم.

وأقام يعقوب عند خاله لابان عشرين سنة ثم رحل قافلا إلى فلسطين فسكن فى "شكيم" حيث اشترى أرضا هناك، ثم أتى بإلهام إلهى إلى "بيت إيل"، ثم إتجه إلى بلدة "امرأته" (بيت لحم) ، فولدت راحيل بنيامين وماتت هناك، ثم ارحل إلى "حبرون" حيث أبوه إسحاق فيها، ثم إلى "شيلون" وفيها سكن إلى زمن حادثة ولده يوسف، ثم رحل لمصر، وبها توفى بعد سبع عشرة سنة.

وقد عاش يعقوب ـ عليه السلام ـ مائة وسبعاً وأربعين سنة، وحنط أطباء مصر جثته، وجاء بها يوسف وإخوته إلى جبرون، ودفنوها فى الغار الشريف ورجعوا لمصر حيث عيالهم ومعيشتهم.

وقد ولد يعقوب ـ عليه السلام ـ قبل نبينا عليه الصلاة والسلام بنحو (٢٤٠٧سنة) وتوفى قبله بنحو (٢٢٦٠سنة).

وكان ليعقوب - عليه السلام - من الولد اثنا عشر ولداً.

ستة من ليئة، وهم: "رأوبين، وشمعون، ولاوى، ويهوذا، ويساكر، وزبولون، واثنان من جاريته "بلهة، وهى "دان ونفتالى" واثنان من جاريته الأخرى :"زلفة" وهما : "جاد، وأشير، واثنان من أحب النساء إليه "راحيل" وهما : يوسف وبنيامين".

وليعقوب عليه السلام فى القرآن اسم آخر هو"اسرائيل، ومعناه :عبد الله.

قال تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) ﴾ [آل عمران].

وقد حرم إسرائيل على نفسه – إن شفاه الله من مرض ألم به – لحمان الإبل وألبانها، وقيل هذا المرض هو عِرق النسا.

وكان يعقوب - عليه السلام - يحب ولده يوسف - عليه السلام - أشد الحب ويحنو عليه لصغره وأوصاه بكتمان رؤيته التى رأى فيها أحد عشر كوكبا والشمس والقمر له ساجدين. حتى لا يزداد حقدهم عليه وكيف أنهم ذهبوا به وألقوه فى غيابة الجب وكيف كف بصر يعقوب من البكاء على يوسف وكيف أخذوا بنيامين إلى مصر ومقدم يعقوب على يوسف ومقامه وأهله فى مصر وغير ذلك من الأحداث التى رويت فى قصة يوسف - عليه السلام -.

خلاصة القصة

نسبه - عليه السلام - :

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل - عليهم الصلاة والسلام - تزوج من ابنة خالته ليا ثم تزوج اختها راحيل وكان هذا جائزا فى ملتهم أى الجمع .

بين الأختين ، وأنجب ابنه رسول الله يوسف - عليه السلام - من الزوجة الثانية راحيل وكذلك بنيامين ، أما بقية أبنائهم فهم من زوجته ليا .

وقصة يعقوب - عليه السلام - تندرج فى قصة ابنه يوسف عليه السلام فقد رأى يوسف رؤيا : أن أحد عشر كوكبا والشمس والقمر قد سجدوا له وقص يوسف قصته على أبيه فحذره من روايتها لأخوته حتى لا يحسدوه ويكيدوا له وقد كان يعقوب - عليه السلام - يرى بوادر الحسد والحقد على إخوة يوسف له لما بدأ عليه من الذكاء والنجابة والفطنة وحسن الخلق وقربه من أبيه يعقوب.

ثم كان ما حدث فى قصة يوسف من ضياعه من أبيه وحزن يعقوب عليه وكثرة بكائه عليه حتى أبيضت عيناه من الحزن ثم اللقاء بينهما بعد سنين طويلة قدرها بعض المفسرين بأربعين سنة.

ثم تحققت رؤيا يوسف عليه السلام وجاء أبوه يعقوب وسائر أهله من الشام وخر أبواه له سجدا وإخوته بعد لقائهم به وقد تولى يوسف الصديق عليه السلام منصب كبير الوزراء فى مصر وكان هذا السجود بانحناء الرأس أو الركوع وكان ذلك سائغا فى الشرائع السابقة وكان على سبيل التحية والتعظيم وقد حُرم هذا السجود فى الإسلام فلا ركوع ولا سجود فى شريعتنا إلا لله تعالى.

ثم مات يعقوب - عليه السلام - ودفنه ابنه يوسف عليه السلام وتكاثر بنو إسرائيل فى مصر وإسرائيل لقب ليعقوب عليه السلام وهو الذي حرم لحوم الجمال لما أصابه عرق النسا .

وكانت نبوة يعقوب عليه السلام بالشام.

ذكر إبن إسحاق عن أهل الكتاب أن يعقوب أقام بديار مصر عند يوسف

سبع عشرة سنة ثم توفى ودفنه يوسف عند أبويه إبراهيم وإسحاق بالشام بالمغارة. وقد ذكر أهل الكتاب أنه أوصى بنيه واحدا واحدا وأخبرهم بما يكون من أمرهم وبشر يهوذا بخروج نبى عظيم من نسله تطيعه الشعوب وهو عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ.

وبكاه أهل مصر سبعين يوما وأقيم له العزاء سبعة أيام.

يوسف ـ عليه السلام ـ

قصة يوسف ـ عليه السلام ـ فريدة فى نمطها (نوعها) وأسلوبها ومقاصدها وإعجازها. قد اشتملتها سورة واحدة لأنها قصة أسرية موصولة الأطراف متماسكة الحلقات متتابعة الأحداث لذلك كان لها مذاق خاص حيث لم تقبل الأنفصام بحال.

مقاصد السورة :

١- مواساة النبى ﷺ والمؤمنين معه فى محنتهم، حيث اشتد عليهم أذي المشركين. فاحتاجوا إلى ما يسرى عنهم.

٢- كانت هذه القصة من أعظم السلوى للرسول ﷺ وللصحابة لما بين الرسول ﷺ وبين أخيه يوسف من شبه فى أخلاقه وظروفه .

أ- فيوسف قد آذاه وكاد له أقرب الناس إليه وكذلك محمد ﷺ .

ب- كان أول ما بدىء به يوسف عليه السلام من الوحى الرؤيا الصالحة، وكذلك الرسول ﷺ .

جـ- وقد أوتى الرسول ﷺ علما غزيرا فى تأويل الرؤيا وكذلك يوسف عليه السلام.

د- ألقى يوسف فى الجب، واضطر محمد ﷺ إلى الدخول فى الغار.

وخرج يوسف من الجب إلى قصر فسيح مكرماً، وكذلك محمد ﷺ خرج من الغار إلى الإكرام والحب والحماية من أهل المدينة.

هـ- تآمر أخوة يوسف على قتله أو طرحه أرضا أو القائه فى الجب، وتآمرت قريش على النبى ﷺ لقتله أو حبسه أو إخراجه إلى أرض بعيدة.

و- ودخل يوسف السجن، وحوصر النبى ﷺ فى شعب أبى طالب هو ومن معه من المؤمنين، حتى أكلوا أوراق الشجر من شدة الجوع، ومصوا الحصى من شدة الظمأ.

ز- أعز الله يوسف بالملك والسلطان، وأحوج إليه إخوته، فأكرم وفادتهم، وعفا عنهم. ونصر الله عبده محمدا على قريش، وملكه نواصيهم، فعفا عنهم وأطلقهم.

٢- والمقصد الأصيل الجامع هو وضع منهج متكامل في التربية الخلقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

إذ تحدثت هذه السورة عن نوازع الخير والشر فى الإنسان، وانعكاس هذه النوازع على سلوكه مع نفسه، ومع أسرته ومع مجتمعه، وكشف أعماق النفس البشرية، وحللت أسباب هذه النوازع، ووسائلها فى تحقيق مآربها وغاياتها.

بداية القصة :

قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ (٣) ﴾ [يوسف].

فهى قصة محكمة وآية فى الإعجاز، ليعلم من يكذب الرسول ﷺ صدقه حيث لم يجلس إلى معلم ولا إلى قصاص، وهو أمى لم يقرأ كتاباً ولم يخط بيمينه.

وتبدأ القصة برؤيا رآها يوسف ـ عليه السلام ـ فقصها على أبيه وعبرها له فأوصاه أبوه بكتمانها عن إخوته لعلمه بأنهم لا يحبونه، وأعلمه أنهم لو علموا بتأويلها لكادوا له كيدا يمليه عليهم الشيطان، وهم فى قمة حقدهم عليه وحسدهم إياه.

وكان ذلك صبيحة يوم صحى فيه يوسف مناديا على أبيه بلهفة:

يا أبت ... يا أبت !!

وارتاع الشيخ وصاح : مالك يا يوسف .. ما الأمر؟

قال الغلام : إنى رأيت يا أبت فى المنام رؤيا عجيبة.

قال أبوه وهو يربت على كتفه بحنو ويضمه إلى صدره فى ضوء خيرا إن شاء الله ، أخبرنى يا بنى ماذا رأيت؟

قال الغلام : إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين.

قال أبوه : يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك، فيكيدوا لك كيدا، إن الشيطان للإنسان عدو مبين.

وكان يوسف بن يعقوب طفلا جميلا ذكيا، وهبه الله حسن الخلقة وجمال الروح، وكان مقربا عند أبيه محبوبا لديه حبا ملك عليه قلبه وحواسه فغار منه إخوته. وقد بشر يعقوب يوسف عليهما السلام - بالنبوة وإتمام النعمة بالعلم والحكمة وتأويل الأحاديث، وأنه سيرث عن آبائه ميراث العلم والحكمة والنبوة.

يقول تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ

فيكيــدُوا لكَ كَيْدًا إنَّ الشَّيْطَانَ للإنسَانِ عدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وكَذلكَ يجْتبِيكَ ربُّكَ ويُعَلِّمُكَ من تَأْوِيــلِ الأَحَاديـــثِ ويُتِمُّ نعْمتَهُ علَيْكَ وعلَىٰ آلِ يعْقُوبَ كمَا أتَمَّهَا علَىٰ أبوَيْكَ مِن قَبْلُ إبْرَاهِيمَ وإسْحَاقَ إنَّ ربَّكَ عليمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف].

ويقول تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [يوسف].

أى لقد كان ولا يزال فى قصة يوسف علامات واضحة الدلالة على قدرة الله تعالى فى أعزاز من شاء، وإذلال من شاء وفق حكمته البالغة فى تدبير شئون خلقه، وأمارات دالة على صدق رسوله فيما يبلغ عن ربه.

كيد إخوة يوسف وتآمرهم عليه :

بعد هذا الاستهلال يذكر الله عز وجل أن إخوة يوسف قد حسدوه وحقدوا عليه لحب أبيه إياه، وعلى ما أوتيه من علم وجمال، فأئتمروا على قتله أو إبعاده عن أبيه بطرحه فى أرض بعيدة لا يمكنه الرجوع منها إليه، ولا يعرف أحد مكانه.

ولكنهم لم يتفقوا جميعا على قتله، ولا طرحه فى أرض بعيدة يكون فيها هلاكه محققاً، حيث تحركت فى أخيهم الكبير بعض نوازع الرحمة فقال : لا تقتلوا يوسف، ولكن ألقوه فى قعر بئر، فتأخذه بعض القبائل السيارة معهم فى رحلتهم، ويعيش بعيدا عنا ويخلوا لنا وجه أبينا ثم نتوب ونكون من بعده قوماً صالحين.

وأعجبهم هذا الرأى ، فأقروه واتفقوا عليه وذهبوا إلي أبيهم وقالوا له بتودد: يا أبانا مالك لا تأمنا على أخينا يوسف وإنا له لناصحون، أرسله معنا غدا يرتع فى الخلاء ويلعب وإنا له لحافظون.

نظر أبوهم إليهم متفكرا فيما يعرضونه عليه وهو يعلم حقيقة مشاعرهم تجاه يوسف وقال : يا أبنائى إننى أخشى عليه مخاطر الصحراء وقسوتها، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون.

فقالوا : يا أبانا لا تخف، إن يوسف أحب إلينا من أنفسنا فكيف لا نحافظ عليه وهو أخونا، والله لئن أكله الذئب ونحن عصبة قوية إنا إذا لخاسرون. وأمام إلحاحهم ورغبة يوسف فى الخروج مع إخوته ليلعب ويشاهد أماكن جديدة وافق يعقوب على أن يذهب يوسف مع إخوته يلهو ويلعب وأخذ يوصيهم به خيرا وقلبه يخفق من الخوف عليه.

يقول تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ (٩) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ [يوسف].

وقد بنوا على تلك المكيدة أمالا وأحلاما تدل على سفه عقولهم وفساد رأيهم وقسوة قلوبهم، فقد سول لهم الشيطان، وأملى لهم أنهم لو قتلوه، أو أبعدوه سيخلص لهم حب أبيهم. والعجب منهم كيف يفعلون تلك الجريمة النكراء وهم عصبة مؤمنة– أبناء نبى مرسل ، سمعوا من أبيهم العظات والعبر ما من شأنه أن يغرس فى نفوسهم حب الخير وينزع من قلوبهم الغل والحقد.

لكنه الهوى لعب برءوسهم على كثرتهم فنسوا وفقدوا شعور الإخوة إخوة النسب وأخوة الإيمان، ونسوا عاقبة الجريمة فى الدنيا والآخرة. وأى صلاح يرجى لهم بعد أن يبعدوا يوسف عن أبيه وهو قرة عينه ؟!!

هل تراه يحمدهم على هذه الجريمة، ويتحول بوجهه إليهم، ويخصهم بحبه وقربه؟

هل ينسى ما فعلوه بأحب أبنائه إليه، وخليفته من بعده مهما كرت الأيام والسنون؟ أو يقلل من حدة وقعها مر الزمان.

فمن الذى هو فى ضلال مبين؟!!

أبوهم الذين يعطف على يوسف لضعفه، ولأنه وارث نبوته أم هؤلاء الذين استخفوا أبيهم وقسوا على يوسف لينسى ما فعلوا وهم عشرة رجال تربوا فى بيت النبوة ثم اجتمعوا على ضلالة.

ولعهم أحاطوا علما بالرؤية التى رأها يوسف فى منامه.

إنهم اجتهدوا فى الاحتيال على أبيهم، ومهدوا لطلبه منه بخطاب مهذب وقول معسول وتكلموا بما يخالف سرائرهم وما فى قلوبهم.

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (١٠) قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١٢) ﴾ [يوسف].

وكان يعقوب - عليه السلام - يشك فى نواياهم فقال لهم:

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٥) [يوسف].

وخرجوا إلى الصحراء، وقضوا يومهم فى لهو ولعب، والله يعلم ما يضمرون فى أنفسهم، وقبل أن تميل الشمس إلى الغروب، اصطحب المتآمرون أخاهم يوسف عند بئر عميقة القعر، وهناك خلعوا عنه قميصه ووضعوه فى غيابة البئر وهو يصرخ فيهم ويستغثيث بهم:

يا أخوتنى لمن تتركونى فى هذا الظلام وهذه الوحشة.. يا إخوتى لا تتركونى هنا وحدى مع الليل والبرد. يا أخوتى ماذا ستقولون لأمى ولأبى، إن أبى سيفجعه فراقى، استحلفكم بالله ألا تتركونى هنا وحدى.

وتركوه وانصرفوا وهم يفكرون فى كلام يدخلون به على أبيهم، وأنزل الله على قلب الغلام أمنا وسلاما، وآنس وحشته، بعد أن حدث ليوسف من الهول والفزع مالا يتصوره عقل ولا يحكيه لسان.

أوحى الله إليه ببشرى عظيمة، تبرد حزنه وأسفه، وتجدد فى قلبه الأمل والرجاء فى رحمة ربه الواسعة، وتبعث فى نفسه السرور بالنصر على هذه العصبة الآثمة في يوم يقفون أمامه إذلاء صاغرين يستجدونه الصدقة، ويطلبون منه الصلح وهو حاكم على أرض كثيرة الخيرات، عظيمة البركات، لا ينقطع خيرها عن القاصى والدانى، ولا ينضب معينها.

وانتظر يوسف الفرج من ربه صابرا محتسبا وهو في هذا الجب الموحش ولم يتحرك ضمير واحد من هذه العصبة فيخرجه من الجب ويشعر بالندم أو يشعر ناحيته بلمسة حنان.

تركوه فى هذا السجن الانفرادى الموحش بلا ماء ولا زاد، ورجعوا إلى أبيهم يتصنعون البكاء تمهيدا للخبر المشئون الذى ألقوه فى وجهه دون تمهيد كلام يتناقض مع ما قطعوه على أنفسهم من وعد، وكلام آخر ختموا به هذا الخبر يدل على كذبهم وتزويرهم.

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ (١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف].

من البئر إلى بيت العزيز:

وظل يوسف فى الجب حتى جاءت قافلة تجارية فنزلوا بالقرب من مكان الجب، وأرسلوا من يأتيهم بالماء، فأدلى دلوه فيه فتعلق يوسف به، فلما رآه الساقى طار فرحاً واستبشر خيرا. وأخفاه مع رفاقه، ولم يبالوا به ولم يرقوا لحاله فيسألوه عن أهله ليسلموه إليهم، كما هو شأن الأمناء وأصحاب المروءة ولكنهم تصرفوا تصرف اللصوص فباعوه لرئيس الجند وأمير الخزانة في مصر وهو ما يلقب بالعزيز ويسمى قطفير أو "فوطى فار".

وقد اشتراه منهم بثمن بخس دراهم قليلة، وكانوا يريدون أن يتخلصوا منه بأى ثمن، خوفا من أن يلقاه أحد من أهله فينتزعه منهم ، أو أرادوا مجاملة العزيز لتسهيل تجارتهم ومصالحهم فى مصر.

يقول تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (٢٠) ﴾ [يوسف].

ودخل وزير مصر ورئيس حكومتها على زوجته الحسناء حاملا إليها أغلي هدية، وما إن رأت الزوجة الغلام حتى فطنت إلى أن زوجها يشتاق إلى ولد، وبادر زوجها فقال : يا عزيزتى، هذا غلام جميل أكرمى مثواه (إقامته) عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، يؤنس وحشتنا ويملأ بيتنا بهجة وسروراً. وعاش يوسف فى

قصر الوزير فى ترف وراحة، ويلقى من أهل البيت كل رعاية وحب، وتولى الله رعايته فنما جسمه ونضج فكره، وجرى ماء الشباب فيه فازداد نضارة وحسنا وأتم الله عليه النعمة بأن حفظه من نزوات النفس ووساوس الشيطان فبدا الفتى متزنا محتشما وقوراً.

(المراودة)

فى هذا الوقت كانت زوجة الوزير تراقب الفتى أينما ذهب وحينما جاء، وتتابعه بنظرات مشتاقة، وتستلفت نظره بزينتها وفتنتها، ولكن يوسف كان مشغولا عنها بذكر الله ، وزاد هيامها به وحبها له.

وذات يوم استبد بها الحنين واستعر بها الشوق ، وغلقت أبواب القصر بعد أن تزينت فبدت فى أحسن زينة واقتربت منه يفوح منها عطر أخاذ وهى تقول بصوت ناعم أخاذ كأنه السحر : هيت لك أي تهيأت لك فهلم إلى، وغلقت الأبواب. فقال معاذ الله أن أقدم على معصية الله تعالى، وأخون العزيز الذي أكرم مثواى. ووعظها وعظا بليغاً، وذكرها بعاقبة الظالمين، ومن يقابلون الإحسان بالإساءة، وقد عز عليها أن يرفض لها طلباً كهذا، وهى ذات الحسب والمنصب والجمال، وقد أذلت أنوثتها، وهو منها بمنزلة الخادم، وقد أحسنت وفادته وأكرمت مثواه، وقد همت بأن تضربه وهم بأن يضربها إن حاولت قهره على هذا الفعل الأثيم ولكنه فضل الفرار من أمامها على أن يضربها وهى التى ربته، ولربما أدعت أنه تهجم عليها فلما رفضت ضربها.

وقد رأى بنور الله أن يفر إلى الباب الخارجى ، فاستبقا الباب هو يريد الهرب وهى تريد اللحاق به لترده إليها بقوة، فقد أضحت بين نار الشهوة ونار الانتقام لنفسها، وقطعت قميصه من الخلف طولا من أعلى إلى أسفل، ولكنه مضى إلى الباب ففتحه، فإذا بالعزيز عنده فرأى ما هاله وأدهشه، فأسرعت إليه تشكو يوسف قبل أن يشكوها.

قالت : لا أرى إلا أن تسجن هذا الخائن الذى أراد بأهلك الفاحشة أو تعذبه عذابا أليما . فقال يوسف عليه السلام : هى راودتنى عن نفسى وأنا تمنعت عليها.

فنظر العزيز فى وجه يوسف فرأى فيه البراءة والصدق ولكنه أراد البينة فتطوع شاهد من أهلها كان فى صحبة العزيز عند عودته إلى قصره وهو قريب للعائلة لا يتهم بالمحاباه ليوسف أو التحامل على امرأة العزيز.

فحكم حكم القاضى المحنك الخبير فقال : أنظر إلى قميصه فإن كان مقطوعاً من الأمام فهى صادقة وهو كاذب فيما إدعاه وإن كان ممزقا من الخلف فهى كاذبة وهو صادق وهو الذى فر منها وهى لاحقته ومزقت قميصه.

ولما تبين للعزيز كذب امرأته وصدق يوسف زجر المرأة، ووصفها بالكيد العظيم كسائر النساء وطلب منها التوبة وطلب من يوسف ألا يخبر أحداً بما حدث ليغطى على فضيحة تشينه وتشين امرأته فى المركز الاجتماعى والسياسى.

قال تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن

كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف].

لعلك لاحظت فى الآيات السابق ذكرها أن الله تعالى لم يذكر إسم المرأة ولا إسم زوجها سترا عليهما، وقوله تعالى : «وراودته» يدل على تكرار الطلب وتكرار الرفض.

وقوله هو فى بيتها - يدل على فشلها فى إغرائه رغم أنه فى بيتها وتحت سطوتها (سيطرتها) فقد عصمه الله منها.

وقوله تعالى : ﴿ وغلقت الأبواب ﴾ دليل على أنها يئست من مطاوعته فأرادت أن تحقق رغبتها منه بالقوة.

وفى قوله تعالى : ﴿ هيت لك ﴾ دلالة على أن هذه المرأة فقدت توازنها وذهب حياؤها ومروءتها وتناست حسبها ومنصبها فدعته بالكلمة الصريحة لنفسها ولكنه تعفف واستعصم بالله رغم غلق الأبواب.

وفى قوله تعالى : ﴿ قال معاذ الله ﴾ دلالة على قوة عزمه على الرفض ومعناها ألوذ بالله ملاذا، واعتصم بقوته وألجأ إليه ليصرف عنى السوء.

وقوله تعالى : ﴿ وقد همت به وهم بها ﴾ لا يفهم منه طعن السوء فى حق يوسف عليه السلام وذلك لقوله تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ أى الذين اخترناهم وأخلصناهم لرسالتنا وعبادتنا.

وقصة الشاهد تفيد أنه كان حكيما خبيرا بأساليب الطب الشرعى لاستدلاله بمكان قطع القميص لتحديد من قارف الإثم، ولاتاحة الفرصة للعزيز ليتحقق بنفسه وبأمارة قوية من خيانة زوجته دون أن يرميها فتكذبه وتعاديه

ويعاديه زوجها أيضا لأن النفوس لا تقبل سماع هذا الإتهام فى شأن أحبائها وأقربائها. وقيل أن الشاهد كان طفلاً رضيعاً نطق فى المهد .

المكر المتبادل بين نسوة المدينة وامرأة العزيز :

شاع الخبر فى المدينة، وتناقلته النسوة فيما بينهن، ولعله تسرب عن طريق الخدم أو لعلها أفشت سرها لامرأة صديقة فأذاعته.

ولما انتهى الحديث إلى امرأة العزيز، أرسلت اليهن، ومكرت بهن،

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾ [يوسف].

فالنسوة حين سمعت الخبر لم يطقن صبراً على رؤية يوسف ذاك الفتى الذى جمع خصال الكمال العشرة وآيات الجلالة والجمال . فأجبن الدعوة بلهفة وشوق.

إن حبه قد ملك عليهن شغاف قلوبهم فأردن أن يرينه لعلهن يحظين منه بما يدور فى رؤسهن. فأوعزن إلى من ينقل إليها الخبر لعلها تسمح لهن برؤيته ليعذرنها فيه، وهذا من مكرهن فبادلتهن امرأة العزيز مكرا بمكر وكيدا بكيد، فأعتدت لهن متكئا حافلا بم لذ وطاب من طعام وفاكهة مما يقطع بالسكين كالتفاح أو البطيخ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا حادة، وأمرت يوسف أن يخرج عليهن بعد أن أمسكن بالسكاكين وهممن بتقطيع الفاكهة أو تقشيرها،

فلما رأينه عظمنه غاية التعظيم، وهممن بالوقوف له ، وجرحن أيديهن جروحا بالغة عبر عنها القرآن بالتقطيع، وذلك من فرط ذهولهن برؤيته، وملأت قلوبهن مهابته، وسحر أعينهن جماله، فوصفنه بأنه ملك كريم وليس واحداً من البشر، ووصف الملك يطلق للتعبير عن التوقير والتعظيم والجمال والجلال.

ونجحت خطة امرأة العزيز، وشفت غيظها منهن، فقالت لهن والدماء تنزف من أيديهن: فذلكن الذى لمتتنى فيه، فأنتن قد وقع لكن من أول نظرة ماوقع، فكيف بى وهو يلازمنى فى بيتى، ويعايشنى وأعايشه، ويقرب منى وأقرب منه، وأتعامل معه فى كل وقت وحين، وأدعوه إلى فيأبى على، ولكنى سوف أنال منه ما أريد، أو يكون مصيره السجن ذليلاً صاغراً.

لقد اعترفت لهن بادانتها وبراءته من السوء والفحشاء، واستقامته وتعففه غير هيابة ولا وجلة.

ولعلها أرادت بهذا الاعتراف أن تغيظهن، وعدم الاكتراث بتشنيعهن عليها، وأنها السيدة المطاعة، التى لا يرد لها أمر وأن أمرها سينفذ إن عاجلاً أو آجلاً.

إن النسوة اللاتى مكرت بهن كن أقدر منها على فهم طبائع الرجال واقدارهن فأصدرن حكمهن عليه من أول نظرة : ﴿ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم﴾.

دعاء يوسف. عليه السلام. ولجوئه إلى ربه :

رأى يوسف أن الخطر محيط به من كل جانب ، وأضحى فى هم وكرب لا يطاق، فاستغاث بالله ودعاه أن يصرف عنه كيد النسوة وأعلن أنه لا طاقة له بتحمل هذا الكرب إلا بعون الله فاستجاب الله تعالي له فصرف عنه كيدهن.

ولما اشتهر حديث يوسف بين خاصة القوم وسادتهم فتشاوروا فيما بينهم

واتفقوا على إبعاد يوسف حتى تهدأ الفضيحة وينساها الناس واستقر رأيهم أن يودعوه فى السجن إلى حين مع علمهم ببراءة ساحته.

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥) ﴾ [يوسف].

يوسف فى السجن :

دخل يوسف السجن ومعه فتيان، أحدهما كان ساقى الملك والآخر كان خازن طعامه كما روى عن ابن عباس – رضى الله عنه –.

وكانا متأثرين بتقاليد البيئة وعادات القوم التى التوت بهما عن نهج الفطرة القديم. وقد عرفا قدر يوسف عليه السلام وعرفا فيه الصلاح والذكاء والعلم والحكمة فاتخذاه معلماً ومرشداً ومفتياً وصاحباً.

ولقد رأيا رؤيا أزعجتهما ولم يعرفا لها تعبير، فاستفتياه فيها وسألاه أن يعبرها لهما.

قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف].

اغتنم يوسف حاجتهما إلى تعبير الرؤيا وحسن اصغائهما ليعرض عليهما دين الله الذى ارتضاه الله تعالى له ولآبائه الكرام، واختاره لنشره بين الناس فمهد الطريق إلى ما يجرى على يديه من كرامات، منها أنه كان يخبرهما عن الطعام الذى يرزقانه قبل أن يأتيهما، ويذكر لهما نوعه ومنافعه ومضاره وكيف

صنع، وغير ذلك مما علمه ربه.

قال تعالى : ﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف].

لقد حملهما على الإقرار بفضله فى العلم بالأمور المغيبة ليصدقاه فى تفسير الرؤيا وأخبرهما أنه لا يعلم الغيب لكنه يستمد هذا العلم من ربه سبحانه، ثم يطلعهما على السبب فى هذا العلم فقال :

﴿ إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخر هم كافرون ﴾

فعرض بهما وبملتهما الشركية، ثم أخبرهما أنه على دين أبائه رسل الله الكرام الذين لم يشركوا بالله شيئا، وأن الله تعالى قد تفضل عليهم بالعلم والمعرفة فضلاً عن النبوة والرسالة، وأن كل من آمن بهم واتبع ملتهم لترغيبهم فى اعتناق دين التوحيد الخالص، وأفهمهم أن الناس لو عرفوا بهذا الدين لأعتنقوه، وشكروا الله الذى دعاهم إلى تحكيم العقل فى أمر هو الفيصل بين عقيدتين، عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ، فقال : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ [يوسف].

أرباب متفرقون ليس بينهم ارتباط ولا اتفاق ، ولا قدرة لأحدهم على النفع والضر، يتوجه إليهم بالدعاء والاستغاثة أم الله الواحد القهار الذي بيده ملكوت كل شئ، وله الخلق والأمر، وله الحمد فى الأولى والآخرة فخيرهم بين ظلمة الجهل والكفر، وبين ما هو عليه من العلم والإيمان والهدى.

ولما رأى منهما ميلاً إلى الهدى قد بدى على وجهيهما واجهما صراحة بفساد معتقداتهما ومعتقدات قومهما، وبين لهما بوضوح أن هذه الأوثان التى يعبدونها إن هى إلا أشياء صنعوها بأيديهم وسموها آلهتهم، ما أتاهم بها من الله حجة ولا برهان. وأن الله هو المعبود بحق، وأن له الحكم والأمر وحده، وأن التوحيد الخالص هو الدين القيم الذى لا زيغ فيه ولا ضلال قال :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (40) ﴾ [يوسف].

وبعد أن أبلغهما يوسف عليه السلام رسالة ربه بالحكمة والموعظة الحسنة شرع فى تعبير رؤيتهما. قال تعالى :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (41) ﴾ [يوسف].

وروى الترمذى عن لقيط بن عامر، قال : قال رسول الله ﷺ : «رؤيا المؤمن جزء من أربعين جزءا من النبوة، وهى على رجل طائر ما لم يتحدث بها، فإذا تحدث بها سقطت». قال : وأحسبه قال : «ولا يحدث بها إلا لبيبا أو حبيباً».

ومعنى على رجل طائر يفيد إذا فسرت تقع كما فسرت. إن خيراً فخير وإن شراً فشر فقد يكون لها وجهان.

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (42) ﴾ [يوسف].

والمعنى أن الشيطان أنسى الساقى ذكر قصة يوسف وبراءته لسيده الملك

فكان ذلك سبباً فمكث يوسف ـ عليه السلام ـ فى السجن بضع سنين أخرى لحكمة يريدها الله تعالى ولبضع عدد من ثلاث إلى تسع. أو أن يوسف ـ عليه السلام ـ أخذ لشكايته إلى الملك بدلا من شكايته إلى الله وحده.

رؤيا الملك :

رأى الملك -الريان بن الوليد- رؤيا حيرته وأدهشته وأفزعته، فدعا مستشاريه وأصحاب الرأى وكبار رجال دولته وعلماءهم ليعرض عليهم هذه الرؤيا، وطلب منهم أن يعبروها (يفسروها) له، ففكر الملأ ملياً فى هذه الرؤية، ولم يجد أحد منهم تفسيرا لها، ولم يعبرها أحد للملك ولو على سبيل الكذب والخطأ والإ كان الملك أخذها منه ولم يعرف قصة يوسف عليه السلام وما كان من أحداث حدثت بسبب ذلك وإنما أعلنوا عجزهم عن التعبير فتذكر ساقى الملك : الذى كان يزامل يوسف فى السجن فقال للملك والملأ : أنا أخبركم بتعبيرها عن طريق رجل صالح لديه علم غزير بفنون التعبير وغيرها من العلوم والفنون يتصف بالجلال والجمال فأرسلونى إليه فى السجن وقص ماكان من شأنه مع يوسف فى السجن. فأرسله الملك إلى يوسف فى السجن فدخل عليه وناداه بصفة محببة إليه وهى صفة الصديق . قال : أفتنا فى رؤيا رآها الملك ، وعجز الملأ جميعهم عن تعبيرها لعلى أرجع إليهم بعلم نافع.

قال تعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ (٤٤) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا

الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾ [يوسف].

وقد رأى الملك - الريان ابن الوليد - وهو أحد ملوك الهكسوس الذين استعمروا الوجه البحرى لمصر وهو من العمالقة. رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف ومهازيل، ورأى سبع سنبلات خضر يأكلهن سبع سنبلات يابسات.

وقد عبر القرآن الكريم عن كبير مصر الذى كان فى عهد يوسف بلفظ ملك لأن هذا الملك لم يكن من (قبط مصر) ولم يصفه بلفظ فرعون لأنه كان من البدو الغرباء عن مصر ولم يكن المصريون يطلقون لقب فرعون إلا على الملك المصرى الخالص ولا يطلقونه على المستعمرين. والقرآن يراعى المصطلحات عن أهلها. وقيل إن الله تعالى ذكره بلفظ الملك لأنه أسلم على يد يوسف ـ عليه السلام ـ، وليس لأنه غريب عن أهل مصر.

تعبير يوسف ـ عليه السلام ـ للرؤيا :

أسرع يوسف بتعبير رؤيا الملك للساقى وبيان عواقبها، ومزج التأويل بالنصح والإرشاد لمواجهة الجدب (القحط) الذى سوف ينزل بالبلاد لمدة سبع سنين متواصلة بعد رخاء يدوم سبع سنين متصلة وأضاف شيئا آخر أوحى إليه يندرج فيما يعرف بعلم الاقتصاد وفنون التخزين والتموين فقال ما حكاه القرآن:

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾ [يوسف]

وقد تجلى فى تفسير يوسف عليه السلام لهذه الرؤيا العلم الواسع والأدب الجم والخبرة بشئون الزراعة والاقتصاد بما أفاضه الله عليه من علم ومن وحى وما أدبه ربه من أدب جم وما أنعم عليه من ذكاء وكمال وجلال. فقد قال تزرعون بصيغة الخبر وليس بصيغة الأمر وكأن معظم شعب مصر مزارعين وهو يوجه خطابه إلى ملك.

وقد نصحهم إذا حصدوا زرعهم أن يتركوه فى سنبله حتى لا تتسرب إليه الرطوبة ويرعى فيه السوس، إلا قليلا ما يحتاجونه للقوت مع الاكتفاء بالضرورة فى الطعام دون إسراف فى قوله إلا قليلا مما تأكلون . وهذه إشارة لطيفة إلى التقلل من الطعام وعدم الإسراف ولم يسقها بصيغة الأمر، فهذه السنين السبع تأويل للبقرات السبع السمان، والبقرات السبع العجاف تأويل القحط السبع، والسنبلات على ظاهرها كل سنبلة تأويلاً لزرع سنة.

وأخبرهم بأنه سيأتى بعد هذا الخصب والرخاء سبع سنوات صعاب على الناس يأكلون ما قد أدخروه من الأقوات، حتى تفنى الخزائن إلا من القليل المدخر. وبعد تأويل يوسف للرؤيا بشرهم بمجئ عام بعد هذه المجاعة يجد الناس فيه خيراً كثيراً وشبعاً ورخاء حتى أنهم يعصرون فيه ما من شأنه أن يعصر من الفواكه والقصب والسمسم وغيرها وهذه العصائر تدل على الرخاء لأن الناس لا تعصر الفواكه والحبوب إلا إذا كانت فيها وفرة وهذه البشرى من دلائل نبوته عليه السلام لأنه من قبيل الوحى وعلم الغيب الذى لا يظهره الله تعالى إلا لمن ارتضى من رسول.

وقد أراد يوسف ـ عليه السلام ـ أن يرجع الرسول بهذه البشرى تآليفاً لقلوبهم ، واستدعاء لسرورهم، وإذهابا لخوفهم من تلك السنين الجدبة ليدب فى قلوبهم الأمل ويبعث فيهم الجد على العمل ، ويزيل عنهم اليأس والإحباط.

وقد عبر يوسف ـ عليه السلام ـ بكلمة تزرعون بدل يزرعون فجعل الساقى واحدا مما يهم الأمر وذلك أدعى لثقة الساقى فى نفسه وتآليف قلبه وادعى لدقة نقله الخبر عن يوسف ـ عليه السلام ـ فياله من عالم لبيب وناصح أمين ومصلح أريب وصديق ونبى كريم.

يوسف يرفض الخروج من السجن حتى تثبت براءته :

ورجع الساقى إلى الملك فأخبره بتأويل رؤياه فأعجب بالمعبر والتعبير، فوقر (سكن واستقر) فى قلب الملك أن هذا العالم الغزير العلم والناصح الأمين والمصلح الخبير لا يجب أن يبقى فى السجن فأرسل إلى السجن رسولا يحمل أمره بخروج يوسف، فلما جاءه الرسول أمره أن يرجع إلى سيده ويسأله عن النسوة اللاتى قطعن أيديهن وما كان من شأنهن وما كان من كيد امرأة العزيز، فرجع الرسول إلى الملك وأخبره بما قاله يوسف فازداد حبا له، وعظمه فى نفسه وأجله قلبه وتمنى رؤيته ولكنه استجاب لطلبه فاستدعى النسوة وسألهم عن قضيته. ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ [يوسف].

الملك يحقق مع النسوة :

وجمع الملك النسوة ومعهن امرأة العزيز، فقال لهن : ما شأنكن وكيف كان حالكن إذ راودتن يوسف عن نفسه، طالبا منهن الإقرار أمامه إحقاقاً للحق وتبرئة لساحة يوسف إنصافا له من الظلم، وإحراجاً للظالم، وعبرة لجمهرة الناس ، وقطعا للشك عند المرتابين، ورداً لاعتبار يوسف وكرامته.

فأجابت النسوة بتنزيه يوسف عن أى مساءة نسبت إليه، أما امرأة العزيز فقد أقرت بجرمها فى صراحة تامة وشجاعة نادرة وأسلوب نيم عن أدبها وتوبتها وطلبها للعفو من يوسف والمغفرة من الله.

وقال تعالى :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ [يوسف].

فكانت امرأة العزيز أعظم فى شجاعتها وصدقها من سائر النساء اللاتى استدعاهن الملك لأنها اعترفت اعترافا صريحا بما حدث من مراودتها ولكن النسوة برأن يوسف دون أن يعترفن بإدانة أنفسهن بالكيد والمراودة.

خروج يوسف من السجن وتوليه الوزارة :

وعندما ثبتت براءة يوسف استدعاه الملك مرة أخرى ليستخلصه لنفسه ويجعله من خاصة حاشيته، ويسند إليه الأعمال الجسام التى يعجز غيره عن القيام بها، فقد ملأ قلبه الإعجاب والحب له.

فخرج يوسف من السجن مبجلا مكرما معززا فى موكب مهيب إلى قصر الملك فلما جلس عنده وتحادثا شهد له الملك بالأمانة والعلم وأسلم على يديه وأسند قياد ملكه إليه وخيره فى الوظيفة التى يشغلها ، فاختار أن يتولى خزائن الأرض. ويكون مسئولا عن شئون الزراعة والتجارة والتموين، وتدبير شئون الجند، فأجابه الملك إلى ذلك فى سرور وقد وجد فيه بغيته ووجد فيه الملك من الحلم والعلم والخبرة بتدبير شئون الملك ما لم يجده عند من اصطفاهم لنفسه وأسند إليهم الوظائف الكبار من قبل.

وصارت الدنيا فى قبضة يده فملكها بيديه ولم يملكها قلبه فكان يكثر من الصيام حتى لا ينسى الجائع وعاش ملكا نبيا جمع الله لأهل مصر على يديه خيرى الدنيا والآخرة.

يقول تعالى :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) ﴾ [يوسف].

لقاء يوسف باخوته وهم لا يعرفونه :

وجاء إخوة يوسف بعد أن استقر له الأمر فى مصر، وعم الرخاء وساد العدل فى الرعية، وانتشر السلام والإسلام فى ربوع البلاد، جاءوا من بادية الشام يطلبون الميرة (الحبوب) ومعهم من البضاعة ما لا يفى بمطالبهم عند استبدالها، دخلوا إليه بسهولة لأنه فتح الأبواب، وهم يطمعون فى كرمه وسخائه، وقد اشتهر فى الآفاق بأوصاف الخير فقربهم منه وسألهم عن حالهم وحال ذويهم وهم لا يعرفونه ولا يتصورون أنه يوسف الذى القوه فى الجب وحملته قافلة إلى حيث لا يعود إلى أبيه لم يتصوروا أنه تولى مقاليد الأمور فى مصر ذلك البلد الكبير الذى له شأن كبير بين بلاد الدنيا بكثرة خيراته واتساع أرضه وكثرة سكانه وقوة جيشه واتساع عمرانه واستقرار حضارته.

ولما أكرم وفادتهم وهموا بالرحيل وجهزهم بجهازهم وأغدق عليهم الأرزاق، قال : أئتونى بأخ لكم من أبيكم ليحصل على نصيبه من الميرة، وهددهم بقطع

الميرة عنهم إن لم يأتوا به فوعدوه بترغيب أبيهم فى إرساله معهم ولم يدركوا أنه لابد وأن يكون لهذا الوزير صلة بهم وبأخيهم لا لحاجة فى طلبه وإكرامهم زيادة عن الحد وتقربه إليهم فلعله جزء من الجزاء الدنيوى جزاء جريمتهم الشنعاء التى لم يعرف التاريخ مثلها أو لعله طلب أخاهم بنيامين بحجة تصديقهم فيما روه عن نسبهم إلى بنى يعقوب.

وقد بالغ يوسف عليه السلام فى إغرائهم بالرجوع إليه فأمر فتيانه أن يجعلوا بضاعتهم فى رحالهم، حتى إذا وجدوها هموا بردها عليه لظنهم أنه نسيها أو للطمع فى المزيد من هذا الإكرام الذى حاز إعجابهم وفاق الحد فلماذا لا يرجعون إليه ومعهم أخوهم بنيامين ؟ ولكن كيف يسمح لهم أبوهم بصحبته وهم فعلوا بيوسف ما فعلوا؟

فاتفقوا على استرضاء أبيهم وإقناعه بشتى الوسائل والحيل ليرسل معهم أخاهم فذهبوا إلى أبيهم. وتعهدوا بالمحافظة على أخيهم هذه المرة ووضعوه أمام الأمر الواقع وحملوه مسئولية المجاعة التى ستلحق به وبأهل بلده إن لم يطع أمر وزير مصر . فقالوا : يا أبانا منع منا الكيل، ثم اتبعوها بأمر جازم : أرسل معنا أخانا نكتل ويستمر الخير والمدد ، ووعدوه بحفظه، فذكرهم يعقوب - عليه السلام - بما كان من شأنهم مع يوسف وتفريطهم فيه ، ولكنه أسند الأمر إلى الله وطلب منه سبحانه وحده الحفظ والرحمة، ولم يجد بدا من إرساله معهم بعد أن اشترط عليهم أن يأخذ عليهم العهود والمواثيق المغلظة أن يرجعوه إليه إلا أن يغلبهم أمر لا طاقة لهم بدفعه.

ولما فتح الأبناء متاعهم وجدوا بضاعتهم قد ردت إليهم فقويت حجتهم، وقالوا : يا أبانا ماذا نريد من هذا الرجل أكثر من ذلك فقد أكرم وفادتنا وأحسن إلينا فى العطاء وأجزله، ورد إلينا بضاعتنا، ولو ذهب معنا أخونا لزادنا حمل بعير، ونحفظ أخانا حتى نرده سالما غانما.

يقول تعالى :

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ [يوسف].

وصاية يعقوب عليه السلام لأبنائه بالحذر مع الإيمان بالقدر :

اضطر يعقوب - عليه السلام - أن يسلم ولده بنيامين إلى إخوته على مضض (كرها). وخرج مودع أبناءه إلى وجه الطريق، وهو يخشى عليهم من مخاطر السفر، فأوصاهم بما يحتمل (يتردد) فى نفسه ، وذكرهم بالله ووعظهم وعظا بليغاً، فحفظوا هذه الوصية، واستحثوا رواحلهم إلى مصر ومعهم أخوهم بنيامين يجد من عطفهم ورعايتهم ما لم يفعلوه مع أخيهم يوسف من قبل فالحال اختلف وهم لا يضمرون له شراً لأنهم لا يجدوا ما يجدونه عليه، وانتهى بهم المسير إلى مصر، وقد دخلوها من أبواب متفرقة كما أوصاهم أبوهم، وطلبوا

الإذن بمقابلة العزيز.

يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾ [يوسف].

وكانت وصاية يعقوب عليه السلام لأبنائه بأن لا يدخلوا من باب واحد هو خشية عليهم من لفت الأنظار بكثرتهم وجمالهم فيكونون حديث الناس فيتعرضون للكيد والتآمر والحسد من التجار المرافقين أو من حاشية العزيز خاصة وهم يعرفون حظوتهم (مكانتهم) عنده. فعلى العبد أن يحتاط لنفسه بالأخذ بالأسباب ثم يتوكل على الله ومن لم يأخذ بالأسباب فقد خرق سنة الله وخالف أمره وصار متواكلاً لا متوكلاً.

اللقاء الثانى :

ولما دخلوا على يوسف - بدأ بأخيه بنيامين فحياه واعتنقه وضمه إليه وأكرمه ليس فقط لأنه شقيقه ولكن لأنه لم يصدر منه إساءة إليه كباقى إخوته ولم يكن على أخلاق إخوته ولكنه كان أقرب فى شبهه وأخلاقه به وبأبيه، فهو أهل أن يعزل عنهم ويحاط بالتكريم والتبجيل، ورأى يوسف أمارات الحزن على أخيه لعزلته فاشركه طعامه وشرابه وأجلسه على فراشه، وجاذبه أطراف الحديث، فلما رأى أنه لا يزال يعانى من الكرب والغربة، ولا يزال يأسف على فراق شقيقه يوسف - كشف له عن نفسه وقص عليه قصته وسره منذ فارقه حتى لقاءه به، ففرح بنيامين فرحا عظيما بأخيه وتبدد حزنه وهمه وأحس بالأمان والإطمئنان.

وفى ذلك يقول تعالى :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) ﴾ [يوسف].

حيلة يوسف لضم أخيه إليه :

رغب يوسف فى بقاء بنيامين معه وكذلك كانت رغبة بنيامين فعلم الله تعالى يوسف حيلة يحتال بها على تحقيق هذه الرغبة، فتحيل فى وضع السقاية فى رحل أخيه قبل إنصراف إخوته إلى الشام، ثم يبعث مؤذنا ينادى فى العير: "إنكم لسارقون ليرجعوا للتفتيش ويستخرجها من وعاء أخيه فيستبقيه معه فى مصر لأنه كان فى شريعة يعقوب استرقاق (استعباد) السارق.

يقول تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف].

وكانت هذه المكيدة عن أمر الله تعالى لحكمة يعلمها رغم ما فيها من

تشهير فلعل هذه الحيلة لشفاء صدر يوسف عليه السلام ممن أجرموا فى حقه وخانوا الأمانة ولعل يعقوب يعلم من هذه الحيلة أن يوسف مازال حيا فضلاً عن أنه يحكم مصر.

الموقف بعد استخراج السقاية :

لما رأى أخوه يوسف أن السقاية قد استخرجت من رحل بنيامين سقط فى أيديهم، وظهر حقدهم فتفوهوا بمقالة سوء يتهمون يوسف بالسرقة فى الماضى وهم لا يعرفونه فتحمل يوسف وقع هذه المقالة والتهمة الشنيعة وقال فى نفسه بل أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون.

يقول تعالى :

﴿ قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) ﴾ [يوسف].

وهذا الموقف يظهر لنا مكارم الأخلاق عند يوسف وتحليه بالحلم ورباطة الجأش والقدرة الفائقة على كظم الغيظ وضبط النفس ، والعفو عن المسئ وهو قادر على البطش والإنتقام.

وطمع الإخوة فى إحسان يوسف فيطلبون من أنه يترك بنيامين ويأخذ أحدهم مكانه وهو الذى أحسن إليهم فى الكيل وإكرام المنزل رحمة بأبيهم الشيخ الكبير.

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) ﴾ [يوسف].

فتلطفوا له بذكر كبر أبيهم وطلب الرحمة به، وحيثية ذلك "إنا نراك من

المحسنين ، فقال لهم يوسف معلماً إياهم درسا فى العدل ونبذ الظلم".

قال تعالى :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ (٧٩) ﴾ [يوسف].

أى عياذاً بالله أن نبرئ مذنبا وندين بريئا فذلك يتنافى مع الإحسان فكفوا عن سؤاله وانتحوا جانبا يتشارون كيف يواجهون أباهم بهذا الأمر الجلل الذى غلبهم ولا حيلة لهم فى دفعه.

قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف].

موقف يعقوب. عليه السلام. :

قال كبيرهم أما أنا فسأبقى فى مصر ولن أواجه أبى بما حدث من مصيبة فقد بنيامين وقد أضعنا يوسف من قبلك. اذهبوا أنتم إلى أبيكم وقولوا له إن ابنك سرق ، وعلمنا بذلك أن العزيز استخرج الوعاء من رحله وما كنا للغيب حافظين أى وما كنا نعلم عواقب الأمور، ولا بواطن الأحوال.

فقال أبوهم : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) ﴾.[يوسف]

فأبدى أملاً فى أن يرد الله عليه يوسف وأخويه فهو سبحانه الذى يعلم حاله، ويعلم ما وراء هذه الأحداث والامتحانات، ويأتى بكل أمر فى وقته المناسب، عندما تتحقق حكمته فى ترتيب الأسباب والنتائج.

قال تعالى :

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) ﴾ [يوسف].

فتذكر فاجعته الأولى بيوسف وقد كان يتسلى عنها بولده بنيامين.

والبكاء لا ينافى الصبر، بل يعين عليه إذ يفرغ ما فى القلب من الحزن والعقد فيخفف عن القلب ويريحه.

وقد أبيضت عينا يعقوب من شدة الحزن، فذهب سوادهما، ولما رأى أبناء يعقوب ما حل به وما بلغ أساه على فقده يوسف وبنيامين ورأو بين ابنه الكبير دخلوا عليه خلوته وقالوا :

قال تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) ﴾ [يوسف].

فواسوه مع أنهم السبب فى بلواه وما حل به من الحزن والضعف وهددوه نزول المرض أو الهلاك به بسبب ذكره لفاجعته بفقد يوسف وبكائه ، وهذه الكلمات تكشف عن قسوة وغلظة وحقد وغيرة وليس اشفاقاً أو حناناً.

قال يعقوب ـ عليه السلام ـ ما حكاه القرآن رداً على أولاده :

قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) ﴾ [يوسف].

أى أنما أشكو همى وحزنى ضراعة إلى الله وليس جزعا ولا يأسا.

وهكذا منهج العارفين والصالحين يشكون إلى ربهم ولا يشكون الله لمخلوق ولا يسألون سواه. إنه يعلم من صفات الكمال والجلال لله ما لا يعلمه أبناؤه. وقال لهم :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾ [يوسف].

فدعا أبنائه إلى الثقة فى فضل الله ورحمته والرجاء فى رحمته والبحث عن يوسف وأخيه فى حذر ويجد واهتمام دون أن يخالجهم يأس من رحمة الله الواسعة.

لقاء اخوة يوسف به بعد احتجازه لأخيه :

وامتثل إخوة يوسف أمر أبيهم فارتحلوا إلى مصر يتحسسون الخبر، فدخلوا على يوسف وهم يطمعون فى سخائه وعفوه عن بنيامين، وأخذوا يستعطفونه بأسلوب الملاطفة والملاينة والاستجداء.

قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾ [يوسف].

فلما شكوا ما نزل بهم من فقر ومجاعة وما أحل بأبيهم من حزن ومرض أشفق يوسف عليهم ودنا منهم ولعلهم كانوا يتعجبون ويتساءلون فيما بينهم عن سر إهتمام العزيز بهم دون سائر الناس وسؤاله عن أحوالهم وعن أبيهم وأهلهم وبلدهم، ولماذا يخصهم بالإكرام والقرب أكثر من سائر الناس ثم لماذا أخذ بنيامين بعد ذلك بعد أن طلب استدعائه ورؤيته. حتى قال لهم :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) ﴾ [يوسف].

فدلهم على جواب ما يحيرهم فأدركوا أنه يوسف.

﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾ [يوسف]

وكأنه لقنهم حجتهم ليعتذروا بجهلهم، ويطلبوا العفو والصفح. وذكر أخاه لما كان يعانيه وهو مع إخوته من عطف وغلظة وجفاء ، بسبب حقدهم عليه.

واعتذروا عن خطاياهم فى حقه وحق أخيه وأبيه

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) ﴾ [يوسف].

أى لقد فضلك الله علينا بالحلم والعلم والملك، وأننا قد أخطأنا. وصرح لهم يوسف بالصفح ودعا لهم بالمغفرة ليفتحوا صفحة جديدة فى ظل الرخاء ملؤها الحب والوفاء وأمرهم أن يذهبوا بقميصه ليلقوه على وجه أبيهم فيصير به بصيرا. وأمرهم أن يجيئوه بأهله أجمعين ليعيشوا فى ظله آمنين إلى ما شاء الله:

﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴾ [يوسف].

ريح يوسف . عليه السلام . :

وأحس يعقوب قدوم أبناؤه بقميص يوسف وشمه من بعد رغم بعد المسافات وأخبر أهله بذلك.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾ [يوسف].

قوله تعالى فصلت العير : أى فارقت القافلة أرض مصر.

وقوله تفندون : أى تتهمونى بالخرف.

وتحمل يعقوب ـ عليه السلام ـ كلام أحفاده وأهله بما يحمله من جفاء وغلظة وسوء أدب وسفه، فلا يفيد معاقبتهم أو تأنيبهم، وكان قد أخذ على نفسه أن يتسلح بالصبر الجميل على كل ما يأتى به القدر فى توكل كامل ورضا تام. ولبث يعقوب ينتظر فى شوق بالغ وصول خبر يوسف حتى جاء البشير بالقيمص وألقاه على وجهه وبشره البشرى.

﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) ﴾ [يوسف].

وبرىء يعقوب ـ عليه السلام ـ من مرضه ، وتخفف من همه وحزنه، وكان رد البصر إليه بشم القميص وشمه على بعد شاسع معجزة. وفهم أهله فحوى خطابه وأسلوبه الرقيق المهذب فطلبوا منه أن يستغفر الله لهم ويعفو عنهم.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) ﴾ [يوسف].

قال سوف استغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم .

أى سوف أستغفر لكم عندما تصفو نفسى من ناحيتكم وليس كما قال بعض المفسرين أخرهم لوقت السحر لفضيلة هذا الوقت فإن كلمة سوف تحمل معنى التراخى وطول الزمن أكثر من حرف السين التى تستعمل للمستقبل. ولو كان التأخير إلى آخر الليل لقال سأستغفر ولم يقل سوف .

ولعله أخرهم ليستغفروا بأنفسهم وليعلموا أنهم فعلوا ذنبا كبيراً وسببوا له مأساة عظيمة فأساءوا إليه وإلى يوسف وبنيامين فلابد أن يكون الصفح والعفو ممن ظلموهم أجمعين ، وذلك يكون عند الاجتماع بيوسف ـ عليه السلام ـ.

دخول أهل يوسف عليه وتحقيق رؤياه :

وتهيأ يعقوب ـ عليه السلام ـ ومعه أبناؤه وسائر أهله للقاء الحبيب الذى أعزه الله بالنبوة والملك ، والعلم والحكمة، وشدوا الرحال إليه مسرعين فى شوق ولهفة للقاءه.

وكان يوسف ـ عليه السلام ـ يترقب قدومهم فى لهفة وشوق، وخرج إلى استقبالهم إلى حدود مصر، ونصب له هناك بيت لاستقبالهم، فلما دخلوا عليه تلقاهم بترحيب وحفاوة بالغة، وبدأ بأبويه فضمهما إليه، وعانقهما طويلا، وبالغ فى برهما والإحسان إليهما فى المقال، وأذن لهما ولسائر أهله دخول مصر مبشرا إياهم بالأمن بمشيئة الله فى مصر :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (99) ﴾ [يوسف].

ولما وصلوا إلى قصر يوسف ، وانتهوا إلى مجلسه بادر برفع أبويه على عرشه تكريماً لهما، وبادر أبواه وإخوته فجسدوا له باحناء القامة له وكانت تلك تحيتهم ولم يضعوا جبهتهم على الأرض. وقد حرم فى شريعتنا السجود بكيفيه إنحناء القامة فضلا عن السجود بوضع الجبهة إلى الأرض إلا لله تعالى.

يقول عز وجل : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ [يوسف]

ولم يذكر يوسف محنة القاءه فى الجب وهم فى ضيافته حتى لا يعكر صفو اللقاء وحتى يعفيهم من الحرج وهم فى ضيافته وقد صفح عنهم ، وبرأ ساحتهم ونسب ما فعلوه للشيطان ، وأعلن استسلامه ورضاه بقضاء الله فى قوله : ﴿ إن ربى لطيف لما يشاء ﴾ .

وفى هذا الخطاب تغطية لكل ما بدر من إخوته، وإزالة لآثار هذه الأفعال، وترضية لأبويه وإخوته وأهله جميعا، وإشارة لطى صفحات الماضى وغلق أبواب العقاب.

ختام اللقاء بدعوة جامعة :

ثم إتجه يوسف إلى الله عز وجل ذاكراً شاكراً داعياً بخيرى الدنيا والآخرة :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)

ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون (١٠٢) وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين (١٠٣) وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين (١٠٤) وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون (١٠٥) وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون (١٠٦) أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون (١٠٧) قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين (١٠٨) وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون (١٠٩) حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين (١١٠) لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (١١١) ﴾ [يوسف].

فطلب يوسف ـ عليه السلام ـ أن يموت على الإسلام وأن يلحق بالصالحين من أبائه وأجداده.

وذكر أهل الكتاب أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر سبعين يوما ، واستأذن يوسف ملك مصر أن يخرج لدفن أبيه فى حبرون. ثم حضرت يوسفَ الوفاةُ ، فأوصى أن يُحمل معهم إذا أخرجوا من مصر فيدفن عند أبائه فحفظوه ووضعوه فى تابوت، فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى ـ عليه السلام ـ فدفنه عند آبائه قالوا : فمات وهو ابن مائة وعشر سنين.

وقال مبارك ابن فضالة عن الحسن : ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة وغاب عن أبيه ثمانين سنة وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة ، ومات وهو ابن مائة سنة وعشرين سنة. وهو وهم بن مبارك ابن فضالة.

ففى قوله ألقى فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة نظر فإن هذا الكلام غير معقول ، لأن إخوة يوسف عندما طلبوا من أبيهم أن يصحبهم يوسف فى سفرهم قالوا: أرسله معنا غدا يرتع ويلعب. والذى يرتع ويلعب هو الطفل الصغير وليس الشاب الذى يبلغ سبعة عشرة سنة وهى سن تصلح للزواج ومرحلة بعد البلوغ. والله تعالى أعلم.

نبى الله أيوب

ـ عليه السلام ـ

ذكر أيوب ـ عليه السلام ـ فى القرآن الكريم أربع مرات فى الآية ١٨٦ من سورة النساء ، وفى الآية ٨ من سورة الأنعام وفى الآية ٨٣ من سورة الأنبياء وفى الآية ٤١ من سورة ص.

نسبه ـ عليه السلام ـ :

يقال أنه عوص بِكر ناحور أخى إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقيل هو يوباب حفيد عيسو من إسحاق.

وقيل أنه كان قبل موسى وقيل قبل إبراهيم بأكثر من مائة سنة وهناك عند أهل الكتب سفر فى العهد القديم باسم سفر أيوب. وهو يحتوى على ٤٢ اصحاحا جمعها خمسة فصول كبيرة.

قال تعالى فى سورة الأنبياء :

﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين (٨٣) فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين (٨٤) ﴾ [الأنبياء].

وفي سورة ص :

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب (٤١) اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب (٤٢) ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب (٤٣) وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب (٤٤) ﴾ [ص].

وفي سورة النساء :

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا (١٦٣) ﴾ [النساء].

وفي سورة الأنعام :

﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين (٨٤) ﴾ [الأنعام].

فهذه الآية تثبت أن أيوب ـ عليه السلام ـ من أبناء إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلا يصح أنه كان قبل إبراهيم.

أيوب ـ عليه السلام ـ :

كان أيوب ـ عليه السلام ـ نبيا مرسلا كما نفهم من آية سورة النساء وكان كثير المال والولد يملك بساتين وعقارات وأغنام وأبقار وغير ذلك من الأموال وكان صحيح الجسم يعيش فى رغد ونعمة واسعة وقد زعم أهل الكتب أنه أصابه مرض منفر فأكل الدود من جسمه وهذا نزه الله أنبيائه عنه. وقد علل بعض المفسرين أن ذلك كان قبل نبوته.

وقد ذكر الله تعالى مرض أيوب فى قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) ﴾ [الأنبياء].

وقد اختلف فى مدة مرضه فقيل سبع سنوات وقيل ثمانية عشر سنة.

وقد نسب أيوب المرض إلى الشيطان فقال : إنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب.

كما قال إبراهيم عليه السلام وإذا مرضت فهو يشفين ولم ينسب المرض إلى الله تعالى تأدبا مع الله ونسب الشفاء إليه والله تعالى يقول :

﴿ قل كل من عند الله ﴾ وقال : ﴿ وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ﴾ .

وقد ثبت فى السنة أن الشيطان قد يتسبب فى بعض الأمراض العضوية والنفسية لبعض الناس خاصة الصرع كما فى حديث المرأة التى كانت تصرع فطلبت من النبى ﷺ أن يدعو لها فقال لها إن شئت دعوت لك وإن شئت صبرت ولك الجنة . فقالت : أصبر يا رسول الله ولكن ادع الله لى ألا أتكشف". حيث كان الشيطان يعرى ثيابها عندما يصرعها.

والعقيدة السليمة - عقيدة المؤمنين - أن كل شئ من ضر أو نفع فإنما هو من الله تعالى وبقضائه وقدره - وقد يكون هناك أسباب للمرض ومن هذه الأسباب المس الشيطانى - ولكن لا يقع فى ملك الله إلا ما أراد وأذن به فلا يتحرك متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذن الله تعالى.

قال تعالى : ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ .

شفاء أيوب. عليه السلام.:

قال تعالى : ﴿فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر﴾ أى شفيناه من مرضه استجابة لدعائه.

كيفية الشفاء :

قال تعالى : ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾

أى أمرناه أن يضرب الأرض برجله ، فضربها فانبعث منها عين ماء، فأمرناه أن يغتسل منها ويشرب، فلما فعل شفاه الله من مرضه وكأنه لم يصبه مرض من قبل.

ونفهم من هذا أن القضاء له وقت معين لا يحيد عنه. وأن لكل أجل كتاب.

قال تعالى : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣)﴾ [ص].

قسم أيوب. عليه السلام.:

وكان أيوب ـ عليه السلام ـ قد أقسم ليضربن امرأته مائة سوط قيل لأنها ذهبت لتقضى له حاجة فتأخرت عليه وقيل لأنها باعت شعرها لتطعمه وقيل لأن الشيطان جاءها وأشار عليها بأن تأمر أيوب أن يشرب الخمر وأن شفاءه

متوقف على شربه للخمر.

وكانت زوجة أيوب امرأة تقية صالحة ترعاه فى مرضه وصبرت معه وطال صبرها دون أن تتبرم منه أو تتخلى عنه . فكان من رحمة الله تعالى بها وبزوجها أيوب - عليه السلام - أن أفتاه بأن يجمع مائة عود من سعف النخيل أو من البرسيم أو غيره فيجمعها فى حزمة ويضربها بها ضربة واحدة ليبر بقسمه دون أن يعذبها أو يؤلمها.

قال تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) ﴾ [ص].

قال رسول الله ﷺ : «أشد الناس بلاء، الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه». (متفق عليه).

كان أيوب - عليه السلام - مثالا للشكر إذ أنعم الله عليه، ومثالا للصبر إذ ابتلاه الله تعالى فصبر صبرا جميلا.

عليه وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام.

نبى الله شعيب
- عليه السلام -

قيل إن شعيبا - عليه السلام - كان قبل موسى - عليه السلام - ، وقيل إنه هو العبد الصالح والد الفتاتين اللتين التقى بهما موسى - عليه السلام - عند بئر مدين.

وكان أهل مدين كفارا جفاه يقطعون الطريق ويخيفون السابلة (المارة) ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة (غابة ملتفة بها).

وكانوا يتصفون بسوء المعاملة، إذ يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص.

دعوة شعيب ـ عليه السلام ـ :

نبأ الله تعالى شعيباً وأمره فدعا قومه أهل مدين إلى عبادة الله وحده، ونهاهم عن الشرك والفساد فى الأرض وعن قطع الطريق والتطفيف فى الكيل والميزان، فاستجاب له بعضهم، وكفر أكثرهم واستهزؤا به، وأغلظوا له القول وهددوه وسخروا منه ولم يبالوا بتحذيره لهم.

وكان شعيب فصيح اللسان، قوى الحجة، وكان خطيبا مفوها، له تأثير كبير عند أولى الألباب، ومن يطلبون الهداية والرشاد.

وكل الأنبياء ـ عليهم السلام ـ يتصفون بالصدق والأمانة والفطنة.

وقد ذكرت قصة شعيب فى القرآن الكريم فى سورة الأعراف، وهود، والشعراء وغيرها من السور.

قال تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأعراف].

هذه الآيات الكريمة جمعت خصال الشر التى كان يتصف بها أهل مدين قوم شعيب ونهتهم عن خصال السوء والشر وذكرتهم بنعم الله عليهم وخاصة القوة وكثرة العدد، وحذرتهم من عاقبة الفساد، وأمرت الذين آمنوا بشعيب بالصبر على البلاء وتحمل الأذى إلى حين فالابتلاء سنة ماضية فى المؤمنين فى الماضى والحاضر وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها والفلاح والفوز والنصر يكون عاقبة الصابرين المتقين.

موقف الكفار من قوم شعيب :

كان القوم يخيفون المارة على طريقهم، إذ كانت مدينتهم على مفترق الطرق فى موقع هام تمر عليه التجارة فكانوا يسمحون بالمرور لمن يشاءوا ويمنعوا من يشاءوا ويقتلوا من يقتلون ويفرضوا الضرائب الباهظة والإتاوات على التجار.

وقد أراوا فتنة المؤمنين وطلبوا منهم الرجوع فى ملة الكفر وضيقوا عليهم وأذوهم وأوصى بعضهم بعظا بالاستمرار على ما هم فيه من فساد وكفر.

موقف المؤمنين من قوم شعيب :

صبر المؤمنون على أذى المشركين من قومهم ، واستمسكوا بدينهم ورفضوا العودة فى ملة قومهم فهددهم الكافرون بالطرد والنفى، فدعا المؤمنون الله تعالى أن يحكم بينهم وبين قومهم.

قال تعالى :

﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى

اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى فى سورة هود :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾ [هود].

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) ﴾ [هود]

أى إنى أتوسم فيكم الخير، ويعز على أن تكونوا من المعذبين ، وأنتم والله الحمد فى سعة وبحبوحة ورخاء من العيش فما الذى يحملكم على التطفيف فى الكيل والميزان ، ثم قال لهم : ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.

أى : ما تدخرونه من العمل الصالح عند الله هو خير لكم مما تجمعون وتكنزون من الأموال الحرام فى هذه الدنيا الفانية، بالقياس إلى الآخرة الباقية. ثم قال ما حكاه القرآن فى سورة هود أيضاً :

﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥) ﴾ [هود].

ذكرهم شعيب ـ عليه السلام ـ بالأمم السابقة التى أهلكها الله تعالى بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم لرسلهم وهم قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط.

وقوله : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) ﴾: أى إما أنهم قريبون فى الزمان أو المكان أو العمل من أهل مدين قوم شعيب أو هم قريبون فى ذلك كله.

وهذا ما يؤكد أن شعيبا ـ عليه السلام ـ كان قبل موسى عليه السلام.

وهؤلاء القوم قوم شعيب هم أصحاب الأيكة الذين قال الله تعالى عنهم فى

سورة الشعراء "كذب أصحاب الأيكة المرسلين".

ولما أصروا على كفرهم أهلكهم الله تعالى بالرجفة والصيحة والظلة والرجفة الزلزال والصيحة صرخة جبريل عليه السلام والظلة سحابة شديدة الحر نزلت عليهم فسكن معها الهواء وارتفعت الحرارة ارتفاعا شديدا مع ارتفاع نسبة الرطوبة حتى كادوا لا يستطيعون التنفس فهربوا إلى البرية فرأوا سحابة أخرى فأسرعوا يستظلون بها فنزل عليهم عذاب الله وهم يستظلون بها.

ذو الكفل. عليه السلام.

من هو ذو الكفل:

قال تعالى: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) ﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى في سورة ص:

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) ﴾ [ص].

قال ناس من العلماء وأصحاب السير والتاريخ إنه ابن أيوب. وذكر ذو الكفل بين جمع من الأنبياء والثناء عليه فى القرآن فهذا يرجح أنه كان نبيا.

وزعم قوم أنه لم يكن نبيا وإنما كان عبدا صالحاً وحكما مقسطا.

يقول العلامة ابن كثير:

روى ابن جرير وابن أبى نجيح عن مجاهد أنه لم يكن نبيا وإنما كان

رجلا صالحا وكان قد تكفل لبنى قومه أن يكفيهم أمرهم ويقضى بينهم بالعدل فسمى ذا الكفل.

وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن داود بن أبى هند عن مجاهد أنه قال:

لما كبر اليسع قال : "لو إنى استخلف رجلا عن الناس يعمل عليهم فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل ؟ فجمع الناس فقال من يتقبل لى بثلاث استخلفه يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب. قال فقام رجل تزدريه العين فقال : أنا فقال أئنت تصوم النهار وتقوم الليل ولا تغضب قال نعم. قال فردهم ذلك اليوم وقال مثلها اليوم الآخر فسكت الناس وقام ذلك الرجل فقال أنا".

فاستخلفه قال فجعل إبليس يقول للشياطين عليكم بفلان فأعياهم ذلك فقال دعونى وإياه فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير وأتاه حين آخذ مضجعه للقائلة وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة فدق الباب فقال من هذا قال شيخ كبير مظلوم. قال فقام ففتح الباب فجعل يقص عليه فقال إن بينى وبين قومى خصومة وإنهم ظلمونى وفعلوا بى وفعلوا حتى حضر الرواح وذهبت القائلة وقال إذا رحت فأننى آخذ لك بحقك فانطلق وراح.

فكان فى مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشيخ فلم يره فقام يتبعه فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس وينتظره فلا يراه. فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه أتاه فدق الباب فقال من هذا فقال الشيخ الكبير المظلوم ففتح له فقال ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى فقال إنهم أخبث قوم إذا عرفوا أنك قاعد قالوا نحن نعطيك حقك وإذا قمت جحدونى قال فانطلق فإذا رحت فأتنى قال ففاتته القائلة فراح فجعل ينتظر فلا يراه وشق عليه النعاس فقال لبعض أهله لا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فأنى قد شق على القوم.

فلما كان تلك الساعة جاء فقال له الرجل وراءك وراءك فقال : إنى قد أتيته

أمس فذكرت له أمرى فقال لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحدا يقربه فلما أعياه نظر فرأى كوة فى البيت فتسور منها فإذا هو فى البيت وإذا هو يدق الباب من داخل قال فاستيقظ الرجل فقال يا فلان ألم آمرك قال أما من قبلى والله فلم تفوت فأنظر من أين أتيت قال فقام إلى الباب فإذا هو مغلق وإذا الرجل معه فى البيت فعرفه فقال أعدو الله قال نعم أعييتنى فى كل شئ ففعلت ما ترى لأغضبنك فسماه الله ذا الكفل لأنه تكفل بأمر فوفى به.

يونس. عليه السلام.

هو يونس بن متى وهذا ما ذكره المفسرون

دعوته. عليه السلام.:

بعث الله تعالى نبيه ورسوله يونس بن متى إلى أهل "نينوى" من أرض الموصل، وكانت عاصمة الدولة الآشورية ، وكانت دولة ذات حضارة عريقة وغنى واتساع تسيطر على معظم بقاع قارة آسيا، ومع تلك النعم الجزيلة والعطاء الوفير والخير العميم كانوا يعبدون الأصنام ويرتكبون المعاصى، فدعاهم يونس عليه السلام إلى الله عز وجل، فكذبوه ولبث فيهم فترة من الزمان لا يمل عن دعوتهم إلى التوحيد ومكارم الأخلاق دون جدوى فارتحل عنهم وظن أنه قد أدى رسالته وقام بما كلفه به ربه. واتجه إلى ساحل البحر دون أن يأذن الله له فى ذلك ، فوجد سفينة على وشك الإقلاع فركبها.

فالتقمه الحوت:

هاج البحر وماج وارتفعت أمواجه، وثقلت السفينة بما فيها، وكادوا يغرقون فتشاور أهل السفينة فيما بينهم على أن يقترعوا، فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه ، وقيل إن ربان السفينة قال إن بيننا عبد آبق

(هارب)، فأجروا قرعة فوقعت القرعة على نبى الله يونس فلم يسمحوا به، فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضا ، فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه، فأبوا عليه ذلك، ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضا فاستسلم للقضاء.

قال تعالى :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) ﴾ [الصافات]. وقوله : أبق : أى هرب.

وقال تعالى :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) ﴾ [الأنبياء].

وذا النون : صاحب الحوت.

نقدر عليه : نضيق عليه.

فنادى فى الظلمات : ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت.

رواه الحاكم فى التفسير.

"سبحانك" تنزيه لله تعالى عن كل نقص.

إنى كنت من الظالمين: أى ظلمت نفسى بفرارى من قومى بغير إذنك.

فلما اعترف بظلمه استجاب الله له كما قال تعالى :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾[الأنبياء]

أى هذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا .

عن سعد بنى أبى وقاص قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : "اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى، دعوة أخى يونس بن متى، قال : قلت : يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟

قال : هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها - ألم تسمع قول الله تعالى :

﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الأنبياء]

نجاة يونس ـ عليه السلام ـ :

روى ابن جرير بسنده أن النبى ﷺ وكذلك روى البزار:

أن النبى ﷺ قال : " لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى إلى الحوت : أن خذه ولا تخدش فيه لحما ولا تكسر له عظما، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا . فقال فى نفسه ما هذا؟ فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر. قال : فسبح وهو فى بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه. فقالوا : يا ربنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة : قال : ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر. قالوا: العبد الصالح، الذى كان يصعد إليك منه كل يوم وليلة عمل صالح؟

قال : نعم فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال :

﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) ﴾ [الصافات]

قال ابن مسعود : كهيئة الفرخ ليس عليه ريش.

قال تعالى : ﴿ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الصافات].

قال عطاء وغيره : القرع :

قال المفسرون : ورق القرع غاية فى التغذية، وكثير الظل، ولا يقربه ذباب ويؤكل ثمره من أول طلوعه إلى آخره، نيا ومطبوخا، وبقشره وببذره وفيه منافع جمة ومنها تقوية الدماغ.

قال أبو هريرة -رضى الله عنه- : وهبنا الله له أروية وحشية فأكل من خشاش الأرض، أو قال : هشاش الأرض ، قال : فتفسخ عليه فترويهم لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت.

وقد قيل إنه ـ عليه السلام ـ لبث فى بطن الحوت أربعين يوما ومن المفسرين من قال ثلاثة أيام والله أعلم.

مصير قوم يونس :

قال تعالى :

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس].

وقال تعالى :

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات].

فنجى الله تعالى قوم يونس كما ندموا وخرجوا إلى الصحراء يتضرعون فى تواضع وذلة وخضوع لله رب العالمين فكان إيمانهم سببا فى نجاتهم وكان تسبيح يونس - عليه السلام - سببا فى نجاته وكان هذا درسا للدعاة إلى الله فى الصبر على المكاره وانتظار التوفيق من الله وكشف الكرب وقبول الدعاء.

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) ﴾ [الشرح]

موسى - عليه السلام -

ميلاد موسى - عليه السلام -:

﴿ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ

أدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾ [القصص]

وقال تعالى : ﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى (٤) ﴾ [طه]

قتل موسى للقبطى :

كان موسى ـ عليه السلام ـ يدين بدين آبائه دين إبراهيم واسحق ويعقوب ويوسف دين الإسلام، فلما علم فرعون منه ذلك أبغضه، ونفاه عن العاصمة ومنعه من دخولها وهى مدينة ممفيس.

وفى يوم دخل المدينة فى غفلة من أهلها متنكرا أى مغيراً هيئته حتى لا يعرفه أحد، فوجد فيها رجلين يقتتلان، رجلا من شيعته من بنى إسرائيل ورجلا من القبط (المصريين) وهم أعداء لبنى إسرائيل، فاستغاثه الذى من شيعته وكان هذا القبطى يريد أن يأخذ الإسرائيلى للعمل فى السخرة لفرعون، فاستغاثه هذا الرجل ليخلصه من المصرى فأغاثه موسى وخلصه من قبضته بوكزة (ضربة) قضت عليه، فاستشعر موسى الندم على ما حدث منه، فاستغفر ربه فغفر له وعفا عنه.

قال تعالى :

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ

مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) ﴾ [القصص].

فموسى ـ عليه السلام ـ لم يقتل القبطى عمداً ولا خطأ رغم شدة العداوة بين القبط وبنى إسرائيل وإنما مات الرجل قضاء وقدرا لأن الضرب بقبضة اليد لا تقتل.

ومع ذلك فقد رأى موسى أن موت الرجل على يديه ذنب يجب الاستغفار منه، وأن مثله لا ينبغى أن يكون سببا فى موت أحد حتى لو كان من أعدائه إذا أمكن دفعه من غير قتله.

فالأنبياء منزهون عن المعاصى صغيرها وكبيرها، قبل البعثة وبعدها، وقد عزم موسى ـ عليه السلام ـ بعد قتل هذا القبطى الا يكون نصيرا لمجرم من المجرمين، سواء كان من شيعته (جماعته) أم كان من عدوه، قياما بشكر الله على نعمه.

قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (١٧) ﴾ [القصص].

أى بسبب ما أنعمت على من القوة والعلم والحكمة فلا ينبغى أن أكون إلا نصيرا للحق.

فأصبح موسى فى المدينة بعد قتل القبطى خائفا من انتقام فرعون وملأه إذا علموا أن الرجل قد مات على يديه خاصة أن هذا القبطى كان من أعوان فرعون وقد تكون الوشاية (الوقيعة) من هذا الرجل الذى استغاث به فى الأمس فهؤلاء القوم قد تربوا فى ظل العبودية وفسدت أخلاقهم وضعفت لديهم الوازع الدينى والأخلاقى وتخلقوا بطباع النميمة والخيانة والغدر وانكار المعروف ومجده.

أخذ موسى يترقب الخبر ويراقب سير الأحداث لينجو بنفسه فى الوقت المناسب، فإذا به يجد على أطراف المدينة هذا الرجل الذى استغاث به بالأمس مستنصر به مرة أخرى على قبطى آخر، فأنكر عليه موسى هذا الشجار والتعرض للمشاكل. فلما أراد موسى ـ عليه السلام ـ أن يبطش بالقبطى خاف الإسرائيلى أن يقتله موسى لسبق توبيخه وتعنيفه حيث قال له إنك لغوى مبين، فصاح الإسرائيلى بأعلى صوته قائلا يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس! ما تريد إلا أن تكون جبارا فى مصر تزهق الأرواح وتسفك الدماء وما تريد أن تكون من المصلحين كما تدعى.

يقول تعالى :

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) ﴾ [القصص].

لقد أراد موسى عليه السلام أن يبطش بالمصرى لأنه كان ظالماً للإسرائيلى، إلا أنه عنف الإسرائيلى لأنه يعرض نفسه للمذلة والإهانة، ويلقى بنفسه فى المهالك.

والبطش قد يعنى الدفع بقوة والضرب وكان الإسرائيلى مؤمنا ولكنه كان سليط اللسان. وكان موسى ـ عليه السلام ـ ينصره لإيمانه وليس لمجرد العصبية لجنسه.

ولما كشف الإسرائيلى سر موسى ـ عليه السلام ـ وأنه هو الذى قتل المصرى، وصل الخبر إلى فرعون فجمع كبراء دولته ومستشاريه فأجمعوا على قتل موسى تملقا لفرعون ونفاقا وزعموا أنه يهدد عرش فرعون.

وكان هناك رجل مؤمن يسكن ضواحى المدينة وكان له صلة بالقصر الملكى فجاء إلى موسى مسرعا، فأخبره بما عزم عليه فرعون وحاشيته، ونصحه بالخروج من مصر إلى أرض بعيدة حيث لا يعلم أحد بمكانه، فقبل موسى - عليه السلام - نصيحته، وخرج من المدينة خائفا من أن ينكشف أمر هروبه ، فيقبض عليه مجاملة لفرعون.

خرج من مدينة ممفيس مسرعا فى خفية حتى وجد نفسه فى الطريق إلى مدين، فحث (أسرع) الخطى إليها داعيا ربه أن يهديه إلى سبيل الهداية.

يقول تعالى :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) ﴾ [القصص].

وكان موسى - عليه السلام - خائفا شأن البشر ولكنه كان متوكلا على الله معتمدا عليه لا على قوته وحسن تدبيره. وعندما سلك الطريق إلى مدين لم يعتمد على علمه فى قص الأثر وتتبع النجوم وإنما اعتمد على هداية الله وتوفيقه وإن كان استخدام العلم لا غضاضة فيه.

وانتهى موسى إلى ماء مدين ، وهى مدينة فى شبه الجزيرة جهة الشام بالقرب من خليج العقبة قبالة تبوك.

موسى والفتاتين :

وجد موسى - عليه السلام - عند الماء أمة من الناس - أى جماعة - يسقون دوابهم وأنعامهم. ووجد امرأتين تسوقان الغنم بعيدا عن الماء خوفا من

مزاحمة الرجال، فاشفق عليهما وسألهما عن حالهما وخبرهما فأخبرتاه أنهما لا يسقيان حتى ينصرف الرجال بعد فراغهم من السقى وأن الذى دفعهما للخروج عدم وجود رجل يكفيهما ذلك وأخبرتاه أن أباهما شيخ كبير ولعلهما لمحتا له أنهما ليس لهما زوج وأنهما خاليتان. وقد فطن موسى لذلك. ثم تولى على الظل فلعله كان يوماً شديد الحرارة، وجلس يدعو الله تعالى أن ينزل عليه من بركاته ما يسد حاجته من الطعام وغيره.

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) ﴾ [القصص].

ومكث موسى - عليه السلام - فى الظل يذكر ربه ويظهر افتقاره إليه وبينما الفتاتان قد رجعتا إلى أبيهما، وهما فى عجب وإعجاب من قوة موسى وشهامته ومروءته، وحيائه وعفته ومهابته، وجماله، وقد غمرهما حبه . وقضت كل منهما على أبيها ما رأت منه، فأرسل إحداهما إليه يدعوه لضيافته وإعطائه أجره على السقاية إن أراد.

فجاءت إليه على استحياء. ذلك شأن الصالحات تدعوه إلى بيت أبيها فأجاب الدعوة، وقال لها : أمش خلفى وأشيرى إلى الطريق بحصيات، وقيل إن اسم هذه الفتاة صافوراء، فلما انتهى إلى بيت أبيها وجلس عنده وقص عليه قصته من أولها إلى آخرها أمنه على نفسه، وبشره بنجاته من القوم الظالمين.

وبعض العلماء يرى أن هذا الشيخ هو نبى الله شعيب وبعضهم لا يرى ذلك ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ورضى عنه.

يقول الله عز وجل :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) ﴾ [القصص].

ولما قدم الشيخ الطعام لموسى عليه السلام قال له إنى لا آخذ أجراً على عمل المعروف فقال الشيخ إن ذلك ليس بأجر ولكنه حق الضيافة.

وأحس الشيخ بميل الفتاتين إلى موسى وخاصة عندما عرضت عليه إحداهما أن يستأجره ليظل معهم فى البيت ويكفيهما مؤنة العمل خارج البيت والتعرض للرجال، وأكدت طلبها هذا مع صفته بالقوة والأمانة ، القوة على أداء الأعمال والأمانة على العرض والمال.

وعرف أبوها قدر الرجل وسمو مكانته وعلمه وأدبه من خلال حديثه معه، فأبى أن تكون العلاقة بينهما مجرد علاقة أجير بصاحب العمل، ولكنه عرض عليه المصاهرة ليبقى فى هذا البلد وفى بيته معززاً مكرما لا يشعر بالغربة ولا يعانى من الوحدة والعزلة ففى المصاهرة امتزاج العواطف، واختلاط الدماء، واتصال الأنساب والأرحام. أما علاقة الأجير بصاحب العمل فهى علاقة عمل يؤدى وأجر يدفع.

عرض الشيخ على موسى أن يختار زواج إحدى الفتاتين على أن يكون مهرها أن يعمل لديه ثمانى سنين أو عشرة ووعده بأن يكون عند حسن ظنه، وأن يجد عنده حسن العشرة والمصاحبة والخلق الطيب.

﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ

فإنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ﴾ [القصص].

فانظر إلى صراحة هذا الشيخ مع موسى وتكريمه له، وحنوه وعطفه على بناته فى أن يختار الزوج لأحدهما دون حرج، ورفعه الحرج عن ابنتيه، وانظر إلى عدله وسماحته ثم لم يفرض على موسى واحدة بعينها ولكنه خيره أن يختار من يشاء منهما، حتى لا يصدم رغبته أو يصادر رأيه. ثم إن اختيار موسى بنفسه لمن يتزوجها يجعل قلبه وهواه مع من اختار دون أن يتطلع إلى الأخرى فلربما فرض عليه إحداهما وهو يرغب فى الأخرى ثم إن تخييره بين الفتاتين كفيل بأن ينزع من قلب الأخرى الأسى والمرارة ، فما أعظم حكمة هذا الشيخ وعدله وانصافه ورحمته.

وهكذا كانت تلك الصفقة المباركة الرابحة حيث ظفر الشيخ بالقوى الأمين عاملا لديه وزوجا لابنته، وتظفر ابنته بالزوج الصالح المناسب يكفيها مؤنة العمل والخروج والتعرض للرجال ويعفها ويكون لها سكنا.

ويظفر موسى بأبنة هذا الرجل الصالح لتكون له سكنا ومودة ورحمة.

وقبل موسى هذا العرض وقبل الشرط واختار الزوجة ولم يقطع بالأجل، تأدبا مع الله تعالى، وإفساحا لنفسه، فأجابه إجابة تلزمه بالثمانية وتلزمه بالعشرة:

قال الله تعالى :

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾ [القصص].

خروج موسى وزوجه إلى الطور:

عاش موسى - عليه السلام - فى مدين عشر سنين حتى بلغ سن الأربعين، وكان يرعى الغنم التى تعلم كيف يكون رعاية الأمم لأن هذه الرعاية تحتاج إلى صبر وجهد للحفاظ على الأغنام وإطعامها وسقايتها وايرادها موارد العشب وأماكن الرعى وحمايتها من الذئاب وعلاج مريضها وغير ذلك من شئون الرعى فيتعلم الراعى خلق الصبر والإهتمام بالغير وشئون الطب والشجاعة التى تتطلبها حماية الأغنام والتصدى للسباع إلى غير ذلك.

ثم بدا له أن يرحل إلى مصر لزيارة أهله، فاستأذن والد زوجته فأذن له فى الرحيل بعد إنجاز الوعد وإتمام العقد، فسار بأهله من مدين متجها إلى طور سيناء وهى مدخل مصر من جهة الشمال الشرقى.

ضربه الحنين إلى الوطن رغم أنه كان يعيش فى أمن وسلام توجه إلى مصر حيث بنو إسرائيل الذين يعانون الهوان. ورغم أنه خرج من مصر شريدا طريدا خائفا. وقد كان فى هذا الرحيل حكمة من الله تعالى حيث كان يعد موسى لتحمل الرسالة والنبوة ودعوة فرعون وملأه.

ويسير موسى حتى يضل الطريق فى ليلة مظلمة شاتية، حتى يبصر من بعيد نارا عظيمة تتأجج فوق ربوة عالية ففرح واستبشر ووقع فى قلبه شئ من الأنس حيث أن الله تعالى قد جعل للنار منافع وخاصة للمسافرين . وقد كان العرب وغيرهم خاصة سكان الأماكن النائية والبدو يوقدون النار فى الليالى المظلمة ليهتدى بها الضال، وليأتى إليها الأضياف فيجدون عندها الطعام ومن يهديهم الطريق، ومن فوائد النار للمسافر التدفئة والإ نارة وإخافة الوحوش فى الصحارىوالبرارى.

قال تعالى فى سورة طه :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) ﴾ [طه].

وفى سورة النمل قوله تعالى :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) ﴾

والاصطلاء : التدفئة.

وفى سورة القصص قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) ﴾ [القصص].

كليم الله تعالى لموسى:

ذهب موسى يطلب جذوة (سفلة) من النار ليهتدى بها السبيل ويستدفئ هو وأهله بها، ولكنه وجد الآية الكبرى، وجد دفئ الأرواح وسعادة الدارين . وجد دور الهداية، رأى نورا فى كل مكان قد بدد ظلمات الليل البهيم (حالك السواد) ، غمره النور من كل مكان، وجد شجرة تشتعل فيها النار فلا النار تحرق الشجرة ولا الشجرة تطفئ النار.

وناداه ربه تعالى بنداء العظمة والجلال، وألقى عليه تبعات (مسئوليات) الرسالة الإلهية لهداية بنى إسرائيل وفرعون والمصريين.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ⑧ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⑨ ﴾ [النمل].

فحياه ربه بأعظم تحية، وأجمل منحة وأعظم تقدير أن بورك من فى النار ومن حولها، أى بورك موسى الذى غمرته النار بأنوارها دون إحراقه وبورك من حولها من الملائكة الكرام الموكلين بتقديس المكان وتطهيره وحراسته. والمكان نفسه مقدس.

وفى سورة القصص يقول تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ㉚ ﴾ [القصص].

والوادى هو وادى طوى بطور سيناء بمصر، والأيمن : المبارك وهو أيمن فى موقعه حيث يقع يمين القبلة والأيمن هو الغربى للجبل، أى جهة مغرب الشمس والطور.

يقول تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ .

ولقد ناجى الله تعالى موسى من وراء حجاب ، فاستعذب موسى خطاب الله عز وجل ، وانشرح صدره فأطال الخطاب، يقول تعالى فى سورة طه :

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ⑪ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ⑫ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ⑬ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ⑭ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ⑮ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ⑯ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ⑰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ

غنمي ولِيَ فيها مآربُ أُخْرَىٰ (١٨) قال ألقها يا موسىٰ (١٩) فألقاها فإذا هي حيّةٌ تسعىٰ (٢٠) قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولىٰ (٢١) واضمم يدك إلىٰ جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرىٰ (٢٢) لنريك من آياتنا الكبرى (٢٣) اذهب إلىٰ فرعون إنه طغىٰ (٢٤) قال رب اشرح لي صدري (٢٥) ويسر لي أمري (٢٦) واحلل عقدة من لساني (٢٧) يفقهوا قولي (٢٨) واجعل لي وزيرا من أهلي (٢٩) هرون أخي (٣٠) اشدد به أزري (٣١) وأشركه في أمري (٣٢) كي نسبحك كثيرا (٣٣) ونذكرك كثيرا (٣٤) إنك كنت بنا بصيرا (٣٥) قال قد أوتيت سؤلك يا موسىٰ (٣٦) ولقد مننا عليك مرة أخرىٰ (٣٧) ﴾ [طه].

وكان هذا النداء من الله تعالى لموسى بكيفية لا نعلمها فنحن نؤمن ما جاء فى ذلك دون تأويل والكلام صفة من صفات الله تعالى.

وطلب موسى من ربه أن يبعث معه أخاه هارون وزيرا ونبيا وأن يحلل عقدة من لسانه لينطلق فى فصاحة وبيان لتبليغ رسالة ربه لهذا الجبار المسمى فرعون. وبث موسى خوفه وشكى لربه ما كان من عداوة فرعون له بعد قتل المصرى .

قال تعالى: ﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغىٰ (٤٥) ﴾[طه].

﴿ قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرىٰ (٤٦) فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ (٤٧) إنا قد أوحي إلينا أن العذاب علىٰ من كذب وتولىٰ (٤٨) ﴾ [طه].

وفى سورة الشعراء : قال تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾ [الشعراء].

وفى سورة القصص :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥) ﴾ [القصص].

السلطان : الحجة والبرهان والحصانة الإلهية، وقد أمدهما ربهما بالآيات المقنعة والبراهين الساطعة وتكفل بحفظهما فصدعا بأمر الله تعالى وأبلغا رسالته إلى فرعون وملأه.

فى قصر فرعون :

لما انتهى موسى ـ عليه السلام ـ إلى مصر بعد مناجاة ربه صحب أخاه هارون إلى قصر فرعون. وعرض عليه الدعوة. وطلب منه أن يرسل معه بنى إسرائيل فيطلقهم من الأسر والعبودية، ولا يعذبهم بالإذلال والتسخير، وذكره بعذات الله تعالى إن هو استمر فى غيه وإدعائه للألوهية. وحكم الناس بالظلم والجبروت.

وهنا أدرك فرعون أنه أمام الرجل الذى كان يخشاه على نفسه وملكه من قبل. أمام الرجل الذى كان يتمنى الا يخلق. وألا يجئ اليوم الذى يأتى إليه فى عقر داره وفى ديوان حكمه ليعرض عليه ما لم يعرضه عليه أحد قبله.

ومن هو هذا الرجل ؟ إنه الوليد الذى رباه، ثم فر من وجهه بغضا له واستنكاراً لظلمه، فلما سمع مقالته أراد أن يثنيه عن دعوته

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيـــــدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) ﴾ [الشعراء].

لكن موسى ـ عليه السلام ـ لم يهتم لهذا التهديد، واعتذر بأنه كان ضالا، أى حائرا– لا يعرف ماذا يفعل لتخليص الإسرائيلى من يد المصرى ، فاضطر إلى وكزه (ضربه) وما كان يعرف أن هذه الوكزة تقضى عليه، واعتذر عن فراره من مصر لما علم بائتمارهم على قتله.

وكان فرعون يريد أن يقول له : من أين جاءك هذا العلم، وكيف عرفت أن لك ربا غيرى، ومتى أرسلك الهك، وكيف يختار الإله رجلا طريدا ينكر نعمة من رباه وأحسن إليه ؟

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الـــضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنـــكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾ [الشعراء].

فكان موسى ـ عليه السلام ـ يلمح لفرعون بأنه إذا كان يطالب بدم رجل واحد من شيعته فكيف بدم آلاف قتلهم فرعون وكيف باستعباده أمة بأسرها وتسخيرها وظلمها.

وبعد هذا الحوار الهادى المقنع بدا فرعون يسأل عن رب العالمين سؤال المتجاهل، فمعرفة الله تعالى فطرية لا تقبل الإنكار.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) ﴾ [الشعراء].

فيجيبه موسى : ﴿ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) ﴾ [الشعراء].

ويظهر فرعون تعجبه من هذا الجواب ويثير عجب من حوله

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) ﴾ [الشعراء]

فيبادرهم موسى قبل أن يشير أحدهم بقتله تملقا لفرعون وخوفا على مصالحهم الدنيوية،

قال : ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) ﴾ [الشعراء].

فلما سمع فرعون مقالة موسى لمن حوله خشى أن يقع فى نفوس السادة والأشراف شئ من تعظيم موسى والميل لما يقول فقال على الفور ما قاله من سبقه من الكافرين:

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) ﴾ [الشعراء].

فرد موسى : ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) ﴾ [الشعراء].

وفى قوله : ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ تعريض بمن اتهمه منهم بالجنون.

فاشتد غضب فرعون ، فيتهدد ويتوعد. ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) ﴾ [الشعراء].

فعرض موسى - عليه السلام - برهانا ماديا على صدق دعوته:

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) ﴾ [الشعراء].

قال تعالى : ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) ﴾ [الشعراء].

فلما رأى فرعون هاتين المعجزتين سقط فى يده، وأحس بالخيبة والخذلان ففكر أن هؤلاء القوم يحبون أرضهم فلو خوفهم من الخروج منها على يد موسى لمالت نفوسهم إلى تكذيبهما حرصا على أرضهم وأموالهم فقال :

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) ﴾ [الشعراء].

﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾ [الشعراء].

وفى سورة طه : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) ﴾ [طه].

فوجدها موسى - عليه السلام - فرصة ليعرض دعوته أمام الحشود الغفيرة بما فيهم السحرة وأدعياء العلم بدلا من السعى إليهم فى البلاد.

وبعد أن تودد فرعون إلى حاشيته أخذ يتودد إلى السحرة ويعدهم بالمنح والمكافآت السخية والمناصب العليا والقرب منه، خشية أن ينتصر موسى عليه وعليهم.

موسى ـ عليه السلام ـ فى مواجهة السحرة :

اجتمع أفراد الشعب المصرى فى ساحة المنازلة وجمع فرعون السحرة من مختلف أنحاء البلاد، ووقف السحرة أمام موسى وقالوا له تلقى أنت أم نلقى نحن أولا. فقال لهم موسى ألقوا أنتم أولا فألقوا حبالهم وعصيهم فخيل لموسى أنها تسعى فى صور حيات مخيفة وحشرات بشعة، وحيوانات مفترسة ، ووقع فى الناس رعب عظيم، وخاف موسى أن يُكذب فى دعوته، فطمأنه ربه بأن الغلبة له وأنه هو الأعلى وأن ما يصنعون إن هو إلا حيل وألاعيب وتخييل وتأثير على العيون والنفوس بمكائد السحر ومنفذيه.

قال تعالى : ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾ [طه].

وقال تعالى : ﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ

السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾ [الشعراء].

ولما رأى فرعون إيمان السحرة بموسى بعد ظهور الحق واندحار باطلهم ورؤيتهم لعصا موسى وقد تحولت إلى ثعبان هائل ابتلع عصيهم وحبالهم وهم لا تسحر عيونهم كما يسحرون هم أعين الناس. لما رأى فرعون ذلك ثارت ثائرته، وأفقده الغضب رشده، فهدد السحرة بصلبهم فى جذوع النخل بحجة إيمانهم بموسى دون إذن منه. فاستهانوا بعذاب الدنيا فى سبيل النجاة من عذاب الآخرة، ورغبة فى غفران سيئاتهم وما أكرههم عليه فرعون من السحر والشر والإيذاء والضلال.

يقول تعالى : ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣) إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾ [طه].

وقال تعالى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦) ﴾ [الأعراف].

وقال تعالى :

﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ [الشعراء].

أى لا ضيم ولا خسران علينا إذا ذهب من بين أيدينا كل شئ - ولو كانت حياتنا وسلم لنا إيماننا، فنستقبل حياة هى أعز وأكرم وأفضل، إنها حياتنا الأخرى وهى خير وأبقى.

فرعون بعد إيمان السحرة :

اشتد إيذاء فرعون لبنى إسرائيل وأصر على كفره، فسلط الله عليه وعلى قومه عذابا من عنده.

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ

من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين (١٣٢) فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين (١٣٣) ﴾ [الأعراف].

وكان فرعون كلما نزلت نازلة، طلب من موسى أن يدعو إلهه ليرفع هذا البلاء، ويعده أنه لو أجابه وفرج عنه كربه يؤمن به ويرسل معه بني إسرائيل. فيذهب بهم حيث شاء وهم آمنون.

ولكن ما إن يرفع البلاء ، حتى يعود فرعون إلى سيرته الأولى.

يقول تعالى : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾

والرجز هو العذاب، والنكث خلف الوعد.

ويشتد البلاء على بني إسرائيل فيشكون لموسى عليه السلام فيوصيهم بالصبر الجميل ويعدهم خيرا

﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون (١٢٩) ﴾[الأعراف].

المطاردة وهلاك فرعون وجنوده :

لما أنكر فرعون قوة هذه الآيات البينات المفصلات قست قلوبهم فلا ينفعها وعظ ولا زجر، ولا يردها عن غيها بلاء فكان لابد من الانتقام منهم وإهلاكهم.

وظل بنود إسرائيل يعانون بطش فرعون حتى فقدوا الصبر وملوا الحياة فأوحى الله تعالى إلى موسى أن يخرج من هذه الأرض التى أفسدها الفراعنة بطغيانهم فعلم فرعون بخروجهم ليلا، فجمع جموعه من أجل اللحاق بهم

والقضاء عليهم فأخرجهم الله تعالى من النعيم إلى الهلاك.

يقول تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾ [الشعراء].

ويقول تعالى :

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) ﴾ [الدخان].

وقوله تعالى : رهوا أى ساكنا على حاله.

وقال تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ

بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾ [يونس].

وننجيك : أى نجعل بدنك فوق ربوة عالية ليشهدها الناس ويتأكدوا من موتك لتكون عبرة لمن يعتبر.

هلاك الفراعنة :

هناك آيات كثيرة تؤكد هلاك فرعون وجيشه وآثارهم ومنازلهم وتحتمل هلاك الشعب نفسه فى مثل قوله تعالى : ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ فأهلكناه ومن معه جميعا ﴾ ولهذا يحتمل أن الشعب قد هلك كله واستوطن شعب غير الشعب المصرى أرض مصر واستأنف بناء الحضارة والمعابد والآثار ، وهذا الشعب المستوطن لمصر صار مصرياً ينسب إلى مصر حيث عاش فى مصر آلاف السنين حتى الوقت الحالى .

وهذه النظرية رأيتها وهى تحتاج إلى بحث مستفيض لعلنا نكتبه فى كتاب مستقل ، فإن كانت هذه النظرية صواباً فمن الله وإن كانت خطأ فمنى ومن الشيطان والله تعالى أعلى وأعلم .

سؤالهم عبادة الأصنام :

وبينما كان بنو إسرائيل فى طريقهم إلى سيناء - بعد مجاوزتهم البحر الأحمر وجدوا قوما يعكفون على أصنام يعبدونها من دون الله، فطلبوا من

موسى عليه السلام أن ينصب صنما مثل أصنامهم، يجعلونه واسطة بينهم وبين الله كما يفعل هؤلاء القوم، فغضب موسى عليه السلام، ووصفهم بالجهل والحمق وكفران النعم، ومن أعظمها نعمة النجاة من فرعون وآله .

وقد كان المصريون يعبدون ما يسمى بعجل أبيس كما هو ثابت من آثارهم وكانوا يعبدون القطط والكلاب والثعابين والشمس والقمر من دون الله. والعجب من هؤلاء الإسرائيليين الذين يطلبون عبادة أصنام من دون الله واقدامهم لم تكد تجف من ماء البحر الذى أغرق الله فيه أعداءهم من الفراعنة.

قال تعالى : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) ﴾ [الأعراف].

رفضهم دخول بيت المقدس وعقابهم بالتيه:

أمر موسى ـ عليه السلام ـ قومه بدخول الأرض المقدسة التى كتبها اللهم لهم، وما أخرجهم من مصر إلا من أجل أن يدخلوها سجدا له – سبحانه – طالبين منه أن يحط عنهم ذنوبهم، ويغفر خطاياهم.

وقد ذكرهم موسى بنعم الله تعالى عليهم قبل أن يأمرهم بالدخول. فشحذ عزائمهم واستنهض هممهم، وبعث كوامن الرغبة فيما أعده الله لهم من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، وليقيموا دين الله ويطردوا العماليق المشركين.

ولكن القوم جبنوا ورفضوا فى إصرار. فقد جبلوا على الدعة والكسل، والجبن والخور (الضعف)، وقالوا : لا طاقة لنا بقتالهم فإن يخرجوا فإنا داخلون وقد نصح لهم رجلان منهم هما يوشع بن نون غلام موسى، وكالب بن يوقنا- وقد أنعم الله عليهما بالعلم والحكمة، والذكاء والفطنة، والعزم والحزم وقوة الإيمان واليقين ، والجرأة والشجاعة والصبر.

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦) ﴾ [المائدة].

ولم يدخولها إلا بعد وفاة موسى، ودخلوا على يد نبى الله يوشع بن نون - عليه السلام -.

يوشع بن نون ـ عليه السلام ـ

نسبه ـ عليه السلام ـ :

هو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام.

روى الإمام أحمد بسنده إلى أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "أن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليال سار إلى بيت المقدس.

ويوشع هو فتى موسى الذى كان معه فى رحلته إلى الخضر وهو كان أحد قادة جيوش موسى عليه السلام.

الخضر ـ عليه السلام ـ

نسبه :

الخضر : قال ابن عساكر يقال إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه.

وعن ابن عباس قال الخضر ابن آدم لصلبه وتسئ له فى أجله حتى يكذب الدجال وهو حديث منقطع وغريب كما يقول العلامة ابن كثير.

وقيل هو خضرون بن قابيل بن آدم.

وذكر ابن قتيبة أن إسم الخضر هو ايليا بن ملكان بن فالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقال إسماعيل بن أبى أديس : هو المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن الأزد.

وقال غيره هو خضر بن عميا بيل بن أليفز بن العيص بن إسحاق بن الخليل إبراهيم عليه السلام.

ويقال هو أرميا بن حلقيا. وقيل هو ابن فرعون . وقيل هو أخو إلياس.

وقيل كان على مقدمة ذى القرنين . وقيل كان معاصرا لإبراهيم عليه السلام.

وقيل كان نبيا فى زمن بشتاسب بن لهراسب.

قال ابن جرير والصحيح أنه كان متقدما فى زمن آخر بدون ابن انفيان حتى أدركه موسى عليه السلام. وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب : أن الخضر أمه ورقية وأبوه فارس.

وهو الذى علم موسى عليه السلام بعض المعارف والأسرار والله سبانه وتعالى أعلم.

داود. عليه السلام.

نسبه عليه السلام :

هو داود بن ايشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن تخشون بن عويناذب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

صفة داود عليه السلام وأعماله :

عن وهب بن منبه : كان داود عليه السلام قصيرا أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونقيه.

وألان الله له الحديد فكان يصنع منه دروع ، وكان يصنع كل يوم درعا يبيعه بستة آلاف درهم وكان يقوم أكثر الليل ويصوم نصف الدهر وسخر له ربه الجبال يسبحن بالعشي والأشراق. والطير محشورة له وترجع الجبال والطير

التسبيح معه، وأوتى صوتا جميلا فى تلاوة المزامير والمزامير هى آيات الزبور وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

قال تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) ﴾[ص].

وقال تعالى :

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) ﴾ [ص].

وفاته ـ عليه السلام ـ :

جاء ملك الموت وهو نازل من محرابه فقال له دعنى أنزل وأصعد فقال يا نبى الله قد نفذت السنون والشهور والآثار والأرزاق فخر ساجدا على مرقاة من تلك المراقى فقبضه وهو ساجد وكان عمره مائة سنة.

سليمان ـ عليه السلام ـ

نسبه ـ عليه السلام ـ :

هو إسماعيل بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون ابن نخشون بن عمينا بن إرم بن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم أبى الربيع نبى الله ابن نبى الله.

قال تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) ﴾ [النمل].

ملك سليمان :

سخر الله تعالى لسليمان الريح والطير والوحوش والجن وعلمه لغة الطيور والحيوانات وأتاه ملكا لم يؤته أحدا من بعده.

قال تعالى :

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) ﴾ [ص].

وقال تعالى :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢) ﴾ [الأنبياء].

وقال تعالى فى سورة ص :

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٤٠) ﴾ [ص].

وفاة سليمان عليه السلام :

قال تعالى :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ [سبأ].

عاش سليمان عليه السلام اثنتين وخمسين سنة وكان ملكه أربعين سنة وفى سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس ثم ملك بعده ابنه رحبعام مدة سبع عشرة سنة ثم تفرقت بعد مملكة بنى إسرائيل.

وكان بعد داود سليمان عليهما السلام وقبل زكريا ويحيى وعيسى عليهم الصلاة والسلام أنبياء لبنى إسرائيل منهم أشعيا بن أحصبا، وأرميا بن حلفيا من سبط لادى بن يعقوب وهو الذى كان على عهده غزو بختنصر لبيت المقدس

وشعيا كان على عهده غزو سنحاريب لبيت المقدس. ومن أنبياء بنى إسرائيل دانيال - عليه السلام - وهناك رجال مختلف فى نبوتهم منهم العزير ولقمان وذو القرنين والخضر.

لقمان عليه السلام

كان لقمان رجلا صالحا ورد خبره فى القرآن الكريم فى سورة تسمى باسمه وهى سورة لقمان. تروى هذه السورة بعضا من حكم لقمان ونصائحه لابنه لنعتبر بها.

نسبه و صفته :

اختلف المفسرون ورواة السير والتاريخ والأخبار فى نسب لقمان ومكانه وزمانه وهل كان نبيا أم رجلا صالحا حكيما، وهل هو من بنى إسرائيل، أم من غيرهم؟

والحكمة نعمة عظيمة، وكل نبى قد أتاه الله الحكمة ضمن ما أتاه من نعم والحكمة مأخوذة من الحكمة وهى شكيمة الجواد أى مقود الجواد.

والحكيم هو الذى يضع الكلام فى موضعه المناسب ويفعل الفعل فى مكانه المناسب وهو الذى يستخلص العظة والعبرة من المواقف ويحث على مكارم الأخلاق والزهد فى الدنيا وفعل الصلاح وترك الفساد معتبرا بما يرى وبما يسمع. والحكمة تطلق أيضا على القرآن «يس والقرآن الحكيم» وتطلق على السنة ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ [الأحزاب]

والقرآن الحكيم لم يصرح بأن لقمان كان نبياً ولم ينف أيضا أنه نبى، ولا يمنع ذلك أن يكون لقمان نبيا قال تعالى : ﴿ وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة ﴾ والحكمة هنا بمعنى النبوة.

والحكمة التى أوتيها لقمان عليه السلام حكمة لدينه من عند الله تعالى وليست من الحكمة المكتسبة، مثل الرسالة والنبوة، اللذين لا يكتسبان وبعض المفسرين يقول إنه كان فى زمن داود عليه السلام، وبعضهم يقول : إنه كان ابن أخت أيوب عليه السلام أو ابن خالته، وذكر بعضهم أنه كان عبدا فأعتقه سيده، وذكر ابن كثير عن مجاهد أن لقمان كان قاضيا فى بنى إسرائيل. وقيل كان راعيا للغنم، وقيل كان نجارا وقيل كان خياطا.

وقيل إن قريشا سألوا رسول الله ﷺ عن لقمان ـ عليه السلام ـ ، فأنزل الله فى شأنه قرآنا يتلى.

حكمته ووصاياه :

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) ﴾ [سورة لقمان]

وأعظم الحكمة شكر الله تعالى لأن الشاكر لله يضع الأشياء فى مواضعها ويرد الأفضال إلى صاحبها ومعطيها وهو الله سبحانه وتعالى ، والشكر ضده الكفر لأن الكافر يغطى عقله عن التدبر في فضل الله ونعمه بل فى وجوده وصفاته عز وجل . فلا يشكر ربه بل يجحد نعمه.

قال تعالى :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ (١٥٢) ﴾ [البقرة]

وقال عز وجل : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾.

أى أن الله تعالى غنى عن عباده وأن شكرهم عائد إليهم فى صورة زيادة النعم والبركة فيها والمحافظة عليها وجزيل الثواب عنها في الآخرة، فالله تعالى مع استغنائه عن خلقه وفقرهم إليه يثيبهم على طاعته ويشكر لهم كفهم عن معصيته يقول تعالى :

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. الآية. ويخلد ربنا تبارك وتعالى ذكر لقمان الحكيم الشاكر والعبد الصالح فيقول عز وجل :
﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٧) وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾ [لقمان]

هذه الوصية جامعة لصفات الخير أسداها لقمان لولده فهو أحق الناس بنصيحته ووعظه وقد بدأ الوصية بأعظم شئ يترتب على العمل به سعادة الدنيا والآخرة وهو أخطر شئ وهو العقيدة عقيدة التوحيد فبدون هذه العقيدة يكون العمل هباء منثورا لايقبل منه شئ.

بدأ لقمان نهى ابنه عن الشرك بالله، وأخبره أن الشرك ظلم عظيم إذ أن العاصى إذا لم يتب فهو فى مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه إلا الشرك فإن من قابل الله تعالى بالشرك ولم يتب منه فإن الله تعالى لا يعفو عنه مطلقا بل يجعل مصيره فى الآخرة الخلود فى النار. وإن الكافر والمشرك إذا تابا فى الدنيا من الكفر والشرك تاب الله عليهما.

ثم يوصينا الله تعالى بطاعة الوالدين باعتبارها أهم شئ بعد عبادته وتوحيده لأن الوالدين هما السبب المباشر لوجود الإنسان فى هذه الحياة والله تعالى هو واهب الحياة، وكما أن الله تعالى واهب النعم كلها فإن الوالدين هما سبب الكثير من النعم أجراها الله تعالى على يديهما.

أخوة الاسلام:

الوالد هو الذى وضع بذرة أولاده وهو الذى ينفق عليهم ويعلمهم ويربيهم ويوجههم ويعدهم ليكونوا رجالا ونساء يتحملون المسئولية فى الحياة والأم هى التى تحمل وتضع وترضع وتطعم وتسقى وتسهر وتخدم أولادها وتمرضهم وتغذوهمبحنانها.

ولذلك أمر الله تعالى الإنسان أن يشكره ويشكر والديه اللذين بياه صغيرا ورعياه كبيرا حتى بلغ مبلغ الشباب فوجب عليه أن يرعاهما فى كبرهما وأن يرحمهما ويدعو لهما كما ربياه صغيرا مع العلم بأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق فلو كان الأبوان كافرين وأمرا ولدهما بالشرك فلا يطعهما لأن الشرك ظلم عظيم ولأن حق الله تعالى مقدم على حقوق الوالدين ولأن الحق أحق أن يتبع. ومع ذلك أمر الله تعالى بمصاحبة الوالدين الكافرين بالمعروف والإحسانإليهما.

أخى المسلم :

أرأيت كيف أن الله تعالى إله حكيم ورب رحيم ينصف أعداءه وينهى المؤمنين عن ظلم أعداءه الكافرين فياليت الناس يتعظون بذلك. ويذكر الله تعالى الإنسان بأمه على وجه الخصوص لشدة معاناتها فى حمله وولادته وإرضاعه، ولضعفها، ولأن الولد لم يدرك هذه الأمور ولم يشاهدها وهو مدرك ولكنه أدرك وهو يرى أباه يعطيه ويمنحه المال والملبس وكافة ما يطلبه وما يحتاجه.

ويغرس لقمان فى ولده الإيمان فيخبره أن الله تعالى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء وإن كان مثقال ذرة. ويقدر على الإتيان بها بذاتها من بين الذرات والخفيات يعلم ما لطف وما حق وما قيل وما صغر وما كبر وما تحرك وما سكن. وهو سبحانه وتعالى يعلم عدد أوراق الأشجار وعدد قطرات الأمطار.

ولما كانت الصلاة أهم ركن من أركان الإسلام بعد شهادة أن لا إله إلا الله وهى صلة بين العبد وربه وهم أهم العبادات وأخطرها شأنًا يتجلى فيها خضوع العبد لربه وشكره إياه وتلقى المدد والفيوضات الربانية وهى أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة وإنها إن صلحت صلح العمل كله وإن فسدت فسد العمل كله.

وقد بلغ من خطورتها وعظيم شأنها أن الله تعالى فرضها على رسوله محمد ﷺ وعلى المؤمنين مباشرة من فوق سبع سموات بغير واسطة ملك ليلة الإسراء والمعراج وهى من أعظم مكفرات الذنوب.

لذلك أمر لقمان بها ولده وحثه على إقامتها ثم أراد ذلك بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأمره بالصبر على ما أصابه لأن الأمر بالمعروف والناهى عن المنكر لابد أن يتعرض للمتاعب لأن ذلك أمر ثقيل على الناس ويتطلب الصبر

والإخلاص واليقين والحكمة، وقال له إن ذلك من عزم الأمور أى من الواجبات العظام الواجبة التنفيذ بلا إبطاء.

ثم ينصح لقمان ولده بالتواضع والحلم، وترك العجب والخيلاء، فيقول ولا تصعر خدك للناس ، أى لا تخاطبهم وأنت معرض عنهم تكبرا وتعاليا كما يفعل المتكبر الذى يميل نجده عمن يحتقره، وقد يعطيه ظهره.

ومن لوازم الكبر المرح، أى الغرور والعجب قال : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال ﴾ أى يبغضه يلعنه، لأنه تكبر وتعاظم على الناس وليس له ذلك لأن الكبر والعظمة لله وحده رب كل شيئ ومليكه والإنسان خلق من ماء مهين ونزل من مجرى البول مرتين، وأن كل ما يتعاظم به المتكبرون ويختالون هو من نعم الله تعالى موهوب لهم ملك لله تعالى يسلبه منهم عند مماتهم ويقبرهم ويرقدهم فى التراب والظلام دون أنيس ولا نصير إلا من رحمه الله.

وختم لقمان عليه السلام وصاياه لابنه بالاعتدال فى المشى وحسن معاملة الناس والغض من الصوت تواضعا وتأدبا فإن رفع الصوت بلا داع من صفات الحمقى.

و صايا لقمان في غير القرآن

أخوة الاسلام :

جاءت قصة لقمان عليه السلام ووصاياه لابنه وحكمه التى كان يلقيها فى كثير من كتب السير والتاريخ وتفاسير القرآن لابن كثير وابن جرير وغيرهما من المفسرين.

ومن هذه الوصايا:

١- يا بنى إذا أردت أن تؤاخى رجلا فاغضبه قبل ذلك، فإن أنصفك عند غضبه وإلا فاحذره.

٢- لتكن كلمتك طيبة، وليكن وجهك بسطا، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم.

٣- يا بنى لا تجالس الفجار ولا تماشهم، أثق أن ينزل عليهم عذاب من السماء فيصيبك معهم، وجالس العلماء وماشهم عسى أن تنزل عليهم رحمة فتصيبك معهم.

٤- وقال : ليس غنى كصحة، ولا نعمة كطيب نفس.

٥- يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتك، فإن الله يحيى القلوب بنور العلم كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء.

٦- يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

٧- قيل للقمان : أى الناس شر؟ فقال : الذي لا يبالي أن يراه الناس محسنا أو مسيئا .

٨- وأوصاه رجل أن يذبح شاة ويأتيه بأطيب مضغتين، فأتاه باللسان والقلب، ثم طلب أن يذبح أخرى وأن يلقى منها أحب مضغتين، فألقى اللسان والقلب، فسأله عن ذلك فقال: هما أطيب مافيها إذا طابا وأخبث مافيها إذا خبثا .

٩- وقال : من كان له فى نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله تعالى بذلك عزا، والذل فى طاعة الله تعالى أقرب من التعزز بالمعصية.

١٠- وقوله : ضرب الوالد لولده كالسماء للزرع.

١١- وقوله لابنه: لا يأكل طعامك إلا الاتقياء وشاور فى أمرك العلماء.

١٢- يابنى لا تكن حلوا فتبلع، ولا تكن مرا فتلفظ.

١٣- قيل للقمان: ما بلغ بك ما ترى - يريدون الفضل - فقال : صدق الحديث، وأراء الأمانة، وترك مالا يعنينى.

١٤- يا بنى كن كمن لا يبتغى محمدة الناس ولا يكسب ذمهم، فنفسه منه فى عناء، والناس منه فى راحة.

١٥- يا بنى لا تأكل شبعا على شبع فإن القاءك إياه للكلب خير من أن تأكله.

١٦- يا بنى احضر الجنائز ولا تحضر العرس، فإن الجنائز تذكرك الآخرة، والعرس يشهيك الدنيا.

١٧- وقوله : يا بنى أياك والدَّيْن فإنه ذل النهار وهم الليل.

١٨- وقوله : يا بنى أرج الله عز وجل رجاء لا يجرئك على معصية الله تعالى، وخف الله سبحانه خوفا لا يؤيسك من رحمته.

١٩- وقوله : يا بنى حملت الجندل والحديد وكل شئ ثقيل، فلم أحمل شيئا هو أثقل من جار السوء، وذقت المرار فلم أذق شيئا هو أمر من الفقر.

ذو القرنين - عليه السلام-

ذو القرنين في القرآن الكريم :

قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ

إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ﴿٨٦﴾ قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا ﴿٨٧﴾ وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴿٨٨﴾ ثم أتبع سببا ﴿٨٩﴾ حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ﴿٩٠﴾ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا ﴿٩١﴾ ثم أتبع سببا ﴿٩٢﴾ حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ﴿٩٣﴾ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ﴿٩٤﴾ قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ﴿٩٥﴾ آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا ﴿٩٦﴾ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ﴿٩٧﴾ قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا ﴿٩٨﴾ ﴾ [الكهف]

ذو القرنين

من هو ذو القرنين؟

اختلف العلماء والمفسرون فى تحديد شخصية ذى القرنين زعم أنه من ملوك الفرس وأنه أفريدون بن أتقيا بن عشير.

وزعم آخرون أنه ملك من ملوك الصين.

وزعم قوم أنه " اسكندر بن فيلبس المقدونى الرومى تلميذ أرسطا طاليس

الفيلسوف. وقد كان ذلك قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة، وكان من أهل مقدونيا، وحارب الفرس واستولى على ملكهم وهزمهم كسرى دارا، ثم غزا بلاد الهند، ثم غزا مصر واحتلها وبنى الإسكندرية، ومات فى سن الشباب فى حوالى الثلاثين.

ولكن التاريخ يذكر لنا أن الاسكندر المقدونى وثنى وأن معلمه أرسطا طاليس وثنى أيضا، وكانت أمته وثنية.

أما الأقرب إلى الحقيقة فهو أن ذا القرنين ملك من تبع باليمن، واسمه أبو بكر بن افريقش"، وقد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط فمر بتونس ومراكش وغيرهما، وبنى مدينة سميت إفريقية، ثم سميت بها اسم القارة المعروفة الآن باسم افريقية.

وقد افتخر به أحد شعراء حمير حيث يقول :

قد كان ذو القرنين جدى مسلما   ملكا تدين له الملــوك وتســجد

بلغ المشــارق والمغــارب يبتــغى   أسـباب ملــك كريــم مرشـــد

فرأى مآب الشمس عند غروبها   فى ذى خلب وثــاط حرمـــد

والخلب : الطين والثأط : الحمئة والجرمد : الأسود.

وسمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمسش أى مشرقها ومغربا. وقيل كان له قرنان من نحاس فى رأسه، وقيل شج فى رأسه فى أحد حروبه شجتان.

ويستأنس إلى أنه عربى من قبيلة حمير باليمن التى حكم ملوكها من سنة ١١٥ق.م (قبل الميلاد) إلى سنة ٥٥٢ بعد الميلاد أنهم كانوا يسمون ذا ومنهم ذو نفر وذو نواس وذو يزن الذى تعاون مع الفرس لإجلاء الحبشة عن اليمن بعد احتلالها عشرات السنين.

وجوه التشابه والاختلاف بين ذى القرنين والخضر:

ذو القرنين والخضر آتاهما الله علما ورحمة، فالخضر آتاه الله تعالى علما لدنياً، وذو القرنين منحه الله علما بالعمارة والهندسة الإنشائية حتى بنى سدا ضخما عملاقا مازال قائما وإلى قرب قيام الساعة، وأعطاه الله من علم التدبير والسياسة وعلوم الحرب والقتال وفنون القيادة والزعامة، وأضفى عليه الهيبة ومنحه النصر واالغلبة حتى دان له العباد وفتح البلاد وطاف المشارق والمغارب حتى وصل إلى مشارق الأرض ومغاربها وبلغ مطلع الشمس ومعغربها ومشرقها من الأرض.

ومن وجوه الاتفاق بين ذى القرنين والخضر أن كلا منهما كان على علم وبصيرة وعلى هدى من ربه، وأن كلا منهما كان رحيما حليما مع الناس، وأن كلا منهما كان خبيرا بالمعمار والإنشاء والهندسة . فالخضر قد بنى الجدار، وذو القرنين قد بنى السد.

وقد آتى الله تعالى كلا منهما خوارق العادات . فالخضر قد خرق السفينة وعلم مسبقا أن هناك ملك يأخذ كل سفينة سليمة غصبا، وقتل الغلام وقد أعلمه الله تعالى أن هذا الغلام لو كبر كان سيرهق أبويه طغيانا وكفرا ويكون سببا فى فتنهيما فى دينهما.

وبنى الجدار الذى كان يوشك أن يسقط بناء بحيث يخر ساقطا عندما يبلغ الغلامان اليتيمان سن الرشد فيستخرجا كنزهما وأعلمه الله عز وجل أن الجدار لو سقط أثناء طفولة الغلامين لاستولي أهل القرية البخلاء الجشعين على كنز الغلامين الذى تركه لهما أبوهما الصالح، وقد بلغ من بخل أهل القرية وخستهم أنهم رفضوا جميعهم أن يطعموا موسى والخضر عليهما السلام عندما جاعا ،وطلبا طعاما ورغم أنهما لم يطلبا مالا.

أما الأحداث التى جرت على يد ذى القرنين والتى ذكرت فى سورة الكهف فبلوغ مغرب الشمس، وبلوغ مشرقها، وإقامة السد.

ومن وجوه الاختلاف أن أعمال الخضر كانت فوق مستوى البشر ومما يستغربه العقل، أما الأحداث التى جرت على يد ذى القرنين فكانت تجرى على مستوى العقل البشرى غير أنها كانت أعمالا تدل على التفوق والتميز والسداد من الله تعالى.

وقد أبهم القرآن الاسم الحقيقى لذى القرنين وللخضر فسمى كلا منهما عبدا لأن قصص القرآن تهدف إلي بيان العبرة والدروس المستفادة من كل قصة أكثر مما تهتم بذكر أسماء والأشخاص والأماكن وتحديد الأزمان.

بلوغ ذى القرنين مغرب الشمس :

قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) ﴾ [الكهف]

وكان الذى سأل الرسول ﷺ عن ذى القرنين مشركو مكة حيث سأل وفد منهم اليهود عن رأيهم فى محمد ﷺ فقالوا له أسألوه عن رجل طواف طاف المشارق والمغارب وعن فتية ذهبوا فى الزمان القديم وعن الروح فإذا أجابكم عن هذه الأسئلة فهو نبى والا فهو مدع فانظروا فى شأنه.

واليهود يعلمون أن الإجابة عن الروح لا تكون فى هذه الدنيا ويعلمون أن الروح سر من أسرار الله تعالى مما اختص الله تعالى بعلمه وحجب سره عن الناس فأوعزوا إلى المشركين بهذا السؤال ليكون ذريعة إلى تكذيب الرسول ﷺ لأنهم يعلمون أن الرسول ﷺ سيجيبهم عن شأن الفتية وهم أهل الكهف وسيجيبهم عن الرجل الطواف ذى القرنين، ولن يجيبهم عن سؤال الروح فهم قوم أهل مكر وخديعة يعلمون الحق ويحيدون (يميلون) عنه.

قال تعالى : ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾.

أى قرآنا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو ذكر عن أراد أن يتذكر. والذكر يأتى بمعنى الخبر وبمعنى العلم وبمعنى الشرف وبمعنى العبرة والعظة.

أخوة الإسلام :

قصة ذى القرنين مليئة بالعظات والدروس والعبر والقصص العجيب المثير، وذو القرنين اختلف فى ماهيته فمن قائل يقول إنه ملك ومن العلماء من يقول إنه ملك نبى ومنهم من يقول إنه ملك من الملائكة وهناك رجال مختلف فى نبوتهم منهم ذو القرنين ولقمان والخضر والعزير.

ترينا القصة أن الله تعالى قد منح ذا القرنين قوة وعلما وملكا ليكون ذلك عنصر تشويق لمتابعة قصته والاستفادة منها.

قصص القرآن هو أحسن القصص، وكل قصة من قصص القرآن لها مقدمة تناسبها تسوق الأحداث بسلاسة وإثارة وتشويق فى سياق فنى بلاغى يظهر مواطن الجمال فى القصة ويقود إلى وسطها ثم نهايتها فى أجمل تصوير وأبدع بيان وأحسن أسلوب.

يقول تعالى بعد ذلك : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾ [الكهف].

والتمكين هو التثبيت والتمليك والقوة. فكان ذو القرنين يستخدم تلك الإمكانيات فى نشر الإسلام ونصر الضعفاء وتأديب الظلمة والجبابرة. وقد آتاه الله علما وحكمة وقوة ويسر له سبل السياحة فى الأرض بقوة ويسر واقتدار.

وهو قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾ [الكهف]. أى خبرة

توصله إلى مقصده وهدفه.. فاتبع سببا، أى سلك طريقا متجها إلى الغرب حتى انتهى به السير إلى مكان خصب، وقد غربت عليه الشمس وهناك وجد قوما لا يعرفون الله، فحكّمة الله فيهم ، واسند إليه أمر هدايتهم وإصلاحهم، وخيره بين أن يأخذهم بالقوة والشدة وبين أن يأخذهم باللين، فاختار نو القرنين العدل، فقرر أن يعذب من ظلم نفسه بالكفر والعناد، ورفض الهداية والرشاد، وأخبر أنه سيرد إلى ربه – أى هذا الظالم – فيعذبه عذابا نكرا (شديدا) خالدا.

قال عز وجل :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ﴾ [الكهف]

ومغرب الشمس الجهة الغربية من الأرض التى كان يسير فيها، والعين الحمئة: هى عين سوداء فى لون الحمأة– وهى الطينة السوداء شديدة الحرارة. ففى قراءة أخرى" فوجدها تغرب فى عين حامية".

أى فوجد الشمس تغرب فى أرض طينية خصبة صالحة للزراعة. فلما وصل إلى تلك الأرض غربت عليه الشمس فيها.

قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾

انتهى إلى حيث لا يمكن لأحد أن يجاوزه، ووقف على حافة البحر المحيط الغربى الذى يقال له أوقيانوس، الذى فيه الجزائر المسماة بالخالدات التى هى مبدأ الأطوال على أحد قولى أرباب الهيئة. وعنده شاهد مغيب الشمس– فيما

رآه بالنسبة إلى مشاهدته لتغرب فى عين حمئة، والمراد بها البحر فى نظره، فإن من كان فى البحر أو على ساحله يرى الشمس كأنها تطلع من البحر وتغرب فيه.

وقوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ دلالة على أنه نبى يوحى إليه.

وعندما بدأ ذو القرنين بذكر جزاء الظالمين بدأ يذكر جزاءه لضآلته إلى جانب جزاء الله وعذابه لهم. ولما ذكر جزاء المؤمنين ذكر جزاء الله أولا لعظيم جزاء الله للمؤمنين وصغر جزاءه هو بجانب جزاء الله تعالى.

بلوغه مطلع الشمس :

اتجه ذو القرنين مسرعا إلى أهل المشرق ليفعل بهم من الخير بعدما أصلح من شأن أهل المغرب، فسلك الطريق التى يعرفها بمن معه من الجنود والخبراء والمهندسين حتى انتهى إلى أقصى الشرق، وهو المكان الذى تشرق منه الشمس عليه قبل غيره. فوجدها تطلع على قوم كسالى خاملين لا نشاط لهم ولا عمل مجدى، وهم عراة وليس عليهم ما يسترهم، وليس فى بلادهم من شجر ولا بناء يقيهم حر الشمس، بل كانوا يعيشون فى الكهوف والمغارات، وحالهم حال أهل المغرب فى الكفر والإلحاد والإفساد فى الأرض.

لم يكونوا أهل حضارة ولا أهل علم ولا صناعة ولا زراعة ولا معمار ولا هندسة، ولعلهم كانوا يعيشون على الصيد.

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ أنه فعل بهم مثل ما فعل بأهل المغرب ولديه أى عنده وخبرا أى علما، وقد أحاط الله تعالى بما عند ذى القرنين من خبر ومعرفة، فأرسلناه إليهم لهدايتهم وإصلاح شأنهم، وكان الله معه بتوفيقه ورعايته وتسديده ونصره حيثما كان، فمكنه الله تعالى من نواصيهم فلما مكنه من أهل المغرب، وهو أى ذو القرنين- خبير بطبائع الناس مهما اختلفت أجناسهم وبيئاتهم وأوطانهم، عليم بلغاتهم وعاداتهم وطبائعهم وحاجاتهم وأساليب إخضاعهم لهداية الدين الحق.

أخوة الاسلام :

كان ذو القرنين عليما بعلوم الحضارة والهندسة والمعمار وعلوم الاجتماع وعلم النفس وعلوم الدين وعلوم اللغات والجغرافيا والفلك والتاريخ وغير ذلك من العلوم مما علمه الله ومكنه فى الأرض

وهذه االعلوم والمعارف والخبرات لازمة لسياسة الأمم ودعوتها إلى الله تعالى. ومن لا يعرف كل هذه العلوم من الملوك والحكام فهو يستشير أهل العلم والخبرة وإلا تدهورت الأحوال وتوقف التقدم والعمران.

بلوغ ذى القرنين بين السدين :

ثم اتخذ ذو القرنين طريقا إلى مكان فى أقصى الأرض لا هو بأقصى المغرب ولا هو بأقصى المشرق، يقال له - يُسمى- بين السدين، وكثير من علماء التفسير والسير والأخبار والتاريخ يقولون إن هذا السد يقع فى بلاد الترك. وقد روى العلامة المسعودى فى كتابه مروج الذهب وصف لهذا السد وأخبر أن الخليفة العباس الواثق أرسل بعثة لتعاين السد وتكتب له تقريرا عنه بعدما رآه رجل من أتباعه وكذلك أخبر عن السد العلامة بن كثير فى البداية والنهاية.

واستطاع ذو القرنين أن يفهم لغة القوم، وشكوا إليه حال قوم يقال لهم: يأجوج ومأجوج - وعرضوا عليه أن يبنى لهم سدا بينهم وبين هؤلاء المسفدين الذين يتسللون اليهم من بين الجبلين ويشنون عليهم الغارات تلو الغارات يقتلون رجالهم ويسبون نسائهم وأطفالهم وينهبون مواشيهم وأغنامهم. وعرضوا عليه أجرا نظير بناء سد بين الجبلين يمنع غارات يأجوج ومأجوج عليهم، فاعتذر عن أخذ الأجرة، وأخبرهم إنه فى غنى عنه، فإن عطاء الله واسع، وأن ما عنده من النعمة والمال يكفيه، وطلب منهم أن يعينون بسواعدهم وأن يشاركوا معه فى بناء السد.

فأمرهم أن يجمعوا له قطع الحديد، وأن يصنعوا كيرا لحرق الحديد وأمرهم أن يجمعوا الرصاص أو النحاس ليصهره على الحديد بعد أن يكون قد ساوى بين الجبلين أى سد الفرجة بين الجبلين حتى يتمكن من إحكام صبه فكان عملهم.

جمع الحديد، ونفخ الكير، وجمع النحاس :

وقام هو : بالتسوية بين الجبلين، وصب الحديد، وافراغ النحاس عليه. فكان سدا منيعا شديد الصلابة لم يستطع يأجوج ومأجوج أن ينقبوه (يثقبوه) ولا أن يظهروا (يصعدوا) عليه لمتانته وارتفاعه وبهذا كان السد آية من آيات الله، وكان اختراقه علامة من علامات الساعة الكبرى.

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ

نارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴾ [الكهف]

فالسدان هما الجبلان المحيطان بالوادى، والخرج هو الأجر، وزُبر الحديد: قطع الحديد. والصدقان الجبلان، والقطر: الرصاص أو النحاس المذاب.

وقوله تعالى : ﴿ سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أى سوى بينهما بحيث حك جانبيهما حتى يصيرا مستويين لا يرتفع أحدهما عن الآخر.

فلما فرغ من بناء السد بين الجبلين على نحو لم يسبقه إليه أحد، وبناه ضخما عملاقا راسخا فى الأرض قائما على وجهها إلى يوم القيامة - لما فرغ من ذلك لم يأخذه الغرور وإنما تضاءل وتواضع أمام قدرة الله تعالى ونعمته حيث مكنه من صنع هذا السد المعجزة وقال : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أى من صنع الله لا من صنعي، وبقدرة الله وحوله لا بقدرنى وحولى وهو قبس من رحمة الله على الناس جميعا إذ جعله الله تعالى وقاية لهم وحاجزا بين يأجوج ومأجوج وبينهم إلي قرب قيام الساعة. فإذا اقترب مجيئها يمكن يأجوج ومأجوج من ثقب السد ومن الصعود على ظهره بعد أن كانوا عاجزين عن ذلك. ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ أى سواه بالأرض وهدمه.

وكان وعد ربى حقا : لا يتخلف ولا يتبدل. قال تعالى فى سورة الأنبياء :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧) ﴾ [الأنبياء]

أوجة الإسلام :

الناس دائما فى حاجة إلى مرشد ناصح أمين عالم خبير حكيم يقودهم إلى مواطن الخير ويدفعهم عن مواطن الشر والإفساد، في حاجة إلى بطل شجاع قدوة قد تجرد من الأنانية واتصف بالرحمة وحب الإنسانية ملتزما بنهج الله سبحانه وتعالى.

فمتى يظهر فى دنيا الناس وفى عصرنا هذا مثال يحتذى به ويجتمع الناس حوله لتحقيق سعادة الإنسانية فى ظل الإيمان والعدالة والمساواة. وهذه رسالة الأنبياء والقادة العظام.

فلعلك بنى العزيز تكون هذا الرجل فى مستقبل أيامك ليتحقق نصرة الإسلام وأعزار الدين وإقامة العدل والسلام والرخاء.

و صف سد يأجوج ومأجوج:

لايعرف على وجه الأرض بناء أجل منه ولا أنفع للخلق منه فى أمر دنياهم.

وقد ذكر أن الخليفة الواثق بعث رسلا من جهته وكتب كتابا إلى الملوك يوصلونهم من بلاد إلى بلاد حتى ينتهوا إلى السد فيكشفوا عن خبره وينظروا كيف بناه ذو القرنين وعلى أى صفة ؟ فلما رجعوا أخبروا عن صفته وأن فيه بابا عظيما وعليه أقفال وأنه بناء محكم شاهق منيع جدا (مرتفع) وأن بقية اللبن (الطوب الحديدى) والآلات فى برج هناك، وذكروا أنه لايزال هناك حرس لتلك الملوك المتاخمة (المجاورة) لتلك البلاد ومحلته (مكانه) فى شرقى الأرض جهة الشمال فى زواية الأرض الشرقية الشمالية، ويقال : إن بلادهم متسعة جدا وأنهم يقتاتون بأصناف من المعايش من حراثة وزراعة واصطياد من البر والبحر، وهم أمم وخلق لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم.

الخضر ـ عليه السلام ـ

نسبه :

الخضر : قال ابن عساكر يقال إنه الخضر بن آدم عليه السلام لصلبه.

وعن ابن عباس قال الخضر ابن آدم لصلبه وتسئ له فى أجله حتى يكذب الدجال وهو حديث منقطع وغريب كما يقول العلامة ابن كثير.

وقيل هو خضرون بن قابيل بن أدم.

وذكر ابن قتيبة أن إسم الخضر هو ايليا بن ملكان بن فالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح. وقال إسماعيل بن أبى أديس : هو المعمر بن مالك بن عبد الله بن نصر بن الأزد.

وقال غيره هو خضر بن عميا بيل بن أليفز بن العيص بن إسحاق بن الخليل إبراهيم عليه السلام.

ويقال هو أرميا بن حلقيا. وقيل هو ابن فرعون . وقيل هو أخو إلياس.

وقيل كان على مقدمة ذى القرنين . وقيل كان معاصرا لإبراهيم عليه السلام.

وقيل كان نبيا فى زمن بشتاسب بن لهراسب.

قال ابن جرير والصحيح أنه كان متقدما فى زمن آخر بدون ابن انفيان حتى أدركه موسى عليه السلام. وروى الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب : أن الخضر أمه ورقية وأبوه فارس.

وهو الذى علم موسى ـ عليه السلام ـ بعض المعارف والأسرار والله سبانه وتعالى أعلم.

إلياس. عليه السلام.

نسبه. عليه السلام:

قال علماء النسب هو الياس التشبى ويقال ابن ياسين بن منخاص بن العيزار بن هارون.

وقيل إلياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران.

وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق وكانوا يعبدون بعلا.

دعوة الياس. عليه السلام.:

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (١٢٦) ﴾ [الصافات].

فكذبوه وأرادوا قتله فهرب منهم واختفى عنهم فى الغار عشر سنين حتى أهلك الله الملك وولى غيره فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم وأسلم من قومه خلق عظيم غير عشرة آلاف فأسر بهم فقتلوا.

وكان إلياس أثناء هربه تأتيه القربان برزقه.

حزفيل. عليه السلام.

ذكر حزفيل ضمنا فى القرآن ولم يذكر صراحة إسمه.

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) ﴾ [البقرة].

قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه إن كالب بن يوفنا لما قبضه الله إليه بعد يوشع خلف فى بنى إسرائيل حزفيل بن بوذى.

قال ابن اسحق : فروا من الوباء فنزلوا بصعيد من الأرض فقال لهم الله موتوا فماتوا جميعا فحظروا عليهم حظيرة دون السباع فمضت عليهم دهور طويلة فمر بهم حزفيل عليه السلام فوقف عليهم متفكرا فقيل له أتحب أن يبعثهم الله وأنت تنظر فقال : نعم. فأمر أن يدعو تلك العظام أن تكتسى لحما وأن يتصل العصب بعضه ببعض عن أمر الله له بذلك فقام القوم وكبروا تكبيرة رجل واحد.

قلت : إن معجزة حزفيل أكبر من معجزة عيسى عليه السلام . فقد قيل إن هؤلاء القوم كانوا ثلاثين ألفا وقيل ستين ألفا بينما الذين بعثوا إلى الحياة على يد عيسى عليه السلام وبقدرة الله تعالى كانوا خمسة فعلام يفتن النصارى بعيسى عليه السلام؟ كما أن معجزة خلق آدم عليه السلام أكبر من معجزة خلق عيسى بغير أب فإن آدم عليه السلام خلق من غير أب ولا أم بينما عيسى عليه السلام خلق من أم بغير أب.

قال تعالى : ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾.

اليسع. عليه السلام.

نسبه. عليه السلام:

هو اليسع بن اخطوب وقال ابن عساكر فى حرف الباء من تاريخ إليسع وهو الأسباط بن عدى بن شوكلم بن أفراثيم بن يوسف ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام.

ويقال هو ابن عم إلياس النبى عليهما السلام، وأنه كان مستخفيا معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليها فلما رفع إلياس خلفه إليسع فى قومه ونبأه الله بعده.

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء فى سورة الأنعام فى قوله تعالى :

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) ﴾ [الأنعام].

وقال تعالى فى سورة ص :

﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ (٤٨) ﴾ [ص].

زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ

قال تعالى :

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠) ﴾ [الأنبياء].

نسب زكريا ـ عليه السلام :

هو زكريا بن برخيا ويقال بن دان بن مسلم بن صدوق بن حشبان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخيا بن بلعاطة بن ناحور بن شلوم بن بهفاشاط بن ايتامن بن رحبعام بن سليمان بن داود أبو يحيى النبى عليه السلام من بنى إسرائيل.

أما يحيى عليه السلام فهو ابن زكريا وكانا قبل عيسى عليه السلام .

وزكريا هو الذى كفل عيسى عليه السلام ويحيى كان معاصرا لعيسى عليهما السلام.

وقد قتل بنو إسرائيل زكريا ويحيى عليهما السلام بتحريض أميرة رومانية على قتل يحيى وطلبت رأسه كمهر لها من خالها الحاكم الرومانى لفلسطين فجاءه برأسه فى طست.

وقد ذكرت قصتهما فى سورة مريم وسورة آل عمران وسورة الأنبياء فلعنه الله على القتلة من بنى إسرائيل.

نبى الله ورسوله عيسى بن مريم
عليه السلام

نسب عيسى. عليه السلام:

هو عيسى بن مريم ابنة عمران ابن باشم بن أمون بن ميشا بن خرقيا بن احريق بن موثم بن عزازيا بن امصيا بن ياوش بن احريهو بن يازم بن بهفاشاط بن ايشا بن أيان بن رحبعام بن سليمان بن داود.

وكان عمران صاحب صلاة بنى إسرائيل فى زمانه وكانت حمنة بنت فاخود بن قبيل من العابدات وهى زوجة زكريا عليه السلام وكان زكريا زرحت أخت مريم اشياع وقيعل زوج خالتها أشباع.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ

وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران].

ميلاد عيسى ـ عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) ﴾ [مريم].

دعوة عيسى ـ عليه السلام :

أخذ عيسى ـ عليه السلام ـ يدعو بنى إسرائيل إلى عبادة الله تعالى ونبذ مساوئ الأخلاق والعمل للآخرة فأيده الله تعالى بالمعجزات مثل إبراء الأكمه (الذى ولد أعمى) وشفاء الأبرص وتشكيل الطين على هيئة الطير والنفخ فيه فيصير طيرا بإذن الله وإخبارهم بما يدخرون وما يأكلون فى بيوتهم وإحياء الموتى بإذن الله وكان خلق عيسى فى حد ذاته معجزة من المعجزات حيث ولد من غير أب. وأيده الله تعالى بروح القدس. فأما بنو إسرائيل فقد انقسموا فريقين فريقا كذبوه ورموا أمه بالعظائم وفريق صدقوه وأنقسم النصارى إلي

فريقين فريق موحد لله يقر بأن عيسى المسيح عليه السلام نبى الله ورسوله وعبده وكلمته ألقاها إلى مريم.

وفريق غالى فيه وادعى فيه الألوهية وهذا الفريق انقسم إلى عدة فرق فمنهم من قال إنه الله ومنهم من قال ابن الله وتعددت أقوالهم، فى المسيح وكثر خبطهم فقالوا مولود غير مخلوق وقال بعضهم إن له طبيعة واحدة إلهية وقال آخرون إن له طبيعتان إلهية وبشرية تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

رفع عيسى ـ عليه السلام ـ إلي السماء :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣) ﴾ [آل عمران].

قال تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ

والأرض وما بينهما وإليه المصير (١٨) يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير (١٩) ﴾ [المائدة].

وقال تعالى :

﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار (٧٢) لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم (٧٣) أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم (٧٤) ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون (٧٥) ﴾ [المائدة].

أما عن رفعه . عليه السلام :

فقد قال تعالى :

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا (١٥٥) وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما (١٥٦) وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا (١٥٧)

بل رَّفعهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٩) ﴾ [النساء].

نبى الله ورسوله محمد ﷺ

نسبه . عليه الصلاة والسلام . :

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - وإسمه شيبة - بن هاشم - وإسمه عمرو- بن عبد مناف وإسمه المغيرة- بن قصى - وإسمه زيد - بن كلاب من مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر- قريش - بن مالك بن النضر- قيس- بن كنانة بن خزيمة بن مدركة -،عامر - بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان.

بن أد بن هميسع بن سلامان بن عوص بن بوز بن قموال بن أبى بن عوام بن ناشد بن خز ابن بلذاس بن يدلاف بن طابخ بن حامم بن ناحش بن ماضى بن عيص بن عبقر بن عبيد بن الدعاء بن حمدان بن سنبر ابن يثربى بن يحزن بن يلحن من أرعوى بن عيص بن وبشان بن عيصر بن أفناد بن أيهام ابن مقصر بن ناحث بن زارح بن سمى بن مزى بن عوضه بن عرام بن قيدار بن إسماعيل من إبراهيم عليهما السلام . (الرحيق المختوم).

دعوته . عليه الصلاة والسلام . :

دعا ﷺ إلى توحيد وإلى عبادته وحده لا شريك له وشهادة أن لا إله إلا الله وأنه محمد رسول الله وترك عبادة الأوثان والتحلى بمكارم الأخلاق وتحريم القبائح والخبائث والفواحش وصلة الأرحام وبر الوالدين وغير ذلك. وأمر بالعدل والإحسان والرحمة.

معجزات النبى ﷺ :

المعجزة الكبرى هى القرآن الكريم الذى أعجز فرسان الفصاحة والبلاغة والذى حوى العلوم والأخبار والتاريخ والسياسة والاقتصاد وذو الصنائع وقصص الأنبياء والتشريع والحلال والحرام وذكر الجنة والنار والقيامة والحساب والغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة وغير ذلك وتحدى البشر جميعا بل والجن معهم أن يأتوا بمثله ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله ثم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

وللنبى ﷺ معجزات كثيرة منها جرى الماء من بين أصابعه وإطعام الجيش من لقيمات قليلة وكلام الحيوان معه وشهادة الضب له بالرسالة وتأدب الوحش أمامه وتحرك الأشجار بأمره وسلام الأشجار والأحجار عليه وغير ذلك من المعجزات مثل الإسراء والمعجزات وانشقاق القمر وغيرها .

جهاده. عليه الصلاة والسلام. :

دعا الرسول ﷺ إلى ربه ولاقى الشدائد والأهوال على مدى ثلاث وعشرين سنة حتى نصره الله على أعدائه وانتشر الإسلام فى جزيرة العرب . ثم واصل الإسلام انتشاره فى سائر أرجاء العالم على يد صحابته الكرام رضوان الله عليهم.

وفاته ﷺ :

توفى ﷺ فى الثانى عشر من ربيع الأول عن عمر يناهز ثلاثا وستين سنة ودفن فى حجرته وتولى أصحابه غسله وتكفينه دون أن ينزعوا عنه ثيابه وحزن الصحابة عليه حزنا عظيما حتى رفع عمر بن الخطاب السيف علي من قال إن محمدا قد مات حتى راجعه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وذكره بقول

الله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

وأختار الصحابة أبا بكر الصديق خليفة لرسول الله رضوان الله عليه وحاكما وإماما للمسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ وكان آخر ما أوصى به ﷺ قوله الصلاة الصلاة وما ملكيت أيمانكم.

وقوله ﷺ اللهم لاتجعل قبرى عيدا اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد.

اللهم إنا نشهد لرسولك أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين اللهم شفعه فينا واحشرنا على قدمه واسقنا من حوضه شربة لا نظمأ بعدها أبدا واجعلنا رفقاءه فى الجنة وتجاوز عنا واغفر لأبائنا وأمهاتنا ولمن له فضل علينا آمين آمين وصل الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا وإمامنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وعلى جميع أنبياءه ورسله.

خلافة أبى بكر الصديق
ر ضى الله تعالى عنه

تاريخه :

بايع الناس أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، فى سقيفة بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصارى، فى يوم الاثنين الذى توفى فيه رسول الله ﷺ، وتوفى أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين سنة، مستوفيا لعمر النبى ﷺ ، وهذا اتفاق فى سائر الروايات، وكان مولد أبى بكر بعد الفيل بثلاث سنين، وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام، ودفن إلى جنب رسول الله ﷺ رأسه على كتف رسول الله ﷺ، كذلك قالت عائشة، وقد قيل: إن أبا بكر كانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً،

نسبه، وأخباره وسيره
(ر ضى الله عنه)

كان اسم أبى بكر رضى الله عنه عبد الله بن عثمان - وهو أبو قحافة- بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب، وفى مرة يجتمع برسول الله ﷺ ، ولقبه عتيق، لبشارة رسول الله ﷺ إياه أنه عتيق الله من النار، فسمى يومئذ عتيقاً وهو الصحيح وقيل : إنما سمى عتيقا لعتق أمهات، واستخلف وأبوه فى الحياة.

صفاتـــه :

وكان أزهد الناس، وأكثرهم تواضعا فى أخلاقه ولباسه ومطعمه ومشربه وكان لبسه فى خلافته الشملة والعباءة.

تواضعه وزهده ونسكه :

وقدم إليه زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل والحبرُ وبرود الوشى المثقل بالذهب والتيجان، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك، وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم.

وفود العرب إليه:

وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير، ومعه ألف عبد دون من كان معه من عشيرته، وعليه التاج والبرود والحلل، فلما شاهد من أبى بكر زهده ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه، حتى إنه رؤى يوماً فى سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة، ففزعت عشيرته لذلك وقالوا له : قد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار، قال : أفأردتم منى أن أكون ملكا جباراً فى الجاهلية جباراً فى الإسلام، لاها الله، لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع لله والزهد فى هذه الدنيا، وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر، وذللوا بعد التجبر.

بين أبى بكر وأبى سفيان:

وبلغ أبا بكر رضى الله عنه عن أبى سفيان صخر بن حرب أمر، فأحضره وأقبل يصيح عليه، وأبو سفيان يتملقه ويتذلل له، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبى بكر، فقال لقائده: على من يصيح ابنى ؟ فقال له : على أبى سفيان، فدنا

من أبى بكر وقال له: أعلى أبى سفيان ترفع صوتك ياعتيق الله ؟ وقد كان بالأمس سيد قريش فى الجاهلية لقد تمديت طورك وجزت مقدارك فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار، وقال له> يا أبت، إن الله قد رفع بالإسلام قوما وأذل به آخرين.

ولم يتقلد أحد الخلافة وأبوه باق غير أبى بكر.

نسب أمه :

وأم أبى بكر سلمى – وتكنى : أم الخير– بنت صخر بن عمرو بن عامر ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة.

وارتدت العرب بعد استخلافه بعشرة أيام.

أولاده:

وكان له من الولد: عبد الله، وعبد الرحمن، ومحمد، فأما عبد الله فإنه شهد يوم الطائف مع النبى ﷺ فلحقته جراحة وبقى إلى خلافة أبيه أبى بكر، ومات في خلافته، وخلف سبعة دنانير، فاستكثرها أبو بكر، ولا عقب لعبد الله، وأما عبد الرحمن بن أبى بكر فإنه شهد يوم بدر مع المشركين، ثم أسلم فحسن إسلامه، ولعبد الرحمن أخبار، وله عقب كثير بدو وحضر فى ناحية الحجاز مما يلى الجادة من طريق العراق فى الموضع المعروف بالصفينيات والمسح، ومحمد بن أبى بكر، أمه أسماء بنت عميس الخثعمية، ومنها عقب جعفر بن أبى طالب، وخلف عليها حين استشهد عبد الله، وعونا ومحمدا بنى جعفر، فقتل عون ومحمد ابنا جعفر بالطف مع الحسين بن على، ولا عقب لهما، وعقب جعفر عن عبد الله بن جعفر، وولد لعبد الله بن جعفر: علي وإسماعيل وإسحاق ومعاوية، وتزوجها

بعده أبو بكر الصديق، فخلف منها محمدا، ثم تزوجها على بن أبى طالب فأولدها أولاداً درجوا، ولا عقب له منها، وأم أسماء العجوز الحريشية كان لها أربع بنات، وهذه العجوز أكثر الناس أصهارا، كانت ميمونة الهلالية تحت النبى ﷺ ، وأم الفضل تحت العباس بن عبد المطلب، وسلمى تحت حمزة بن عبد المطلب، وخلف منها بنتاً، وأسماء تحت من ذكرنا من جعفر وأبى بكر وعلى، والعقب من محمد بن أبى بكر قليل، وأم جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق. وكان محمد بن أبى بكر يدعى عابد قريش لنسكه وزهده، ورباه على بن أبى طالب،

موت أبى قحافة:

ومات أبو قحافة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه! وهو ابن تسع وتسعين سنة، وذلك فى سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهى السنة التى استخلف فيها عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقد قيل : إنه مات في سنة أربع عشرة.

يوم السقيفة :

ولما بويع أبو بكر فى يوم السقيفة وجددت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة خرج على فقال: أفسدت علينا أمورنا، ولم تستشر، ولم ترع لنا حقا، فقال أبو بكر : بلى، ولكنى خشيت الفتنة، وكان للمهاجرين والأنصار يوم السقيفة خطب طويل، ومجاذبة فى الإمامة، وخرج سعد بن عبادة ولم يبايع، فصار إلى الشام، فقتل هناك فى سنة خمس عشرة، ولم يبايعه أحد من بنى هاشم حتى ماتت فاطمة رضى الله عنها.

عدى بن حاتم الطائى:

ولما ارتدت العرب إلا أهل المسجدين، ومن بينهما وأناساً من العرب، قدم عدى بن حاتم بإبل الصدقة إلى أبى بكر رضى اله تعالى عنه.

علته:

وكان أبو بكر رضى الله عنه قد سمته اليهود فى شئ من الطعام، وأكل معه الحارث بن كلدة فعمى، وكان السم لسنة، ومرض أبو بكر قبل وفاته بخمسة عشر يوماً.

كلام له :

ولما احتضر قال : ما آسَى على شىء إلا على ثلاث فعلتها وددت أنى تركتها، وثلاث تركتها وددت أنى فعلتها، وثلاث وددت أنى سألت رسول الله ﷺ عنها؛ فأما الثلاث التى فعلتها، وددت أنى تركتها فوددت أنى لم أكن فتشت بيت فاطمة، وذكر فى ذلك كلاماً كثيراً، ووددت أنى لم أكن حرقت الفجاءة وأطلقته نجيحا أو قتلته صريحاً، ووددت أنى يوم سقيفة بنى ساعدة قذفت الأمر فى عنق أحد الرجلين فكان أميراً وكنت وزيراً، والثلاث التى تركتها ووددت أنى فعلتها ددت أنى يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيراً ضربت عنقه؛ فإنه قد خيل لى أنه لا يرى شَرا إلا أعانه، وودت أنى كنت قد قذفت المشرق بعمر بن الخطاب، فكنت قد بسطت يمينى وشمالى فى سبيل الله، وودت أنى يوم جهزت جيش الردة ورجعت أقمت مكانى فإن سلم المسلمون سلموا، وإن كان غير ذلك كنت صدر اللقاء أو مدداً، وكان أبو بكر قد بلغ مع الجيش إلي مرحلة من المدينة، وهو الموضع المعروف بذى القصة، والثلاث التى وددت أنى سألت رسول الله

ﷺ عنها وددت أنى كنت سألته فى من هذا الأمر؛ فلا ينازع الأمر أهله، ووددت أنى سألته عن ميراث العمة وبنت الأخ فإن بنفسى منهما حاجة، ووددت أنى سألته هل للأنصار فى هذا الأمر نصيب فنعطيهم إياه.

بناته:

وخلف من البنات : أسماء ذات النطاقين، وهى أم عبد الله بن الزبير، وعمرت مائة سنة حتى عميت، وعائشة زوج النبى ﷺ .

بيعة على إياه:

وقد تنوزع فى بيعة على بن أبى طالب إياه : فمنهم من قال : بايعه بعد موت فاطمة بعشرة أيام، وذلك بعد وفاة النبى ﷺ بنيف وسبعين يوماً، وقيل : بثلاثة أشهر، وقيل : ستة، وقيل غير ذلك.

و صيته لأمراء جيشه:

ولما أنفذ أبو بكر الأمراء إلى الشام كان فيما أوصى به يزيد بن أبى سفيان وهو مُشيع له، فقال له: إذا قدمت على أهل عملك فعدهم الخير وما بعده، وإذا وعدت فأنجز، ولا تكثرن عليهم الكلام، فإن بعضه ينسى بعضاً، وأصلح نفسك يصلح الناس لك، وإذا قدمت عليك رسل عدوك فاكرم منزلتهم، فإنه أول خيرك إليهم، وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك،وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت الذى تلى كلامهم،

ولا تجعل سرك مع علانيتك فيمرج عملك، وإذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة، ولا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك، وإذا بلغك عن العدو عورة فاكتمها حتى تعاينها، واستر فى عسكرك الأخبار وأذك حرسك،

وأكثر مفاجأتهم فى ليلك ونهارك، وأصدق اللقاء إذا لقيت، ولا تجبن فيجبن من سواك.

الفتن :

وفى أيامه خرج منها خبر العنسى الكذاب المعروف بعيهلة، باليمن وصنعاء، وتنبئ وقتل، وفيروز، وغيره وطليحة وسجاح بنت الحارث بن سويد، وقيل: بنت غطفان وتكنى أم صادر.

وقد كانت مع ادعائها النبوة مكذبة بنبوة مسيلمة الكذاب، ثم آمنت بنبوته، وكانت قبل ادعائها النبوة متكهنة تزعم أن سبيلها سبيل سطيح وابن سلمة والمأمون الحارثى، وعمرو بن لحى، وغيرهم من الكهان، وصارت إلى مسيلمة فنكحها، وما كان من خبر مسيلمة كذاب اليمامة، وحربه لخالد بن الوليد، وقتل وحشى له مع رجل من الأنصار، وذلك فى سنة إحدي عشرة، وما كان من أمره مع الأنصار فى يوم سقيفة بنى ساعدة والمهاجرين ، وقول المنذر بن الحباب: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة، وقصة سعد بن عبادة، وما كان من بشر بن سعد، وتخلى الأوس عن معاضدة سعد خوفاً أن يفوز بها الخزرج، وأخبار من قعد عن البيعة ومن بايع، وما قالت بنو هاشم، وما كان من قصة فدك، وما قاله أصحاب النص والاختيار فى الإمامة، ومن قال بإمامة المفضول وغيره، وما كان من فاطمة وكلامها متمثلة حين عدلت إلى قبر أبيها عليه السلام .

خلافة عمر بن الخطاب

(رضى الله عنه)

وبويع عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فلما أن دخلت سنة ثلاث وعشرين خرج حاجا، فأقام الحج فى تلك السنة، ثم أقبل حتى دخل المدينة، فقتله فيروز أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة تمام سنة ثلاث وعشرين، فكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليالٍ ، وقتل فى صلاة الصبح، وهو ابن ثلاث وستين سنة، ودفن مع النبى ﷺ وأبى بكر ، عند رجلى النبى ﷺ ، وقيل: إن قبورهم مسطرة: أبو بكر إلى جنب النبى ﷺ ، وعمر إلى جنب أبى بكر، وحج في خلافته تسع حجج، وبعد أن قُتل صلى بالناس عبد الرحمن بن عوف، وجعلها شورى إلى ستة، وهم : علىَ، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، وصلى عليه صُهيب الرومى، وكانت الشورى بعد ثلاثة أيام.

نسبه وأخباره وسيره

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قُرط بن رياح بن عبد الله ابن رزاح بن عدى بن كعب، وفى كعب يجتمع نسبه مع نسب النبى ﷺ ، وأمه حَنتمة بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكانت سوداء، وإنما سمى الفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل، وكنيته أبو حفص، وهو أول من سمى بأمير المؤمنين، سماه عدىّ بن حاتم، وقيل غيره، والله أعلم، وكان أول من سلم عليه بها المغيرة بن شعبة، وأول من دعا له بهذا الاسم على المنبر أبو موسى الأشعرى وأبو موسى أول من كتب إليه: لعبد الله عمر أمير المؤمنين،

من أبى موسى الأشعرى فلما قرىء ذلك على عمر قال : إنى لعبد الله وإنى لعمر وإنى لأمير المؤمنين، والحمد لله رب العالمين.

صفاته :

وكان متواضعاً، خشن الملبس، شديداً فى ذات الله، واتبعه عماله فى سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه، كل يتشبه به من غاب أو حضر، وكان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم وغيره، ويشتمل بالعباءة ، ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رزقها، وكان أكثر ركابه الإبل، ورحله مشدودة بالليف، وكذلك عماله، مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال.

عماله:

وكان من عماله سعيد بن عامر بن خريم فشكاه أهل حمص إليه وسألوه عزله ، فقال عمر : اللهم لا تُفل فراستى فيه اليوم وقال لهم : ماذا تشكون منه ؟ قالوا: لايخرج إلينا حتى يرتفع النهار، ولا يجيب أحداً بليل، وله يوم فى الشهر لايخرج إلينا ، فقال عمر: علىّ به، فلما جاء جمع بينهم وبينه، فقال ماتنقمون منه؟ قالوا: لايخرج إلينا حتى يرتفع النهار، فقال : ما تقول ياسعيد؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنه ليس لأهلى خادم، فأعجن عجينى، ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزى، ثم أتوضأ وأخرج إليهم، قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا: لا يجيب بليل، قال : قد كنت أكره أن أذكر هذا ، إنى جعلت الليل كله لربى، وجعلت النهار لهم، قال : وماذا تنقمون منه ؟ قالوا: له يوم فى الشهر لايخرج إلينا فيه، قال : نعم، ليس لى خادم فأغسل ثوبى ثم أجففه فأمسى، فقال عمر: الحمد لله الذى لم يُفل فراستى فيك ، يا أهل حمص، استوصُوا بواليكم خيراً، قال : ثم بعث إليه عمر

بألف دينار، وقال : استعن بها، فقالت له امرأته: قد أغنانا الله عن خدمتك، فقال لها : ألا ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما كنا إليه؟ قالت : بلى، فصرها صررا ثم دفعها إلى من يثق به، وقال : انطلق بهذه الصرة إلى فلان، وبهذه إلى يتيم بنى فلان، وهذه إلى مسكين بنى فلان، حتى بقى منها شىء يسير، فدفعه إلى امرأته، وقال : أنفقى هذا، ثم عاد إلى خدمته، فقالت له امرأته: ألا تبعث إلى بذلك المال فنشترى لنا منه خادماً؟ فقال : سيأتيك أحوج ما تكونين إليه.

سلمان الفارسى:

ومن عماله على المدائن سلمان الفارسى، وكان يلبس الصوف، ويركب الحمار ببرذعته بغير إكاف، ويأكل خبز الشعير، وكان ناسكا زاهداً، فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن وقاص: أوصنى يا أبا عبد الله قال : نعم قال :

الله عندهمك إذا هممت ، وعند لسانك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت، فجعل سلمان يبكى، فقال له: يا أبا عبد الله ما يبكيك؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إن في الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون" وأرى هذه الأساودة حولى، فنظروا فلم يجدوا فى البيت إلا إداوة وركوة ومطهرة.

أبو عبيدة:

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح، وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى،فعذل على ذلك، وقيل له : إنك بالشام ووالى أمير المؤمنين وحولنا الأعداء، فغير من زيك، وأصلح من شارتك، فقال : ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله ﷺ.

عمر يحرض على الجهاد:

وذكر الواقدى فى كتابه فى فتوح الأمصار أن عمر قام فى المسجد، فحمد الله وأثنى عيه، ثم دعاهم إلى الجهاد وحثهم عليه وقال : إنكم قد أصبحتم فى غير دار مقام بالحجاز، وقد وعدكم النبىﷺ فتح بلاد كسرى وقيصر؛ فسيروا إلى أرض فارس، فقام أبو عبيد فقال: يا أمير المؤمنين أنا أول من انتدب من الناس، فلما انتدب أبو عبيد انتدب الناس، وقيل لعمر: أمر على الناس رجلا من المهاجرين أو الأنصار، فقال: لا أؤمر عليهم إلا أول من انتدب فأمر أبا عبيد، وفى حديث آخر أنه قيل له: أتؤمر رجلا من ثقيف على المهاجرين والأنصار؟

فقال : كان أول من انتدب فوليته، وقد أمرته أن لا يقطع أمراً دون مسلمة بن أسلم بن حريش وسليط بن قيس، وأعلمته أنهما من أهل بدر، وخرج فلقى جمعاً من العجم عليهم رجل يقال له جالينوس، فانهزم، وسار أبو عبيد حتى عبر الفرات، وعقد له بعض الدهاقين جسراً، فلما خلف الفرات وراءه أمر بقطع الجسر، فقال له مسلمة بن أسلم : أيها الرجل، إنه ليس لك علم بما نرى، وأنت تخالفنا، وسوف يهلك من معك من المسلمين بسوء سياستك، تأمر بجسر قد عقد أن يقطع فلا يجد المسلمون ملجأ من هذه الصحارى والبرارى فلا تريد إلا أن تهلكهم فى هذه القطعة فقال : أيها الرجل، تقدم فقاتل فقد حُم ماترى، وقال سليط : إن العرب لم تلق مثل جمع فارس قط، ولا كان لهم بقتالهم عادة، فاجعل لهم ملجأ ومرجعاً من هزيمة إن كانت، فقال : والله لا فعلت جبنت ياسليط، فقال سليط: والله ما جبنت، وأنا أجرأ منك نفساً وقبيلا، ولكن والله أشرت بالرأى، فلما قطع أبو عبيد الجسر والتحم الناس واشتد القتال نظرت العرب إلى الفيلة

عليها التجيافيف فرأوا شيئاً لم يروا مثله قط، فانهزم الناس جميعاً، ثم مات فى الفرات أكثر ممن قتل بالسيف ، وخالف أبو عبيد سليطاً ، وقد كان عمر أوصاه أن يستشيره ، ولا يخالفه، وكان رأى سليط أن لا يعبر حتى يعبروا إليه، ولا يقطع الجسر، فخالفه ، وقال سليط فى بعض قوله: لولا أنى أكره خلاف الطاعة لانحزت بالناس، ولكنى أسمع وأطيع، وإن كنت قد أخطأت وأشركنى عمر معك، فقال له أبو عبيد : تقدم أيها الرجل، فقال : افعل، فتقدما فقتلا جميعاً، وقد كان أبو عبيد فى هذا اليوم ترجل، وقد قتل من الفرس نحو ستة آلاف، فدنا من الفيل ورمحه فى يده فطعنه فى عينه، فخبط الفيل أبا عبيد بيده، وجال الناس، وتراجعت رجال فارس، فأخذ الناس السيف لما قتل أبو عبيد، وبادر رجل من بكر بن وائل والمثنى بن حارثة فحمى الناس حتى عقدوا الجسر فعبروا ومعهم المثنى حارثة، وقد فقد من الناس أربعة آلاف غرقاً وقتلا، وكان على جيش فارس فى هذا اليوم جاذويه، ومعه راية فارس التى كانت لأفريدون، حتى ثار الناس من الوهاد، وهى المعروفة بدرفش كلويان وكانت من جلود النمور طولها اثنا عشر ذراعا فى عرض ثمانية أذرع على خشب طوال موصل، وكانت فارس تقيمن بها وتظهرها فى الأمر الشديد.

ولما قتل أبو عبيد الثقفى بالجسر شق ذلك على عمر وعلى المسلمين ، فخطب عمر الناس وحثهم على الجهاد، وأمرهم بالتأهب لأرض العراق، وعسكر عمر بصرار وهو يريد الشخوص، وقد استعمل على مقدمته طلحة بن عبيد الله، وعلى ميمنته الزبير بن العوام، وعلي ميسرته عبد الرحمن بن عوف ، ودعا الناس، فاستشارهم فأشاروا عليه بالسير، ثم قال لعلى: ما ترى يا أبا الحسن، أسير أم أبعث؟ قال : سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له، فخرج من عنده ،

فدعا العباس فى جلة من مشيخة قريش وشاورهم، فقالوا: أقم وأبعث غيرك ليكون للمسلمين إن انهزموا فئة، وخرجوا، فدخل إليه عبد الرحمن بن عوف، فاستشاره، فقال عبد الرحمن: فُديت بأبى وأمى، أقم وابعث ، فإنه إن انهزم جيشك فليس ذلك كهزيمتك، وإنك إن تُهزم أو تُقتل يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله إلا الله أبداً، قال : أشر عَلَى من أبعث؟ قال : قلت : سعد بن أبى وقاص، قال عمر: أعلم أن سعداً رجل شجاع، ولكنى أخشى أن لايكون له معرفة بتدبير الحرب، قال عبد الرحمن : هو على ما تصف من الشجاعة، وقد صحب رسول الله ﷺ وشهد بدراً فاعهد إيه وشاورنا فيما أردت أن تحدث إليه، فإنه لن يخالف أمرك، ثم خرج فدخل عثمان عليه، فقال له : يا أبا عبد الله أشر على أسير أم أقيم؟ فقال عثمان: أقم يا أمير المؤمنين وابعث بالجيوش، فإنه لا آمن إن أتى عليك آت أن ترجع العرب عن الإسلام، ولكن ابعث الجيوش وداركها بعضها على بعض، وأبعث رجلا له تجربة بالحرب وبصر بها، قال عمر: ومن هو؟ قال : على بن أبى طالب، قال : فالقه وكلمه وذاكره ذلك، فهل تراه مسرعاً إليه أو لا، فخرج عثمان فلقى علياً فذاكره ذلك، فأبى على ذلك وكرهه، فعاد عثمان إلى عمر فأخبره، فقال له عمر: ومن ترى ؟ قال : سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل: قال : ليس بصاحب ذلك، قال عثمان : طلحة بن عبيد الله، قال له عمر: أين أنت من رجل شجاع ضروب بالسيف رام بالنبل ، ولكنى أخشى أن لا يكون له معرفة بتدبير الحرب ؟ قال : ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال : سعد ابن أبى وقاص : فقال عثمان: هو صاحب ذاك؛ ولكنه رجل غائب وما منعنى من ذكره إلا أنى قلت : رجل غائب فى عمل ، فقال عمر: أرى أن أوجهه، وأكتب إليه أن يسير من وجهه ذلك، فقال عثمان: ومُره فليشاور قوماً من أهل التجربة

والبصر بالحرب، ولا يقطع الأمور حتى يشاورهم، ففعل عمر ذلك وكتب إلى سعد بالتوجه نحو العراق.

وقد كان جرير بن عبد الله البجلى قدم على عمر- وقد اجتمع إليه بجيلة فسرحهم نحو العراق، وجعل لهم ربع ما ظهروا عليه من السواد، وساهمهم مع المسلمين، وخرج عمر فشيعهم، ولحق جرير بناحية الأبلة ثم صاعد إلى ناحية المدائن، ونمى قدوم جرير إلى مرزبان المدائن وكان فى عشرة آلاف من فارس من الأساورة، وذلك بعد يوم الجسر ومقتل أبى عبيد وسليط، فقال بجيلة لجرير: أعبر الدجلة إلى المدائن، فقال جرير: ليس ذلك بالرأى، وقد مضى لكم فى ذلك عبرة بمن قتل من أخوانكم يوم الجسر، ولكن أمهلوا القوم ؛ فإن جمعهم كثير حتى يعبروا إليكم، فإن فعلوا فهو الظفر إن شاء الله تعالى ، فأقامت الفرس أياماً بالمدائن،

ثم أخذوا فى العبور، فلما عبر منهم النصف أو نحوه حمل عليهم جرير فيمن تسرع معه من بجيلة، فثبتوا ساعة، فقتل المرزبان، وأخذهم السيف، وغرق أكثرهم فى دجلة، وأخذ المسلمون ماكان فى عسكرهم، وسار جرير فاجتمع مع المثنى بن حارثة الشيبانى بالبجلة، فأقبل إليهما مهران فى جيوشه، فامتنع المسلمون من العبور إليهم، فعبر مهران وبغى على المسلمين، فالتقوا وصبر الفريقان جميعاً حتى قتل مهران قتله جرير بن عبد الله البجلي وحسان بن المنذر بن ضرار الضبى، ضربه البجلى، وطعنه الضبى، وفاز جرير بمنطقته وسلبه وتنازع جرير وحسان فى أيهما قاتل لمهران، وقد كان جرير ضربه بعد أن طعنه حسان.

وقد تنازع أهل الأخبار والسير فى جرير والمثنى: فمن الناس من ذهب إلى أن جريراً كان هو المولى على الجيش، ومنهم من رأى أن جريراً علي قومه والمثنى على قومه.

ولما قتل مهران أعظمت الفرس ذلك، وسار شيرازاد فى جمع فارس الأعظم وكنيته بوران؛ وقد كانت جمهرة الأساورة تقدمت وتقدم أمامهم رستم، فتنحى المسلمون لما بلغهم مسيره ، فلحق جرير بكاظمة فنزلها ، وسار المثنى بقومه من بكر بن وائل فنزل بسيراف، وبها آبار كثيرة بين الكوفة وزبالة على ثلاثة أميال من المنزل المعروف بواقصة، وكان المثنى قد أصيب بجراحات كثيرة فى بدنه يوم الجسر وغيره فمات بسيراف، رحمه الله تعالى!.

سعد بن أبى وقاص :

ولما ورد كتاب عمر على سعد بن أبى وقاص نزل زبالة على حسب ما أمره به عمر، ثم أتى سيراف، وأتاه الناس من الشام وغيرها، ثم سار فنزل العذيب وهو على فم البر وطرف السواد مما يلى القادسية، فالتقى جيش المسلمين وجيش الفرس وعليهم رستم، والمسلمون يومئذ فى ثمانية وثمانين ألفا وقيل: إن من أسهم له ثلاثون ألفا والمشركون فى سنتين ألفا، أمام جيوشهم الفيلة عليها الرجال، وحرض الناس بعضهم بعضاً، وبرز أهل النجدات، فأنشبوا القتال، وخرج إليهم أقرانهم من صناديد فارس، فاعتوروا الضرب والطعن، وخرج غالب بن عبد الله الأسدى فى من خرج ذلك اليوم .

فخرج إليه هرمز- وكان من ملوك الباب والأبواب، وكان متوجاً - فأسره غالب أسراً، فأتى به سعداً، وكر راجعاً إلى المطاردة، وحمى الوطيس.

فبرز إليه عظيم من أساورتهم، فجالا، ثم إن الفارسى ولى، واتبعه عاصم حتى لجأ إلى صفوفهم ، وعموه، وغاص عاصم بينهم حتى أيس الناس منه، ثم خرج فى مجنبات القلب، وقدامه بغل عليه صناديق موكبية بآلة حسنة، فأتى به سعد بن مالك وعلى البغل رجل عليه مقطعات ديباج وقلنسوة مذهبه، وإذا هو خباز الملك، وفى الصناديق لطائف الملك من الأخبصة والعسل المعقود، فلما نظر إليه سعد قال: انطلقوا به إلى أهل موقفه، وقولوا: إن الأمير قد نفلكم هذا فكلوه ففعلوا.

أيام القادسية:

وكانت وقعة القادسية فى المحرم سنة أربع عشرة، ومال من الفيلة سبعة عشر فيلا على كل فيل عشرون رجلا، وعلى الفيلة تجافيف الحديد والقرون مجللة بالديباج والحرير نحو بجيلة، وحول الفيلة الرجال والخيول، فبعث سعد إلى بنى أسد لما نظر إلي المراكب والفيول قد مالت إلى بجيلة، فأمرهم بمعونتهم، ومالت عشرون فيلا نحو القلب، فخرج طلحة بن خويلد الأسدى مع فرسان بنى أسد فقتل منهم خمسمائة رجل سوى من قتل من غيرهم فباشروا قتال الفيلة حتى أوقوفها، واشتد الجلاد على بنى أسد فى هذا اليوم من سائر الناس، وهذا اليوم يعرف بيوم أغواث.

فلما أصبح الناس فى اليوم الثانى أشرف على الناس خيول المسلمين من الشام، والأمداد سائرة قد غطت بأسنتها الشمس عليها هاشم بن عتبة بن أبى وقاص فى خمسة آلاف فارس من بنى ربيعة ومضر وألف من اليمن ، ومعهم القعقاع بن عمرو، وذلك بعد فتح دمشق بشهر، وقد كان عمر رضى الله عنه كتب إلى أبى عبيدة بن الجراح بصرف أصحاب خالد بن الوليد إلى العراق، ولم

يذكر فى كتابه خالداً، فشح أبو عبيدة بتخلية خالد عن يده، وبعث برجاله وعليهم هاشم بن عتبة، وقد كان فى نفس عمر على خالد أشياء من أيام أبى بكر فى قصة مالك بن نويرة، وغير ذلك، وكان خالد بن الوليد خال عمر، فتقدم القعقاع إلى أوائل المدد، فأيقن أهل القادسية بالنصر على فارس، وزال عنهم ما لحقهم بالأمس من القتل والجراح، وبرز القعقاع حين وروده أمام الصف ونادى : هل من مبارز ؟ فبرز إليه عظيم منهم: فقال له القعقاع : من أنت؟ قال : أنا بهمن بن جاذويه، وهو المعروف بذى الحاجب ، فنادى القعقاع: يالثارات أبى عبيد وسليط وأصحابهم يوم الجسر!! وقد كان ذو الحاجب مبارزاً لهم فجالا، فقتله القعقاع، ويقال : إن القعقاع قتل فى ذلك اليوم ثلاثين رجلا فى ثلاثين حملة، كل حملة يقتل فيها رجلا، وكان آخر من قتل عظيما من عظمائهم يقال له بزرجمهر.

وبارز فى ذلك اليوم الأعور بن قطبة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه .

واعتل سعد فتخلف في حصن العذيب، وجلس فى أعلاه يشرف على الناس، وقد تواقف الفريقان جميعاً، وأمسى الناس ينتمون، فلما سمع ذلك سعد قال لمن كان عنده فى أعلى القصر: إن تم الناس على الانتماء فلا توقظونى فإنهم أقوياء على عدوهم، وإن سكتوا فأيقظونى فإن ذلك شر، واشتد القتال فى الليل.

أبو محجن الثقفى:

وكان أبو محجن الثقفى محبوساً فى أسفل القصر، فسمع انتماء الناس إلى آبائهم وعشائرهم، ووقع الحديد وشدة البأس، فتأسف على ما يفوته من تلك

المواقف، فحبا حتى صعد إلى سعد يستشفعه ويستقيله، ويسأله أن يخلى عنه ليخرج، فزجره سعد ورده، فانحدر راجعاً، فنظر إلي سلمى بنت حفصة زوجة المثنى بن حارثة الشيبانى، وقد كان سعد تزوجها بعده، فقال : يابنت حفصة، هل لك في خير؟ فقالت : وما ذاك؟ قال : تخلين عنى وتعيرنى البلقاء ولله علىَّ إن سلمنى الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى القيد، فقالت: وما أنا وذلك؟ فرجع يرسف فى قيده.

فقالت سلمى : إني استخرت الله ورضيت بعهدك ، فأطلقته، وقالت: شأنك وما أردت، فاقتاد بلقاء سعد، وأخرجها من باب القصر الذى يلى الخندق، فركبها ثم دب عليها، حتى إذا كان بحيال ميمنة المسلمين كبر، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين، فأوقف ميسرتهم وقتل رجالا كثيراً من فُتاكهم، ونكس آخرين ، والفريقان يرمقونه بأبصارهم، وقد تنوزع فى البلقاء فمنهم من قال : إنه ركبها عُريا، ومنهم من قال : بل ركبها بسرج، ثم غاص في المسلمين، فخرج فى ميسرتهم، وحمل على ميمنة القوم فأوقفهم، وجعل يلعب برمحه وسلاحه لا يبدو له فارس إلا هتكه، فأوقفهم، وهابته الرجال، ثم رجع فغاص فى قلب المسلمين، ثم برز أمامهم ووقف بإزاء قلب المشركين، ففعل مثل أفعاله فى الميمنة والميسرة، وأوقف القلب حتى لم يبرز منهم فارس إلا اختطفه، وحمل عن المسلمين الحرب، فتعجب الناس منه، وقالوا: من هذا الفارس الذى لم نره فى يومنا؟ فقال بعضهم : هو ممن قدم علينا من إخواننا من الشام من أصحاب هاشم بن عتبة ، وقال بعضهم : إن كان الخضر عليه السلام يشهد الحرب فهذا هو الخضر قد من الله به علينا وهو نصرنا على عدونا، وقال قائل منهم: لولا أن الملائكة لا تباشر الحروب لقلنا إنه ملك، وأبو

محجن كالليث الضرغام قد هتك الفرسان كالعقاب يجول عليهم، ومن حضر من فرسان المسلمين مثل عمرو بن معد يكرب وطلحة بن خويلد والقعقاع بن عمرو وهاشم بن عتبة المرقال وسائر فُتاك العرب وأبطالها ينظرون إليه ، وقد حاروا فى أمره، وجعل سعد يفكر ويقول وهو مُشرف على الناس من فوق القصر: والله لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء، فلما انتصف الليل تحاجز الناس، وتراجعت الفرس على أعقابها وتراجع المسلمون إلى مواضعهم على بقيتهم ومصافهم، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر من حيث خرج ولا يعلم به، ورد البلقاء إلى مربطها وعاد فى محبسه ووضع رجله فى القيد.

فقالت له سلمى: يا أبا محجن، فى أى شئ حبسك هذا الرجل؟ تعنى سعداً، قال : والله ما حبسنى بحرام أكلته ولا شربته، ولكنى كنت صاحب شراب في الجاهلية، وأنا أمرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى فأصف الكرمة والعنب وتداخلنى أريحية فألتذ بمدحى إياها ، لأنى قلت فيها :

إذا مت فادفننى إلى جنب كرمة   تروى عظامى بعد موتى عروقها

ولا تدفنــنى بالفـــلاة فإننـــى   أخـاف إذا مـت أن لا أذوقهـا

وقد كان بين سلمى وسعد كلام كثير أوجب غضبه عليها، لذكرها المثنى عند مختلف القنا، فأقامت مغاضبة له عشية أغواث وليلة الهرير وليلة السواد، حتى إذا أصبحت آتته فترضته وصالحته، ثم أخبرته خبرها مع أبى محجن، فدعا به، فأطلقه وقال : اذهب فما أنا مؤاخذك بشىء تقوله حتى تفعله، قال : لا جرم والله لا أجبت لسانى إلى صفة قبيح أبداً.

يوم عماس:

وأصبح الناس فى اليوم الثالث وهم على مصافهم، وهو يوم عماس، وأصبحت الأعاجم على مواقفها، وأصبح بين الفريقين كالرجلة الحمراء- يعنى الحرة- فى عرض مابين الصفين، وقد قتل من المسلمين ألفان وخمسمائة مابين رثيث (جريح) وميت، وقتل من الأعاجم مالا يحصى ، فقال سعد : أيها الناس، من شاء غسل الشهيد الميت والرثيث، ومن شاء فليدفنهم بدمائهم، وأقبل المسلمون على قتلاهم فأحرزوهم وجعلوهم وراء ظهورهم، وكان النساء والصبيان يدفنون الشهيد ويحملون الرثيث إلى النساء ويعالجونهم من كلومهم (جروحهم)، وكان بين موضع الوقعة مما يلى القادسية وبين حصن العذيب نخلة، فإذا حمل الجريح وفيه تمييز وعقل ونظر إلى تلك النخلة - ولم يكن هناك يومئذ نخلة غيرها، قال لحامله: قد قربت من السوداء، فأريحونى تحت ظل هذه النخلة، فيراح تحتها ساعة،

وأصبح الناس صبيحة يوم القادسية، وهى صبيحة ليلة الهرير، وهى : تسمى ليلة القادسية من تلك الأيام، والناس حيارى ولم يغمضوا ليلتهم كلها، وحرض رؤساء القبائل عشائرهم، واشتد الجلاد إلى أن جاء وقت الزوال ، فكان أول من زال حين قام قائم الظهيرة الهرمزان والنير مران، فتأخرا، وثبتا حيث انتهيا، وانفرج القلب حين قام قائم الظهيرة، وهبت ريح عاصف فقطعت طيارة رستم عن سريره، فهوت فى نهر العتيق والريح دبور، فمال الغبار عليهم وانتهى القعقاع وأصحابه إلى سرير رستم فعثروا به وقد قام رستم عنه حين طارت الريح بالطيارة إلى بغال قد قدمت عليهم بمال يومئذ فهى واقفة فاستظل فى ظل بغل منها وحمله، وضرب هلال بن علقمة الحمل الذى رستم فى ظله فقطع

حباله، ووقع على رستم أحد العدلين ولا يراه هلال ولا يشعر به، فأزال من ظهره فقارة وضربه هلال ضربة فنفحت مسكا، ومضى رستم إلى نحو نهر العتيق فرمى بنفسه فيه، واقتحم هلال عليه فتناولة برجله، ثم خرج به إلى الخندق وضربه بالسيف حتى قتله، ثم جاء به يجره حتى رماه بين أرجل البغال وصعد السرير ونادى : قتلت رستم ورب الكعبة ، إلىَّ إلىَّ، فطاف به الناس لايحسون السرير ولا يرونه، وتنادوا، وتجبنت قلوب المشركين عندها وانهزموا وأخذهم السيف، فمن غريق وقتيل، وقد كان ثلاثون ألفاً منهم قرنوا أنفسهم بعضهم إلى بعض بالسلاسل والحبال وتحالفوا بالنور وبيوت النيران لا يبرحون حتى يقتحموا أو يقتلوا، فجثوا على الركب، وقرع بين أيديهم قناديل النشاب، فقتل القوم جميعاً.

وقد تنوزع فيمن قتل رستم: فذهب الأكثر إلى أن قاتله هلال بن علقمة من تيم الرباب ، ومنهم من رأى أن قاتله رجل من بنى أسد.

وأخذ ضرار بن الخطاب فى ذلك اليوم من فارس الراية العظمى المقدم ذكرها أنها من جلود النمور المعروفة بدرفش كاويان، وكانت مرصعة بالياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر، فعوض منها بثلاثين ألفاً، وكانت قيمتها ألفى ألف ومائتى ألف، وقتل فى ذلك اليوم حول هذه الراية - وغيرهم - عشرة آلاف.

تحديد تاريخ القادسية:

وقد تنازع الناس ممن سلف وخلف فى عام القادسية والعذيب؛ فذهب كثير من الناس إلى أن ذلك كان فى سنة ست عشرة، وهذا قول الواقدى عن آخرين من الناس، ومنهم من ذهب إلى أن ذلك كان فى سنة خمس عشرة،

ومنهم من رأى أنه كان فى سنة أربع عشرة، والذى قطع عليه محمد بن إسحاق أنها كانت في سنة خمس عشرة،

وقال : فى سنة أربع عشرة أمر عمر بن الخطاب بالقيام فى شهر رمضان لصلاة التراويح والذين ذهبوا إلى أن وقعة القادسية كانت فى سنة أربع عشرة احتجوا بهذه الرواية، وكتب عمر إلى الأمصار بإقامة صلاة التراويح ، وذهب كثير من الناس منهم المدائنى وغيره أن عمر أنفذ عتبة بن غزوان فى سنة أربع عشرة إلى البصرة فنزلها ومصرها، وذهب كثير من الناس أنها مُصرت فى ربيع سنة ست عشرة، وأن عتبة بن غزوان إنما خرج إليها من المدائن بعد فرا غ سعد بن أبي وقاص من حرب جلولا، وتكريت وأن عتبة قدم البصرة وهى يومئذ تدعى أرض الهند وفيها حجارة بيض فنزل موضع الخريبة، ومصر سعد بن أبي وقاص الكوفة فى سنة خمس عشرة، ودلهم علي موضعها ابن نفيلة الغسانى ، وقال سعد: أدلك على أرض ارتفعت عن البر وانحدرت عن الفلاة، فدله على موضع الكوفة اليوم.

أبو لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة:

قال المسعودى: وكان عمر لايترك أحداً من العجم يدخل المدينة، فكتب إليه المغيرة بن شعبة: إن عندى غلاماً نقاشاً نجاراً حداداً فيه منافع لأهل المدينة، فإن رأيت أن تأذن لى فى الإرسال به فعلت ، فأذن له، وقد كان المغيرة جعل عليه كل يوم درهمين، وكان يدعى أبا لؤلؤة، وكان مجوسياً من أهل نهاوند ، فلبث ما شاء الله، ثم أتى عمر يشكو إليه ثقل خراجه، فقال له عمر: وما تحسن من الأعمال؟ قال : نقاش نجار حداد، فقال له عمر: ما خراجك بكثير فى كنه ما

تحسن من الأعمال، فمضى عنه وهو يتذمر، قال : ثم مر بعمر يوماً آخر وهو قاعد، فقال له عمر: ألم أحدث عنك أنك تقول: لو شئت أن أصنع رَحاً تطحن بالريح لفعلت، فقال أبو لؤلؤة: لأصنعن لك رحا يتحدث الناس بها، ومضى أبو لؤلؤة ، فقال عمر: أما العلج (الكافر) فقد توعدنى آنفاً، فلما أزمع بالذى أوعد به، أخذ خنجراً فاشتمل عليه ثم قعد لعمر فى زاوية من زوايا المسجد فى الغلس، وكان عمر يخرج فى السحر فيوقظ الناس للصلاة، فمر به، فثار إليه فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت سرته وهى التى قتله، وطعن اثنى عشر رجلا من أهل المسجد فمات منهم ستة وبقى ستة، ونحر نفسه بخنجر ، فمات ، فدخل عليه ابنه عبد الله بن عمر وهو يجود بنفسه، فقال له : يا أمير المؤمنين، استخلف على أمة محمد، فإنه لو جاءك راعى إبلك أو غنمك وترك إبله أو غنمه لا راعى لها للمته وقلت له : كيف تركت أمانتك ضائعة؟ فكيف يا أمير المؤمنين بأمة محمد؟ فاستخلف عليهم، فقال : إن أستخلف عليهم فقد استخلف عليهم أبو بكر، وإن أتركهم فقد تركهم رسول الله ﷺ ، فيئس منه عبد الله حين سمع ذلك منه.

وكان إسلام عمر قبل الهجرة بأربع سنين وكان يخضب بالحناء والكتم.

أولاد عمر:

وكان له من الولد : عبد الله ، وحفصة زوج النبى ﷺ ، وعاصم، وعبيد الله، وزيد، من أم ، وعبد الرحمن ، وفاطمة، وبنات أخر، وعبد الرحمن الأصغر- وهو المحدود فى الشراب، وهو المعروف بأبى شحمة - من أم.

عمر وابن عباس :

وذكر عبد الله بن عباس أن عمر أرسل إليه فقال : يا ابن عباس، إن عامل حمص هلك، وكان من أهل الخير ، وأهل الخيرقليل، وقد رجوت أن تكون منهم، وفى نفسى منك شىء لم أره منك، وأعيانى ذلك، فما رأيك فى العمل؟ قال : لن أعمل حتى تخبرنى بالذى فى نفسك، قال : وما تريد إلي ذلك؟قال : أريده، فإن كان شىء أخاف منه على نفسى خشيت منه عليها الذى خشيت ، وإن كنت بريئاً من مثله علمت أنى لست من أهله، فقبلت عملك هنالك، فإنى قلما رأيتك طلبت شيئا إلا عاجلته، فقال : يا ابن عباس، إنى خشيت أن يأتى علىَّ الذى هو آت وأنت فى عملك فتقول : هلم إلينا، ولا هلم إليكم دون غيركم، إنى رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وترككم، قال : والله قد رأيت من ذلك، فلم تراه فعل ذلك؟ قال : والله ما أدرى أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم، أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العتاب، ولابد من عتاب، وقد فرغت لك من ذلك ، فما رأيك ؟ قال : قلت: أرى أن لا أعمل لك، قال : ولم ؟ قلت : إن عملت لك وفى نفسك مافيها لم أبرح قذى فى عينك، قال : فأشر علىَّ، قلت: إنى أرى أن تستعمل صحيحا منك صحيحا لك.

عمر يستعمل النعمان بن مقرن غازيا لنهاوند:

وذكر علقمة بن عبد الله المزنى، عن معقل بن يسار، أن عمر بن الخطاب شاور الهرمزان فى فارس وإصبهان وأذربيجان، فقال له: أصبهان الرأس، وفارس وأذربيجان الجناحان، فإن قطعت أحد الجناحين ناء الرأس بالجناح الآخر، وإن قطعت الرأس وقع الجناحان، فأبدأ بالرأس، فدخل المسجد فإذا هو بالنعمان ابن مُقرن يصلى، فقعد إلى جنبه، فلما قضى صلاته قال : ما أرانى

إلا مستعملك، قال : أما جابيا فلا، ولكن غازيا، قال : فإنك غاز، فوجهه وكتب إلى أهل الكوفة أن يمدوه، وبعث معه الزبير بن العوام، وعمرو بن معد يكرب، وحذيفة، وابن عمرو، والأشعث بن قيس ، فأرسل النعمان المغيرة بن شعبة إلى ملكهم، وهو يقال له ذو الجناحين، فقطع إليهم نهرهم، فقيل لذى الجناحين: إن رسول العرب هاهنا، فشاور أصحابه، فقال: ما ترون؟ فقالوا: اقعد له فى بهجة الملك أو اقعد له فى هيئة الحرب، فقال : بل أقعد له فى بهجة الملك، فصعد على سريره ووضع التاج على رأسه وأقعد أبناء الملوك سماطين عليهم الأقراط وأسورة الذهب والديباج، وأذن للمغيرة، فأخذ بضبعيه رجلان ومعهم سيفه ورمحه قال: فجعل المغيرة يطعن برمحه فى بُسطهم يخرقها لينظروا فيغضبهم بذلك حتى قام بين يديه وجعل يكلمه والترجمان يترجم بينهما .

فقال : إنكم معشر العرب أصابكم جهد، فإن شئتم أمرنا لكم ورجعتم ، فتكلم المغيرة، فحمدالله وأثنى عليه، ثم قال : إنا معشر العرب كنا أذلة يطؤنا الناس ولا نطؤهم، ونأكل الكلاب والجيف، ثم إن الله تعالى بعث منا نبيا فى شرف منا أوسطنا حسبا وأصدقنا حديثاً، وبعث النبى ﷺ ببعثه، وأخبرنا بأشياء وجدناها كما قال لنا، وإنه وعدنا فيما وعدنا به أنا سنملك ما هاهنا ونغلب عليه ، وإنى أرى هاهنا هيئة وبزة مامَنْ خلفى بتاركيها حتى يصيبوها أو يموتوا، فقالت لى نفسى : لوجمعت جراميزك ووثبت فقعدت مع العلج على سريره حتى يتطير، قال: فوثبت وثبة فإذا أنا معه على سريره، فجعلوا يلكزوننى بأرجلهم ويجذبوننى بأيديهم، فقلت لهم: إنا لا نفعل برُسلكم هكذا، وإن كنت قد فجرت واستخففت فلا تؤاخذونى، فإن الرسل لا يصنع بها هكذا، فقال الملك : إن شئتم قطعنا إليكم وإن شئتم قطعتم إلينا، قلت : بل نقطع إليكم ، فقطعنا

إليهم، قال : فتسلسلوا كل خمسة وستة حتى لا يفروا . فدنونا إليهم فضايقناهم، فرشقونا حتى أشعروا فينا ، فقال المغيرة للنعمان: إنه قد أشرع فى الناس وقد جرحوا ، فلو حملت، فقال النعمان: إنك لذو مناقب، وقد شهدت مع رسول الله ﷺ القتال، وكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر، ثم قال : إنى هاز لوائى ثلاث مرات، فأما أول هزة فليقض الرجل حاجته وليتوضأ، وأما الثانية فلينظر الرجل إلى شسعه وليلزم سلاحه، فإذا هززت الثالثة فاحملوا ولا يلوين أحد على أحد، وإن قتل النعمان، وإنى داع إلى الله بدعوة، وأقسمت على كل امرىء منكم لما أمنَ عليها، وقال : اللهم ارزق النعمان اليوم شهادة فى نصر وافتح عليهم. فأمن القوم. فهز لواءه ثلاثاً، ثم أدنى درعه وحمل ثم حمل الناس فكان أول صريع،

قال معقل: فأتيت عليه فذكرت عزيمته ألا أقف عليه، وأعلمت غلمانه لأعرف مكانه، وأمعنا القتل فيهم ووقع ذو الجناحين عن بغلة له شهباء فانشق بطنه، وفتح الله للمسلمين، فأتيت إلى مكان النعمان فصادفته وبه رمق، فأتيته بإداوة فغسلت وجهه، فقال: منْ هذا؟ قلت : معقل ابن يسار، قال ما فعل الله بالناس؟ قلت : فتح الله عليهم قال: الحمد لله كثيراً اكتبوا بذلك إلى عمر، وفاضت نفسه، واجتمع الناس إلى الأشعث بن قيس، وأرسلوا إلى أم ولده: هل عهد إليك النعمان عهداً له أم عندك كتاب؟ قالت : بل سفط فيه كتاب، فأخرجوه فإذا فيه: إذا قتل النعمان ففلان وإن قتل فلان ففلان، وإن قتل فلان ففلان، فامتثلوا ، وفتح الله على المسلمين فتحاً عظيما .

قال المسعودى رحمه الله: وهذه وقعة نهاوند، وقد كان للأعاجم فيها جمع كثير وقتل هنالك خلق كثير: منهم النعمان بن مقرن ، وعمرو بن معد يكرب،

وغيرهما، وقبورهم إلى هذا الوقت بينة معروفة على نحو فرسخ من نهاوند فيما بينها وبين الدينور.

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى قال : لما قدم عمرو بن معد يكرب من الكوفة على عمر سأله عن سعد بن أبى وقاص ، فقال فيه ما قال من الثناء، ثم سأله عن السلاح، فأخبره بما علم، ثم سأله عن قومه، فقال له : أخبرنى عن قومك مذحج ودع طيئا قال : سلنى عن أيهم شئت، قال : أخبرنى عن علة بن جلد ، قال : هم فرسان أغراضنا، وشُفاة أمراضنا، وهم أعتقنا، وأنجبنا، وأسرعنا طلبا، وأقلنا هربا، وهم أهل السلاح والسماح والرماح، قال عمر: فما أبقيت لسعد العشيرة؟ قال : هم أعظمنا خميسا، وأسخانا نفوساً ، وخيرنا رئيساً ، قال : فما أبقيت لمراد؟ قال : هم أوسعنا داراً، وخيرنا جاراً، وأبعدنا آثاراً، وهم الأتقياء البررة، والساعون الفخرة، قال : فأخبرنى عن بنى زبيد، قال : أنا عليهم ضنين، ولو سألت الناس عنهم لقالوا هم الرأس والناس الأذناب، قال : فأخبرنى عن طئى ، قال : خصوا بالجود، وهم جمرة العرب،

قال : فما تقول فى عبس؟ قال : حجم عظيم، وزبن، أثير، قال : أخبرنى عن حمْيَر، قال : رَعَوُا العفو، وشربوا الصفو، قال : فأخبرنى عن كندة، قال : ساسوا العباد، وتمكنوا من البلاد. قال : فأخبرنى عن همدان. قال : أبناء الليل، وأهل النبل، يمنعون الجار، ويوفون الذمار ويطلبون الثار قال : فأخبرنى عن أزد. قال : هم أقدمنا ميلاداً. وأوسعنا بلاداً، قال : فأخبرنى عن الحارث بن كعب ، قال : هم الحسكة المكسة، تلقى المنايا على أطراف رماحهم. قال : فأخبرنى عن لخم. قال : آخرنا مُلكا، وأولنا هلكا، قال : فأخبرنى عن جذام . قال : أولئك كالعجوز الغبراء، وهم أهل مقال وفعال، قال : فأخبرنى عن غسان. قال أرباب

فى الجاهلية نجوم فى الإسلام، قال : فأخبرنى عن الأوس والخزرج. قال هم الأنصار وهم أعزنا داراً، وأمنعنا ذماراً، وقد كفانا الله مدحهم إذ يقول : والذين تبوؤوا الدار والإيمان- الآية قال ": فأخبرنى عن خزاعة. قال : أولئك مع كنانة لنا نسبهم، وبهم نصرنا قال : فأى العرب أبغض إليك أن تلقاه؟ قال : أما من قومى فوادعة من همدان، وغطيف من مراد، وبلحرث من مذحج، وأما من سعد فعدى من فزارة ومرة من ذبيان، وكلاب من عامر، وشيبان من بكر بن وائل. ثم لو جلت بفرسى على مياه لما خفت هيج أحد مالم يلقنى حُراها وعبداها. قال : ومن حراها ومن عبداها؟ قال : أما حراها فعامر بن الطفيل وعيينة بن الحارث بن شهاب التميمى، وأما عبداها فعنترة العبسى وسليك المقانب.

ثم سأله عن الحرب فقال : سألت عنها خبيراً، هى والله يا أمير المؤمنين مرة المذاق، إذا شمرت عن سباق، من صبر فيها ظفر، ومن ضعف فيها هلك.

ثم سأله عن السلاح، فأخبره بما عرف حتى بلغ الصيف، قال : هنالك قارعتك أمك عن ثكلها، فعلاه عمر بالدرة، وقال : بل أمك قارعتك عن ثكلها، والله إنى لأهم أن اقطع لسانك، فقال عمرو: الحمى أضرعتنى لك اليوم، وخرج من عنده.

قال : فاعتذر عمر إليه، وقال : مافعلت ما فعلته إلا لتعلم أن الإسلام أفضل وأعز من الجاهلية، وفضله على الوفد.

وقد كان عمر آنس عمراً بعد ذلك، وأقبل يسأله ويذاكره الحروب وأخبارها فى الجاهلية، فقال له عمر: ياعمرو ، هل انصرفت عن فارس قط فى الجاهلية هيبة له؟ قال : نعم، والله ما كنت أستحل الكذب فى الجاهلية فكيف أستحله فى

الإسلام؟ لأحدثنك حديثا لم أحدث به أحداً قبلك، خرجت فى جريدة خيل لبنى زبيد أريد الغارة، فأتينا قوما سراة، فقال عمر: وكيف عرفت أنهم سراة؟ قال : رأيت مزاود وقدور مكفأة وقباب أدم حمراً ونعماً كثيراً وشاء ، قال عمرو: فأهويت إلى أعظمها قبة بعدما حوينا السبى، وكان مبتدداً من البيوت، وإذا امرأة بادية الجمال على فرش لها، فلما نظرت إلى وإلى الخيل استعبرت، فقلت: ما يبكيك؟ قالت : والله ما أبكى على نفسى، ولكنى أبكى حسداً لبنات عمى يسلمن وأبتلى أنا من بينهن، فظننت والله أنها صادقة، فقلت لها: وأين هن؟ قالت: فى هذا الوادى، فقلت لأصحابى: لا تحدثوا شيئا حتى آتيكم، ثم همزت فرسى حتى علوت كثيبا، فإذا أنا بغلام أصهب الشعر أهذب أقنى أقب يخصف نعاله وسيفه بين يديه وفرسه عنده، فلما نظر إلى رمى النعل من يده ثم أحضر غير مكترث، فأخذ سلاحه وأشرف على ثنية، فلما نظر إلى الخيل محيطة ببيته ركب ثم أقبل نحوى.

ثم حملت عليه بالفرس فإذا هو أروغ من هر، فراغ عنى، ثم حمل على فضربنى بسيفه ضربة جرحتنى ، فلما أفقت من ضربته حملت عليه، فراغ والله، ثم حمل على ، ثم صرعنى، ثم استاق ما فى أيدينا، ثم استويت على فرسى.

فراغ والله عنى، ثم حمل على فضربنى ضربة أخرى، ثم صرخ صرخة، ورأيت الموت والله يا أمير المؤمنين ليس دونه شىء، وخفته خوفا لم أخف قط أحداً مثله، وقلت له : من أنت ثكلتك أمك ؟؟ فوالله ما اجترأ علىَّ أحد قط إلا عامر بن الطفيل لإعجابه بنفسه، وعمرو بن كلثوم لسنه وتجربته فمن أنت؟ قال : بل مَنْ أنت؟ خبرنى وإلا قتلتك، قلت : أنا عمرو بن معد يكرب، قال : وأنا ربيعة بن مُكدم، قلت : اختر منى إحدى ثلاث خصال: إن شئت اجتلدنا بسيوفنا حتى

يموت الأعجز منا ، وإن شئت اصطرعنا ، وإن شئت السلم، ثم قال : انزل عن فرسك، قلت : يا ابن أخي قد جرحتني جراحتين ولا نزول لى ، فوالله ما كف عنى حتى نزلت عن فرسي، فأخذ بعنانه، ثم أخذ بيدى فى يده وانصرفنا إلى ، الحى وأنا أجر رجلى، حتى طلعت علينا الخيل، فلما رأونى همزوا خيولهم إلى فناديتهم: إليكم، وأرادوا ربيعة، فمضى والله كأنه ليث حتى شقهم، ثم أقبل على فقال : ياعمرو، لعل أصحابك يريدون غير الذى تريد، فصمت والله القوم ما فيهم أحد ينطق، وأعظموا ما رأوا منه، فقلت: يا ربيعة بن مُكدم لا يريدون إلا خيرا، وإنما سميته ليعرفه القوم، فقال لهم : ما تريدون؟ فقالوا: وما تريد؟ قد جرحت فارس العرب، وأخذت سيفه وفرسه، ومضى ومضينا معه، حتى نزل، فقامت إليه صاحبته وهى ضاحكة تمسح وجهه، ثم أمر بإبل فنحرت، وضربت علينا قباب، فلما أمسينا جاءت الرعاء ومعهم أفراس ربيعة لم أر مثلها قط فلما رأى نظرى إليها قال : كيف ترى هذه الخيول؟ قلت : لم أر مثلها قط قال : أما لو كان عندى بعضها ما لبثت فى الدنيا إلا قليلا، فضحكت وما ينطق أحد من أصحابى، فأقمنا عنده يومين ثم انصرفنا .

قال : وقد كان عمرو معد يكرب بعد ذلك بزمان أغار على كنانة في صناديد قومه، فأخذ غنائمهم، وأخذ امرأة ربيعة بن مُكدم، فبلغ ذلك ربيعة ـ وكان غير بعيدـ فركب فى الطلب على فرس عُرى ومعه رمح بلا سنان حتى لحقه، فلما نظر إليه قال : ياعمرو، خل عن الظعينة وما معك فلم يلتفت إليه، ثم أعاد عليه، فلم يلتفت إليه، فقال : ياعمرو، إما أن تقف لى وإما أن أقف لك فوقف عمرو، وقال : لقد أنصف القارة من راماها، قف لى يا ابن أخى، فوقف له ربيعة، فحمل عليه عمرو.

حتى إذا ظن أنه خالطه السنان إذا هو لبيب لفرسه، ومر السنان على ظهر الفرس، ثم وقف له عمرو، فحمل عليه ربيعة.

فقرع بالرمح رأسه، ثم قال : خذها إليك ياعمرو، ولولا أنى أكره قتل مثلك لقتلتك، فقال عمرو: لا ينصرف إلا أحدنا، فقف لى، فحمل عليه حتى إذا ظن أنه قد خالطه السنان إذا هو حزام لفرسه ومر السنان على ظهر الفرس ثم حمل عليه ربيعة فقرع بالرمح رأسه أيضاً، وقال : خذها إليك ياعمرو ثانية، وإنما العفو مرتان، وصاحت به امرأته: السنان لله درك، فأخرج سناناً من سنخ إزاره كأنه شعلة نار، فركبه على رمحه، فلما نظر إليه عمرو ، وذكر طعنته بلا سنان قال له عمرو : يا ربيعة خذ الغنيمة، قال : دعها وانج، فقالت بنو زبيد : أتترك غنيمتنا لهذا الغلام ؟ فقال لهم عمرو: يا بنى زبيد، والله لقد رأيت الموت الأحمر فى سنانه، وسمعت صريره فى تركيبه، فقالت بنو زبيد : لا يتحدث العرب أن قوما من بنى زبيد فيهم عمرو بن معد يكرب تركوا غنيمتهم لمثل هذا الغلام، قال عمرو : إنه لا طاقة لكم به، وما رأيت مثله قط، فانصرفوا عنه، وأخذ ربيعة امرأته والغنيمة وعاد إلى قومه.

قال المسعودى رحمه الله تعالى : ولعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أخبار كثيرة فى أسفاره فى الجاهلية إلى الشام والعراق مع كثير من ملوك العرب والعجم، وسير فى الإسلام وأخبار وسياسات حسان، وما كان فى أيامه من الكوائن والأحداث وفتوح مصر والشام والعراق وغيرها من الأمصار.

خلافة عثمان بن عفان

رضى الله عنه

بويع عثمان يوم الجمعة غرة المحرم لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وقتل لاثنتى عشرة ليلة مضت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين، وقيل غير ذلك إلا أنه فى ذى الحجة، فجميع ما ولى اثنتا عشرة سنة إلا ثمانية أيام، وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة ، ودفن بالمدينة بموضع يعرف بحش كوكب.

نسبه، وسيره

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ويكنى بأبى عبد الله وأبى عمرو، والأغلب منهما أبو عبد الله، وأمه أروى بنت كريز بن جابر بن حبيب بن عبد شمس، وكان له من الولد: عبد الله الأكبر، وعبد الله الأصغر، أمهما رقية بنت رسول الله ﷺ . وأبان، وخالد، وسعيد، والوليد والمغيرة، وعبد الملك، وأم أبان ، وأم سعيد وأم عمرو ، وعائشة، وكان عبد الله كثير التزوج، كثير الطلاق، وكان أبان قد حمل عنه أصحاب الحديث عدة من السنين. وولى لبنى مروان مكة وغيرها . وكان سعيد أحول بخيلا. وقتل فى زمن معاوية وكان الوليد صاحب شراب وفتوة ومجون. وقتل أبوه وهو مخلق الوجه سكران عليه مُصبغات واسعة. وبلغ عبد الله الأصغر من السن ستا وسبعين عاما. فنقره ديك فى عينه، فكان ذلك سبب موته، وعبد الملك مات صغيراً ولا عقب له.

وكان عثمان فى نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل فى القريب والبعيد. فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته، وتأسوا به فى فعله. وبنى داره فى

المدينة، وشيدها بالحجر والكلس، وجعل أبوابها من الساج والعرعر واقتنى أموالا وجنانا وعيونا بالمدينة.

وذكر عبد الله بن عتبة أن عثمان يوم قتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلا كثيراً وإبلا.

وفى أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور: منهم الزبير بن العوام، بنى داره بالبصرة، وهى المعروفة فى هذا الوقت - - وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة - تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحرين وغيرهم ، وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية.

وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف الزبير ألف فرس، وألف عبدو أمة، وخططاً .

وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمى : ابتنى داره بالكوفة المعروفة بالكناسة بدار الطلحيين، وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار، وقيل أكثر من ذلك ، وبناحية الشراة أكثر، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج.

وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهرى: ابتنى داره ووسعها، وكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم، وبلغ بعد وفاته رُبُعُ ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً.

وابتنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق، فرفع سمكها، ووسع فضاءها، وجعل أعلاها شُرفات.

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤس، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار.

وابتنى المقداد داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن.

ومات يعلى بن منية، وخلف خمسمائة ألف ديار، وديوناً على الناس، وعقارات، وغير ذلك من التركة ما قيمته ثلاثمائة ألف دينار.

وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه، فيمن تملك من الأموال فى أيامه، ولم يكن مثل ذلك فى عصر عمر بن الخطاب، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة.

وحج عمر فأنفق فى ذهابه ومجيئه إلى المدينة ستة عشر ديناراً، وقال لولده عبد الله : لقد أسرفنا فى نفقتنا فى سفرنا هذا.

ولقد شكا الناس أميرهم بالكوفة سعد بن أبى وقاص - وذلك فى سنة إحدى وعشرين، فبعث عمر محمد بن مسلمة الأنصارى حليف بنى عبد الأشهل، فحرق عليه باب قصر الكوفة، وعرضه فى مساجد الكوفة يسألهم عنه : فحمده بعضهم، وشكاه بعض ، فعزله وبعث إلى الكوفة عمار بن ياسر على الثغر، وعثمان بن حُنَيْف على الخراج، وعبد الله بن مسعود على بيت المال، وأمره أن يعلم الناس القرآن ويفقههم فى الدين، وفرض لهم فى كل يوم شاة؛ فجعل شطرها وسواقطها لعمار ابن ياسر، والشطر الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف.

وقدم على عثمان عمه الحكم بن أبى العاص وابنه مروان وغيرهما من بنى أمية - والحكم هو طريد رسول الله ﷺ الذي غربه عن المدينة، ونفاه عن جوارها - وكان عماله جماعة منهم الوليد بن عقبة بن أبى مُعيط على الكوفة، وهو ممن أخبر النبى ﷺ أنه من أهل النار، وعبد الله بن أبى سَرْح على مصر، ومعاوية بن أبى سفيان على الشام، وعبد الله بن عامر على البصرة، وصرف عن الكوفة الوليد بن عُقبة، وولاها سعيد بن العاص.

وكان السبب فى صرف الوليد بن عقبة وتولية سعيد- على ماروى - أن الوليد بن عقبة كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح، فلما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج متفضلا فى غلائله، فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح، فصلى بهم أربعا، وقال : أتريدن أن أزيدكم؟ ،قيل : إنه قال فى سجوده وقد طال : اشرب واسقنى، فقال له بعض من كان خلفه فى الصف الأول: ما تزيد لازادك الله من الخير والله لا أعجب إلا ممن بعثك إلينا والياً وعلينا أميراً، وكان هذا القائل عتاب بن غيلان الثقفى، وبعض الناس يشككو فى هذه الرواية.

وخطب الناس الوليد فحصبه الناس بحصباء المسجد، فدخل قصره يترنح.

وأشاعوا بالكوفة فعله ، وظهر فسقه ومداومته على شرب الخمر، فهجم عليه جماعة من المسجد منهم أبو زينب بن عوف الأزدى وجندب بن زهير الأزدى وغيرهما، فوجدوه سكران مضطجماً على سريره لا يعقل، فأيقظوه من رقدته، فلم يستيقظ، ثم تقايأ عليهم ما شرب من الخمر، فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم إلى المدينة، فأتوا عثمان بن عفان، فشهدوا عنده على الوليد أنه شرب الخمر، فقال عثمان: وما يدريكما أنه شرب خمراً؟ فقالا: هى الخمر التى كنا نشربها فى الجاهلية، وأخرجا خاتمه فدفعاه إليه، فزجرهما ودفع فى

صدورهما، وقال : تنحيا عنى، فخرجا من عنده وأتيا على بن أبى طالب رضى الله عنه وأخبراه بالقصة، فأتى عثمان وهو يقول : دفعت الشهود، وأبطلت الحدود، فقال له عثمان: فما ترى ؟

قال : أرى أن تبعث إلى صاحبك فتحضره فإن أقاما الشهادة عليه فى وجهه ولم يدرأ عن نفسه بحجة أقمت عليه الحد، فلما حضر الوليد دعاهما عثمان : فأقاما الشهادة عليه ولم يدل بحجة فألقى عثمان السوط إلى على ، فقال على لابنه الحسن: قم يا بنى فأقم عليه ما أوجب الله عليه، فقال : يكفينيه بعض من ترى، فلما نظر إلى امتناع الجماعة عن إقامة الحد عليه توقياً لغضب عثمان لقرابته منه أخذ على السوط ودنا منه، فلما أقبل نحوه سبه الوليد، وقال : ياصاحب مكس، فقال عقيل بن أبى طالب وكان ممن حضر: إنك لتتكلم يا ابن أبى مُعيط كأنك لا تدرى من أنت ، وأنت علج من أهل صفورية- وهى قرية بين عكا، واللجون، من أعمال الأردن، من بلاد طبرية، وكان ذكر أن أباه كان يهوديا منها- فأقبل الوليد يروغ من على ، فاجتذبه على فضرب به الأرض، وعلاه بالسوط، فقال عثمان: ليس لك أن تفعل به هذا، قال : بل وشراً من هذا إذا فسق ومنع حق الله تعالى أن يؤخذ منه.

وولى الكوفة بعده سعيد بن العاص، فلما دخل سعيد الكوفة والياً أبى أن يصعد المنبر حتى يُغسل، وأمر بغسله، وقال : إن الوليد كان نجساً رجساً، فلما اتصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة، فاستبد بالأموال، وقال في بعض الأيام أو كتب به عثمان: إنما هذا السواد قطين لقريش، فقال له الأشتر، وهو مالك بن الحارث النخعي: أتجعل ما أفاء الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستاناً لك ولقومك؟ ثم خرج إلى عثمان فى سبعين راكبا من أهل الكوفة

فذكروا سوء سيرة سعيد بن العاص، وسألوا عزله عنهم، فمكث الأشتر وأصحابه أياما لايخرج لهم من عثمان فى سعيد شىء، وامتدت أيامهم بالمدينة، وقدم على عثمان أمراؤه من الأمصار منهم عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح من مصر ومعاوية من الشام وعبد الله بن عامر من البصرة وسعيد بن العاص من الكوفة، فأقاموا بالمدينة أياما لا يردهم إلى أمصارهم، وكراهة أن يرد سعيداً إلى الكوفة، وكره أن يعزله ، حتى كتب إليه من بأمصارهم يشكون كثرة الخراج وتعطيل الثغور، فجمعهم عثمان وقال : ما ترون؟

فقال معاوية: أما أنا فراض بى جندى. وقال عبد الله بن عامر بن كريز: ليكفك امرؤ ما قبله أكفك ما قبلى، وقال عبد الله بن سعد بن أبى سرح: ليس بكثير عزل عامل للعامة وتولية غيره، وقال سعيد بن العاص: إنك إن فعلت هذا كان أهل الكوفة هم الذين يولون ويعزلون، وقد صاروا حلقا فى المسجد ليس لهم غير الأحاديث والخوض، فجهزهم فى البعوث حتى يكون هم أحدهم أن موت على ظهر دابته، قال : فسمع مقالته عمرو بن العاص فخرج إلى المسجد، فإذا طلحة والزبير جالسان فى ناحية منه، فقالا له : تعال إلينا، فصار إليهما، فقالا : ما وراءك ؟ قال : الشر، ماترك شيئا من المنكر إلا أتى به وأمره به، وجاء الأشتر فقالا له: إن عاملكم الذى قمتم فيه خطباء قد رد عليكم وأمر بتجهيزكم فى البعوث وبكذا وبكذا، فقال الأشتر : والله لقد كنا نشكو سوء سيرته وما قمنا فيه خطباء، فكيف وقد قمنا؟!

وإيم الله على ذلك لولا أنى أنفدت النفقة وأنضيت الظهر لسبقته إلى الكوفة حتى أمنعه دخولها، فقالا له : فعندنا حاجتك التى تقوم بك فى سفرك قال : فأسلفانى إذاً مائة ألف درهم، فأسلفه كل واحد منهما خمسين ألف درهم،

فقسمها بين أصحابه، وخرج إلى الكوفة فسبق سعيداً، وصعد المنبر وسيفه فى عنقه ما وضعه بعد، ثم قال : أما بعد، فإن عاملكم الذي أنكرتم تعديه وسوء سيرته قد رد عليكم، وأمر بتجهيزكم فى البعوث ، فبايعونى على أن لا يدخلها، فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة وخرج راكبا متخفيا يريد المدينة أو مكة، فلقى سعيدا بواقصة فأخبره بالخبر، فانصرف إلى المدينة ، وكتب الأشتر إلى عثمان: إنا والله ما منعنا عاملك الدخول لنفسد عليك عملك، ولكن لسوء سيرته فينا وشدة عذابه، فابعث إلى عملك من أحببت. فكتب إليهم: انظروا من كان عاملكم أيام عمر بن الخطاب فولوه، فنظروا فإذا هو أبو موسى الأشعرى فولوه.

وفى سنة خمس وثلاثين كثر الطعن على عثمان رضى الله عنه، وظهر عليه النكير لأشياء ذكروها من فعله:

منها ما كان بينه وبين عبد الله بن مسعود، وانحراف هُذيل عن عثمان من أجله.

ومن ذلك ما نال عمار بن ياسر من الفتن والضرب، وانحراف بنى مخزوم عن عثمان من أجله.

ومن ذلك فعل الوليد بن عقبة في مسجد الكوفة ، وذلك أنه بلغه عن رجل من اليهود من ساكنى قرية من قرى الكوفة مما يلى جسر بابل يقال لها زرارة يعمل أنواعاً من الشعبذة والسحر يعرف ببطرونى فأحضره فأراه فى المسجد ضربا من التخييل، وهو أن أظهر له فى الليل فيلا عظيما على فرس يركض فى صحن المسجد ، ثم صار اليهودى ناقة يمشى على حبل،

ثم أراه صورة حمار دخل من فيه ثم خرج من دبره، ثم ضرب عنق رجل ففرق بين جسده ورأسه، ثم أمر السيف عليه فقام الرجل، وكان جماعة من أهل الكوفة حُضُوراً منهم جندب بن كعب الأزدى، فجعل يستعيذ بالله من فعل الشيطان، ومن عمل يبعد من الرحمن، وعلم أن ذلك هو ضرب من التخييل والسحر، فاخترط سيفه وضرب به اليهودى ضربة أدار رأسه ناحية من بدنه، وقال : جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا، وقد قيل : إن ذلك كان نهارا، وإن جندبا خرج إلى السوق ودنا من بعض الصياقلة وأخذ سيفا ودخل فضرب به عنق اليهودى، وقال : إن كنت صادقا فأحى نفسك، فأنكر عليه الوليد ذلك، وأراد أن يقيده به (يقتص منه)، فمنعته الأزد، فحبسه، وأراد قتله غيلة، ونظر السجان إلى قيامه ليله إلى الصبح، فقال له : انج بنفسك ، فقال له جندب: تقتل بى ، قال: ليس ذلك بكثير فى مرضاة الله والدفع عن ولى من أولياء الله فلما أصبح الوليد دعا به وقد استعد لقتله فلم يجده، فسأل السجان، فأخبره بهربه، فضرب عنق السجان، وصلبه بالكناسة.

بين عثمان وأبى ذر :

ومن ذلك ما فعل بأبى ذر، وهو أنه حضر مجلسه ذات يوم فقال عثمان : أرأيتم من زكى ماله هل فيه حق لغيره؟ فقال كعب : لا يا أمير المؤمنين، فدفع أبو ذر فى صدر كعب، وقال له : كذبت يا ابن اليهودى، ثم تلا "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب" ـ الآية، فقال عثمان : أترون بأساً أن نأخذ مالا من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه؟ فقال كعب: لا بأس بذلك، فرفع أبو ذر العصا فدفع بها فى صدر كعب وقال : يا ابن اليهودى ما أجرأك على القول فى ديننا !

فقال له عثمان : ما أكثر أذاك لى ! غيب وجهك عنى فقد آذيتنا، فخرج أبو ذر إلى الشام ، فكتب معاوية إلى عثمان: إن أبا ذر تجتمع إليه الجموع، ولا آمن أن يفسدهم عليك، فإن كان لك فى القوم حاجة فأحمله إليك ، فكتب إليه عثمان بحمله، فحمله على بعير عليه قتب يابس معه خمسة من الصقالبة يطيرون به، حتى أتوا به المدينة وقد تسلخت بواطن أفخاذه وكاد أن يتلف، فقيل له : إنك تموت من ذلك، فقال : هيهات لن أموت حتى أُنفى، وذكر جوامع ما ينزل به بعد، ومن يتولى دفنه، فأحسن إليه عثمان فى داره أياما، ثم دخل إليه فجلس على ركبتيه وتكلم بأشياء، وذكر الخبر فى ولد أبى العاص إذا بلغوا ثلاثين رجلا اتخذوا عباد الله خولا، ومر في الخبر بطوله، وتكلم بكلام كثير، وكان فى ذلك اليوم قد أتى عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف الزهرى من المال ، فنثرت البُدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم، فقال عثمان: إنى لأرجو لعبد الرحمن خيراً؛ لأنه كان يتصدق، ويقرى الضيف، وترك ما ترون،

فقال كعب الأحبار: صدقت يا أمير المؤمنين، فشال أبو ذر العصا ، فضرب بها رأس كعب، ولم يشغله ما كان فيه من الألم وقال : يا ابن اليهودى تقول لرجل مات وترك هذا المال : إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله بذلك، وأنا سمعت النبى ﷺ يقول "مايسرنى أن أموت وأدع ما يزن قيراطا،

فقال له عثمان : وار عنى وجهك ، فقال : أسير إلى مكة، قال : لا والله ، قال : فتمنعنى من بيت ربى أعبده فيه حتى أموت ؟ قال : إى والله ، قال : فإلى الشام. قال : لا والله قال . البصرة ؟ قال : لا والله، فاختر غير هذه البلدان ، قال : لا والله ما أختار غير ما ذكرت لك، ولو تركتنى فى دار هجرتى ما أردت

شيئا من البلدان، فسيرنى حيث شئت من البلاد ، قال فإنى مسيرك إلي الربذة، قال : الله أكبر، صدق رسول الله ﷺ قد أخبرنى بكل ما أنا لاق ،

قال عثمان : وما قال لك؟ قال : أخبرنى بأنى أمنع عن مكة والمدينة وأموت بالربذة، ويتولى مواراتى نفر ممن يردون من العراق نحو الحجاز، وبعث أبو ذر إلى جمل له فحمل عليه امرأته - وقيل : ابنته - وأمر عثمان أن يتجافاه الناس حتى يسير إلى الربذة، فلما طلع عن المدينة ومروان يسير عنها طلع عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه ومعه أبناه الحسن والحسين وعقيل أخوه وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر، فاعترض مروان فقال : يا على إن أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر فى مسيره ويشيعوه، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك، فحمل عليه على بن أبى طالب بالسوط وضرب بين أذنى راحلته ، وقال : تنح نحاك الله إلى النار، ومضى مع أبى ذر فشيعه ثم ودعه وانصرف، فلما أراد على الانصراف بكى أبو ذر، وقال : رحمكم الله أهل البيت، إذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول الله ﷺ ، فشكا مروان إلى عثمان مافعل به على بن أبى طالب، فقال عثمان : يا معشر المسلمين من يعذرنى من على ؟ رد رسولى عما وجهته له، وفعل كذا، والله لنعطينه حقه، فلما رجع على استقبله الناس ، فقالوا له: إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر، فقال على : غضب الخيل على اللّجم.

فلما كان بالعشى جاء إلى عثمان ، فقال له : ما حملك على ما صنعت بمروان ولم اجترأت علىَّ ورددت رسولى وأمرى ؟ ! قال : أما مروان فإنه استقبلنى يردنى فرددته عن ردى، وأما أمرك فلم أرده، قال عثمان : ألم يبلغك أنى قد نهيت الناس عن أبى ذر وعن تشييعه؟ فقال على : أو كل ما أمرتنا به

من شيء نرى طاعة الله والحق فى خلافه أتبعنا فيه أمرك؟ بالله لا نفعل، قال عثمان : أقد مروان، قال : وِمم أقيده ؟ قال : ضربت بين أذنى راحلته وشتمته، فهو شاتمك وضارب بين أذنى راحلتك قال على : أما راحلتى فهى تلك فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل. وأما أنا فوالله لئن شتمنى لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلا حقا. قال عثمان : ولم لا يشتمنك إذا شتمته، فوالله ما أنت عندى بأفضل منه؟! فغضب على بن أبى طالب وقال : ألى تقول هذا القول ؟ وبمروان تعدلنى ؟ فأنا والله أفضل منك ، وأبى أفضل من أبيك ، وأمى أفضل من أمك، وهذه نبلى قد نبلتها، وهلم فانتل بنبلك ، فغضب عثمان واحمر وجهه، فقام ودخل داره، وانصرف على ، فاجتمع إليه أهل بيته، ورجال من المهاجرين والأنصار.

فلما كان من الغد واجتمع الناس إلي عثمان شكا إليهم عليا وقال : إنه يعيبنى ويُظاهر من يعيبنى، يريد بذلك أبا ذر وعمار بن ياسر وغيرهما، فدخل الناس بينهما حتى اصطلحا وقال له على : والله ما أردت بتشييع أبى ذر إلا الله تعالى.

وقد كان عمار حين بويع عثمان بلغه قول أبى سفيان صخر بن حرب فى دار عثمان عقيب الوقت الذى بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أمية فقال أبو سفيان: أفيكم أحد من غيركم ؟ وقد كان عمى ، قالوا : لا ، قال يا بنى أمية، تلقفوها تلقف الكرة، فوالذى يحلف به أبو سفيان مازلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة، فانتهره عثمان، وساءه ما قال، ونمى هذا القول إلي المهاجرين والأنصار وغير ذلك الكلام فقام عمار فى المسجد فقال : يا معشر قريش، أما إذا صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ههنا مرة وههنا مرة فما

أنا بآمن من أن ينزعه الله منكم فيضعه فى غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فى غير أهله وقام المقداد فقال : ما رأيت مثل ما أوذى به أهل هذا البيت بعد نبيهم، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وما أنت وذاك يامقداد بن عمرو؟ فقال : إنى والله لأحبهم لحب رسول الله ﷺ إياهم، وإن الحق معهم وفيهم، يا عبد الرحمن أعجب من قريش ـ وإنما تطوّ لهم على الناس بفضل أهل هذا البيت ـ قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله ﷺ بعده من أيديهم أما وأيم الله يا عبد الرحمن لو أجد على قريش أنصاراً لقاتلتهم كقتالى إياهم مع النبى عليه الصلاة والسلام يوم بدر، وجرى بينهم من الكلام خطب طويل .

ولما كان سنة خمس وثلاثين سار مالك بن الحارث النخعى من الكوفة فى مائتى رجل، وحكيم بن جبلة العبدى فى مائة رجل من أهل البصرة، ومن أهل مصر ستمائة رجل عليهم عبد الرحمن بن عدبس البلوى، وقد ذكر الواقدى وغيره من أصحاب السير أنه ممن بايع تحت الشجرة، إلى آخرين ممن كان بمصر مثل عمرو بن الحمق الخزاعى وسعد بن حُمران التجيبى، ومعهم محمد بن أبى بكر الصديق، وقد كان تكلم بمصر، وحرض الناس على عثمان لأمر يطول ذكره كان السبب فيه مروان بن الحكم، فنزلوا فى الموضع المعروف بذى الخشب فلما علم عثمان بنزولهم بعث إلى على بن أبى طالب فأحضره، وسأله أن يخرج إليهم ويضمن لهم عنه ما يريدون من العدل وحسن السيرة، فسار على إليهم، فكان بينهم خطب طويل، فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا، فلما صاروا إلى الموضع المعروف بحسمى إذا هم بغلام على بعير وهو مقبل من المدينة ، فتأملوه فإذا هو ورش غلام عثمان، فقرروه ، فأقر وأظهر كتاباً إلى ابن أبى سرح صاحب مصر وفيه "إذا قدم عليك الجيش فاقطع يد فلان، واقتل فلانا، وافعل

بفلان كذا، وأحصى أكثر من فى الجيش ، وأمر فيهم بما أمر" وعلم القوم أن الكتاب بخط مروان ، فرجعوا إلى المدينة، واتفق رأيهم ورأى من قدم من العراق، ونزلوا المسجد وتكلموا،

وذكروا ما نزل بهم من عمالهم ، ورجعوا إلى عثمان فحاصروه في داره، ومنعوه الماء، فأشرف على الناس وقال : ألا أحد يسقينا، وقال : بم تستحلون قتلي وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول " لايحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان ، أو قتل نفس بغير نفس"؟ ووالله ما فعلت ذلك فى جاهلية أو إسلام، فبلغ علياً طلبه للماء، فبعث إليه بثلاث قرب ماء، فما وصل إليه ذلك حتى خرج جماعة من موالى بنى هاشم وبنى أمية، وارتفع الصوت ، وكثر الضجيج، وأحدقوا بداره بالسلاح وطالبوه بمروان، فأبي أن يخلى عنه، وفي الناس بنو زهرة لأجل عبد الله بن مسعود لأنه كان من أحلافها، وهُذيل لأنه كان منها، وبنو مخزوم وأحلافها لعمار، وغفار وأحلافها لأبى ذر، وتيم بن مرة مع محمد بن أبي بكر، وغير هؤلاء، فلما بلغ عليا أنهم يريدون قتله بعث بابنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح إلى بابه لنصرته، وأمرهم أن يمنعوه منهم، وبعث الزبير ابنه عبد الله، وبعث طلحة ابنه محمداً، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم أباؤهم اقتداء بمن ذكرنا، فصدوهم عن الدار، فرمى من وصفنا بالسهام، واشتبك القوم ، وجرح الحسن، وشج قنبر، وجرح محمد بن طلحة، فخشى القوم أن يتعصب بنو هاشم وبنو أمية، فتركوا القوم فى القتال على الباب،

ومضى نفر منهم إلى دار قوم من الأنصار فتسوروا عليها، وكان ممن وصل إليه محمد بن أبى بكر ورجلان آخران، وعند عثمان زوجته، وأهله ومواليه

مشاغيل بالقتال، فأخذ محمد بن أبى بكر بلحيته، فقال : يا محمد، والله لو رآك أبوك لساءه مكانك فتراخت يده، وخرج عنه إلى الدار، ودخل رجلان فوجداه فقتلاه، وكان المصحف بين يديه يقرأ فيه، فصعدت امرأته فصرخت وقالت : قد قتل أمير المؤمنين، فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بنى أمية، فوجدوه قد فاضت نفسه رضى الله عنه، فبكوا، فبلغ ذلك علياً وطلحة والزبير وسعداً وغيرهم من المهاجرين والأنصار، فاسترجع القوم، ودخل علىّ الدار، وهو كالواله الحزين، وقال لابنيه: كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟ ولطم الحسن وضرب صدر الحسين، وشتم محمد بن طلحة، وعبد الله بن الزبير، فقال له طلحة: لا تضرب يا أبا الحسن، ولا تشتم ، ولا تلعن، لو دفع إليهم مروان ما قتل، وهرب مروان وغيره من بنى أمية، وطلبوا ليقتلوا فلم يوجدوا، وقال على لزوجته نائلة بنت الفرافصة: من قتله وأنت كنت معه؟ قالت : دخل إليه رجلان وقصت خبر محمد بن أبى بكر، فلم ينكر ما قالت، وقال : والله لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله، فلما خاطبنى بما قال خرجت ، ولا أعلم بتخلف الرجلين عنى، والله ما كان لى فى قتله من سبب، ولقد قتل وأنا لا أعلم بقتله.

وكانت مدة ما حوصر عثمان فى داره تسعاً وأربعين يوماً، وقيل : أكثر من ذلك.

وقتل فى ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذى الحجة، وذكر أن أحد الرجلين كنانة بن بشر التجيبى، ضربه بعمود على جبهته، والآخر منهما سعد بن حُمران المرادى، ضربه بالسيف على حبل عاتقه فحله.

وقد قيل : إن عمرو بن الحمق طعنه بسهام تسع طعنات، وكان فيمن مال عليه عمير بن ضابىء البرجى التميمى، وخضخض سيفه فى بطنه.

ودفن فى الموضع المعروف بحش كوكب، وهذا الموضع فيه مقابر بنى أمية، ويعرف أيضاً بحلة، وصلى عليه جُبير بن مطعم وحكيم بن حزام وأبو جهم بن حذيفة.

ولما حوصر عثمان كان أبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه يصلى بالناس، ثم امتنع ، فصلى بهم سهل بن حُنيف، فلما كان يوم النحر صلى بهم على، وقيل : إن عثمان قتل ومعه في الدار من بنى أمية ثمانية عشر رجلا منهم مروان بن الحكيم.

خلافة أمير المؤمنين

على بن أبى طالب (ر ضى الله عنه)

بويع على بن أبى طالب فى اليوم الذى قُتل فيه عثمان بن عفان رضي الله عنه، فكانت خلافته إلى أن استشهد أربع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام وقيل : أربع سنين وتسعة أشهر إلا يوماً، وكانت الفرقة بينه وبين معاوية ابن أبى سفيان فى خلافته، وكان مولده فى الكعبة، وقيل : إن خلافته كانت خمس سنين وثلاثة أشهر وسبع ليال، واستشهد وهو ابن ثلاث وستين سنة، وعاش بعد الضربة الجمعة والسبت، وتوفى ليلة الأحد، وقد قيل فى مقدار عمره أقل مما ذكرنا، وقد تنوزع في موضع قبره؛ فمنهم من قال : إنه دفن فى مسجد الكوفة، ومنهم من قال : إنه حمل إلى المدينة فدفن عند قبر فاطمة، ومنهم من قال : إنه حمل فى تابوت على جَمَل، وإن الجمل تاه ووقع إلى وادى طيىء، وقد قيل من الوجوه غير ما ذكرنا.

نسبه، وسيره

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ويكنى أبا الحسن، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، ولم يكن من عهد النبى ﷺ إلى خلافة المتقى ممن ولى الخلافة مَن اسمه على غيره، وغير المكتفى بالله على بن المعتضد، وكان أول من ولده هاشميان من الخلفاء، وقد قيل : إنه بويع البيعة العامة بعد قتل عثمان بأربعة أيام، وتنازع الناس فى اسم أبى طالب أبيه، وولد أبى طالب بن عبد المطلب أربعة ذكور وابنتان فطالب وعقيل وجعفر وعلى وفاختة وجُمانة لأب وأم ، أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم، وبين كل واحد من

البنين عشر سنين: فطالب الأكبر وبينه وبين عقيل عشر سنين، وبين عقيل وجعفر سنتان، وبين جعفر وعلى عشر سنين، وأخرج مشركو قريس طالب بن أبى طالب يوم بدر إلى حرب رسول الله ﷺ كرهاً ، ومضى ولم يعرف له خبر.

وكان زوج فاختة بنت أبى طالب أبو وهب هبيرة بن عمرو بن عائد بن عمرو بن مخزوم، وخلف عليها ابناً وبنتاً، وهاجرت، ومات زوجها بنجران مشركا.

وجمانة بنت أبي طالب كان بعلها سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهى أول هاشمية ولدت لهاشمى، كذلك ذكر الزبير بن بكار فى كتابه في أنساب قريش وأخبارها، وهاجرت وماتت بالمدينة فى أيام النبى ﷺ .

وكان مسير علىّ إلى البصرة فى سنة ست وثلاثين، وفيها كانت وقعة الجمل، وذلك فى يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى منها، وقتل فيها من أصحاب الجمل من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفاً، وقتل من أصحاب على خمسة آلاف، وقد تنازع الناس في مقدار من قتل من الفريقين: فمن مقلل ومكثر؛ فالمقلل يقول : قتل منهم سبعة آلاف والمكثر يقول : عشرة آلاف على حسب ميل الناس وأهوائهم إلى كل فريق منهم، وكانت وقعة واحدة فى يوم واحد.

وقيل: إنه كان بين خلافة على إلى وقعة الجمل خمسة أشهر وأحد وعشرون يوما، وبين وقعة الجمل، وأول الهجرة خمس وثلاثون سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام، وبين ذلك وبين دخول على إلى الكوفة شهر، وبين ذلك وبين أول الهجرة خمس وثلاثون سنة وستة أشهر وعشرة أيام، وبين دخول على

والتقائه مع معاوية للقتال بصفين ستة أشهر وثلاثة عشر يوما ، وبين ذلك وأول الهجرة ست وثلاثون سنة وثلاثة عشر يوما.

وقتل بصفين سبعون ألفاً: من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً ، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، وكان المقام بصفين مائة يوم وعشرة أيام، وقتل بها من الصحابة ممن كان مع على خمسة وعشرون رجلا: منهم عمار بن ياسر أبو اليقظان المعروف بابن سُمية وهو ابن ثلاث وتسعين سنة.

وكانت عدة الوقائع بين أهل العراق والشام سبعون وقعة.

وفى سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين - وهما عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى - بأرض البلقاء من أرض دمشق، وقيل : بدومة الجندل، وهى على نحو عشر أميال من دمشق ، وفى هذه السنة حكمت الخوارج وتحكمت، وهم الشراة.

وكان ممن شهد صفين مع على من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلا : منهم سبعة عشر من المهاجرين، وسبعون من الأنصار، وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة وهى بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ تسعمائة، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة.

وفى سنة ثمان وثلاثين كان حربه مع أهل النهروان من الخوارج، وقعد عن بيعته جماعة عثمانية لم يروا إلا الخروج عن الأمر: منهم سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وبايع يزيد بعد ذلك والحجاج لعبد الملك بن مروان، ومنهم قُدامة بن مظعون، وأهبان بن صيفى، وعبد الله بن سلام، والمغيرة بن

شعبة الثقفى، وممن اعتزل من الأنصار كعب بن مالك، وحسان بن ثابت، وكانا شاعرين، وأبو سعيد الخُدرى، ومحمد بن مسلمة حليف بنى عبد الأشهل، ويزيد بن ثابت، ورافع بن خديج، ونعمان بن بشير، وفضالة بن عبيد، وكعب بن عُجرة ومسلمة بن خالد، فى آخرين من بنى أمية وسواهم.

وانتزع على أملاكا كان عثمان أقطعها جماعة من المسلمين، وقسم ما فى بيت المال على الناس، ولم يفضل أحداً على أحد، وبعثت أم حبيبة بنت أبى سفيان إلى أخيها معاوية بقميص عثمان مخضبا بدمائه مع النعمان بن بشير الأنصارى، واتصلت بيعة علي بالكوفة وغيرها من الأمصار، وكان أهل الكوفة أسرع إجابة إلى بيعته، وأخذ له البيعة على أهلها أبو موسى الأشعرى، حتى تكاثر الناس عليه، وكان عليها عاملا لعثمان.

وأتاه جماعة ممن تخلف عن بيعته من بنى أمية: منهم سعيد بن العاص، ومروان بن الحكم، والوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط، فجرى بينه وبينهم خطب طويل، وقال له الوليد: إنا لم نتخلف عنك رغبة عن بيعتك، ولكنا قوم وترنا الناس، وخفنا علي نفوسا، فعذرنا فيما نقول واضح، أما أنا فقتلت أبى صبراً، وضربتنى حداً، وقال سعيد بن العاص كلاماً كثيراً، وقال له الوليد: أما سعيد فقتلت أباه، وأهنت مثواه، وأما مروان فإنك شتمت أباه، وعبت عثمان فى ضمه إياه.

وقد ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى أن حسان بن ثابت وكعب بن مالك والنعمان بن بشير - قبل نفوذه بالقميص - أتوا علياً فى آخرين من العثمانية فقال كعب بن مالك : ياأمير المؤمنين، ليس مسيئاً من عتب، وخير كفر ما محاهُ عذر، فى كلام كثير، ثم بايع وبايع من ذكرنا جميعا.

وقد كان عمرو بن العاص انحرف عن عثمان لانحرافه عنه وتوليته مصر غيره ، فنزل الشام، فلما اتصل به أمر عثمان وما كان من بيعة على، كتب إلى معاوية يهزه ويشير عليه بالمطالبة بدم عثمان، وكان فيما كتب به إليه : ما كنت صانعاً إذا قشرت من كل شيء تملكه فاصنع ما أنت صانع، فبعث إليه معاوية، فسار إليه، فقال له معاوية: بايعنى ، قال : لا ، والله لا أعطيك من دينى حتى أنال من دنياك، قال : سَلْ ، قال : مصر طُعمة، فأجابه إلى ذلك، وكتب له به كتاباً.

وأتى المغيرة بن شعبة علياً، فقال له : إن لك حق الطاعة والنصيحة، وإن الرأى اليوم تحوز به ما فى غده، وإن المضاع اليوم تضيع به ما فى غد، أقرر معاوية على عمله، وأقرر ابن عامر على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت، قال : حتى أنظر، فخرج من عنده وعاد إليه من الغد، فقال : إنى أشرت عليك بالأمس برأى وتعقبه برأى، وإنما الرأى أن تعاجلهم بالنزع فتعرف السامع من غيره وتسقتبل أمرك، ثم خرج من عنده فتلقاه ابن عباس خارجاً وهو داخل ؛ فلما انتهى إلى على قال : رأيت المغيرة خارجا من عندك ففيم جاءك ؟ قال : جاءنى أمس بكيت وكيت، وجاءنى اليوم بذيت وذيت؛ فقال : أما أمس فقد نصحك؛ وأما اليوم فقد غشك؛ قال: فما الرأى؟ قال : كان الرأى أن تخرج حين قتل عثمان، أو قبل ذلك، فتأتى مكة فتدخل دارك فتغلق عليك بابك؛ فإن كانت العرب مائلة مضطرة فى أثرك لا تجد غيرك؛ فأما اليوم فإن بنى أمية سيحسنون الطلب بأن يلزموك شُعبة من هذا الأمر، ويشبهوا فيك على الناس، وقال المغيرة: نصحته فلم يقبل، فغششته، وذكر أنه قال : والله ما نصحته قبلها، ولا أنصحه بعدها.

قال المسعودى : ووجدت فى وجه آخر من الروايات أن ابن عباس قال : قدمت من مكة بعد مقتل عثمان بخمس ليال، فجئت علياً أدخل عليه، فقيل لى: عنده المغيرة بن شعبة، فجلست بالباب ساعة، فخرج المغيرة، فسلم علىَّ، وقال : متى قدمت ؟ قلت : الساعة، ودخلت على علىّ وسلمت عليه، فقال : أين لقيت الزبير وطلحة؟ قلت : بالنواصف، قال : ومن معهما؟ قلت : أبو سعيد بن الحارث بن هشام فى فتية من قريش، فقال على : أما إنهم لم يكن لهم بد أن يخرجوا يقولون نطلب بدم عثمان، والله يعلم أنهم قتلة عثمان، فقلت : أخبرنى عن شأن المغيرة، ولم خلا بك ؟ قال : جاءنى بعد مقتل عثمان بيومين، فقال : أخلنى ، ففعلت، فقال : إن النصح رخيص وأنت بقية الناس، وأنا لك ناصح، وأنا أشير عليك أن لا ترد عمال عثمان عامك هذا، فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم، فإذا بايعوا لك واطمأن أمرك عزلت من أحببت وأقررت من أحببت، فقلت له : والله لا أداهن فى دينى، ولا أعطى الرياء فى أمرى، قال : فإن كنت قد أبيت فانزع من شئت واترك معاوية فإن له جراءة وهو فى أهل الشام مسموع منه، ولك حجة فى إثباته فقد كان عمر ولاه الشام كلها،

فقلت له: لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبداً، فخرج من عندى على ما أشار به، ثم عاد، فقال : إنى أشرت عليك بما أشرت به وأبيت على، فنظرت فى الأمر، وإذا أنت مصيب لا ينبغى أن تأخذ أمرك بخدعة، ولا يكون فيه داسة، قال ابن عباس: فقلت له : أما أول ما أشار به عليك فقد نصحك، وأما الآخر فقد غشك، وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فإن بايع لك فعلى أن أقلعه من منزله، قال : لا ، والله لا أعطيه إلا السيف.

فقلت : يا أمير المؤمنين، أنت رجل شجاع، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول : "الحرب خُدعة" ؟ فقال على : بلى ، قلت : أما والله لئن أطعتنى لأصدرن بهم بعد ورود، ولأتركنهم ينظرون فى أدبار الأمور، ولا يدرون ما كان وجهها، من غير نقص لك، ولا إثم عليك، فقال لى : يا ابن عباس، لست من هنياتك ولا هنيات معاوية فى شىء تشير به على برأى، فإذا عصيتك فأطعنى، فقلت أنا : أفعل، فإن أيسر مالك عندى الطاعة، والله ولى التوفيق.

الأخبار عن يوم الجمل

ودخل طلحة والزبير مكة، وقد كانا استأذنا علياً فى العمرة، فقال لهما: لعلكما تريدان البصرة أو الشام ، فأقسما أنهما لا يقصدان غير مكة، وقد كانت عائشة رضى الله عنها بمكة، وقد كان عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة هرب عنها حين أخذ البيعة لعلى بها وعلى الناس حارثة بن قُدامة السعدى، ومسير عثمان بن حُنيف الأنصارى إليها على خراجها من قبل على رضى الله عنه! وانصرف عن اليمن عامل عثمان وهو يعلى بن منية، فأتى مكة وصادف بها عائشة وطلحة والزبير ومروان بن الحكم فى آخرين من بنى أمية، فكان ممن حرض على الطلب بدم عثمان، وأعطى عائشة وطلحة والزبير أربعمائة ألف درهم، وكراعاً وسلاحاً، وبعث إلى عائشة بالجمل المسمى عسكراً، وكان شراؤه عليه باليمن مائتى دينار، فأرادوا الشام، فصدهم ابن عامر، وقال : إن به معاوية، ولا ينقاد إليكم ولا يطيعكم، لكن هذه البصرة لى بها صنائع وعدد، فجهزهم بألف ألف درهم ومائة من الإبل وغير ذلك. وسار القوم نحو البصرة فى ستمائة راكب، فانتهوا فى الليل إلى ماء لبنى كلاب يعرف بالحوأب، عليه ناس من بنى كلاب، فعوت كلابهم على الركب، فقالت عائشة، ما اسم هذا الموضع؟

فقال لها السائق لجملها: الحوأب، فاسترجعت وذكرت ما قيل لها فى ذلك، فقالت : ردونى إلى حرم رسول الله ﷺ ، لا حاجة لى فى المسير، فقال الزبير: بالله ماهذا الحوأب، ولقد غلط فيما أخبرك به، وكان طلحة فى ساقة الناس، فلحقها فأقسم أن ذلك ليس بالحوأب، وشهد معهما خمسون رجلا ممن كان معهم، فكان ذلك أول شهادة زور أقيمت فى الإسلام ، فأتوا البصرة فخرج إليهم عثمان ابن حُنيف فمانعهم ، وجرى بينهم قتال، ثم إنهم اصطلحوا بعد ذلك على كف الحرب إلى قدوم على، فلما كان فى بعض الليالى بيتوا عثمان بن حُنيف وأسروه وضربوه ونتفوا لحيته، ثم إن القوم استرجعوا وخافوا على مخلفيهم بالمدينة من أخيه سهل بن حُنيف وغيره من الأنصار، فخلوا عنه، وأرادوا بيت المال فمانعهم الخزان والموكلون به وهم السبابجة، فقتل منهم سبعون رجلا غير من جرح، وخمسون من السبعين ضربت رقابهم صبرا من بعد الأسر، وهؤلاء أول من قُتل ظلماً فى الإسلام وصبرا، وقتلوا حكيم بن جبلة العبدى، وكان من سادات عبد القيس وزهاد ربيعة ونساكها، وتشاح طلحة والزبير فى الصلاة بالناس، ثم اتفقوا على أن يصلى بالناس عبد الله ابن الزبير يوماً، ومحمد بن طلحة يوماً، فى خطب طويل كان بين طلحة والزبير إلى أن اتفقا على ما وصفنا.

وسار على من المدينة بعد أربعة أشهر، وقيل غير ذلك، فى سبعمائة راكب منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار منهم سبعون بدريا وباقيهم من الصحابة، وقد كان استخلف على المدينة سهل بن حنيف الأنصارى، فانتهى إلى الربذة بين الكوفة ومكة من طريق الجادة، وفاته طلحة وأصحابه، وقد كان على أرادهم، فانصرف حين فاتوه إلى العراق فى طلبهم، ولحق بعلى من أهل المدينة جماعة من الأنصار فيهم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ، وأتاه من طيئ ستمائة

راكب، وكاتب على من الربذة أبا موسى الأشعرى ليستنفر الناس، فثبطهم أبو موسى ، وقال : إنما هى فتنة ، فنمى ذلك إلى على ، فولى على الكوفة قرظة ابن كعب الأنصارى، وكتب إلى أبى موسى : اعتزل عملنا يا ابن الحائك مذموماً مدحوراً، فما هذا أول يومنا منك، وإن لك فينا لهنات وهنيات. وسار على بمن معه حتى نزل بذى قار، وبعث بابنه الحسن وعمار بن ياسر إلى الكوفة يستنفران الناس، فسارا عنها ومعهما من أهل الكوفة نحو من سبعة آلاف، وقيل: ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلا منهم الأشتر فانتهى على إلى البصرة وراسل القوم وناشدهم الله، فأبوا إلا قتاله.

وذكر عن المنذر بن الجارود فيما حدث به أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى عن ابن عائشة عن معن بن عيسى عن المنذر بن الجارود قال : لما قدم على رضى الله عنه البصرة دخل مما يلى الطف، فأتى الزاوية فخرجت أنظر إليه، فورد موكب فى نحو ألف فارس يتقدمهم فارس على فرس أشهب عليه قلنسوة وثياب بيض متقلد سيفاً ومعه راية، وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض، والصفرة مدججين فى الحديد والسلاح، فقلت : من هذا؟ فقيل : هذا أبو أيوب الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ وهؤلاء الأنصار وغيرهم، ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلد سيفاً متنكب قوساً معه راية على فرس أشقر فى نحو ألف فارس، فقلت : من هذا ؟ فقيل : هذا خزيمة بن ثابت الأنصارى ذو الشهادتين، ثم مر بنا فارس آخر على فرس كميت معتم بعمامة صفراء من تحتها قلنسوة بيضاء وعليه قباء أبيض مصقول متقلد سيفاً متنكب قوساً فى نحو ألف فارس من الناس ومعه راية،

فقلت : من هذا؟ فقيل لى : أبو قتادة بن ربعى، ثم مر بنا فارس آخر على فرس أشهب عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها من بين يديه ومن خلفه شديد الآدمة عليه سكينة ووقار رافع صوته بقراءة القرآن متقلد سيفا متنكب قوساً معه راية بيضاء فى ألف من الناس مختلفى التيجان حوله مشيخة وكهول وشباب كأنما قد أوقفوا للحساب ، أثر السجود قد أثر فى جباههم ، فقلت : من هذا ؟ فقيل : عمار بن ياسر فى عدة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم، ثم مر بنا فارس على فرس أشقر عليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء وعمامة صفراد متنكب قوساً متقلد سيفاً تخط رجلاه فى الأرض فى ألف من الناس الغالبُ على تيجانهم الصفرة والبياض معه راية صفراء ، قلت : من هذا؟ قيل : هذا قيس بن سعد بن عُبادة فى عدة من الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان، ثم مر بنا فارس على فرس أشهل ما رأينا أحسن منه، عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها من بين يديه بلواء ، قلت : من هذا ؟ قيل : هو عبد الله بن العباس فى وفده عدة من أصحاب رسول الله ﷺ ،

ثم تلاه موكب آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين ، قلت : من هذا ؟ قيل: عبيد الله بن العباس، ثم تلاه موكب آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين ، قلت: من هذا قيل: قثم بن العباس، أو معبد بن العباس ثم أقبلت المواكب والرايات يقدم بعضها بعضاً، واشتبكت الرماح ، ثم ورد موكب فيه خلق من الناس عليهم السلاح والحديد مختلفوا الرايات فى أوله راية كبيرة يقدمهم رجل كأنما كُسد وجُبر قال ابن عائشة: وهذه صفة رجل شديد الساعدين نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى فوق، وكذلك تخبر العرب فى وصفها إذا أخبرت عن الرجل أنه كسر وجبر كأنما على رؤسهم الطير، وعن يمينه شاب حسن الوجه،

وعن يساره شاب حسن الوجه وبين يديه شاب مثلهما قلت : من هؤلاء ؟ قيل : هذا على بن أبى طالب، وهذان الحسن والحسين عن يمينه وشماله ، وهذا محمد بن الحنفية بين يديه معه الراية العُظمى، وهذا الذى خلفه عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، وهؤلاء ولد عقيل وغيرهم من فتيان بنى هاشم، وهؤلاء المشايخ هم أهل بدر من المهاجرين والأنصار.

فساروا حتى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية، فصلى أربع ركعات ، وعفر خديه على التراب، وقد خالط ذلك دموعه، ثم رفع يديه يدعو: اللهم رب السموات وما أظلت، والأرضين وما أقلت، ورب العرش العظيم، هذه البصرة أسألك من خيرها، وأعوذ بك من شرها، اللهم أنزلنا فيها خير منزل وأنت خير المنزلين، اللهم إن هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتى، وبغوا على ونكثوا بيعتى، اللهم احقن دماء المسلمين.

ويعث إليهم من يناشدهم الله فى الدماء، وقال : علام تقاتلوننى؟ فأبوا إلا الحرب، فبعث إليهم رجلا من أصحابه يقال له مسلم معه مصحف يدعوهم إلى الله، فرموه بسهم فقتلوه، فحمل إلى على.

وأمر على رضى الله عنه أن يصافوهم، ولا يبدأوهم بقتال، ولا يرموهم بسهم ولا يضربوهم بسيف ولا يطعنوهم برمح، حتى جاء عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى من الميمنة بأخ له مقتول، وجاء قوم من الميسرة برجل قد رمى بسهم فقتل، فقال على : اللهم اشهد، وأعذروا إلى القوم.

ثم قام عمار بن ياسر بين الصفين فقال : أيها الناس، ما أنصفتم نبيكم حين كففتم عقائلكم فى الخدور وأبرزتم عقيلته للسيوف، وعائشة على جمل فى

هودج من دفوف الخشب قد ألبسوه المسوح وجلود البقر، وجعلوا دونه اللبود، وقد غشى على ذلك بالدروع، فدنا عمار من موضعها، فنادى : إلى ماذا تدعين؟ قالت : إلى الطلب بدم عثمان، فقال : قاتل الله فى هذا اليوم الباغى والطالب بغير الحق، ثم قال : أيها الناس، إنكم لتعلمون أينا المالىء فى قتل عثمان؟.

وتواتر عليه الرمى واتصل ، فحرك فرسه، وزال عن موضعه وأتى علياً فقال : ماذا تنتظر يا أمير المؤمنين وليس لك عند القوم إلا الحرب ؟!

فقام على رضى الله عنه فى الناس خطيباً رافعاً صوته فقال : أيها الناس إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً، ولا تتبعوا مولياً، ولا تطلبوا مدبراً، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، ولا تهتكوا ستر، ولا تقربوا شيئاً من أموالهم إلا ما تجدونه فى عسكرهم من سلاح أو كُراع أو عبد أو أمة، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله.

وخرج على بنفسه حاسراً على بغلة رسول الله ﷺ فنادى : يازبير، اخرج إلى، فخرج إليه الزبير شاكا فى سلاحه، فقيل ذلك لعائشة، فقالت : واثكلك يا أسماء ، فقيل لها : إن علياً حاسر، فاطمأنت، واعتنق كل واحد منهم صاحبه، فقال له على : ويحك يازبير ! ما الذى أخرجك ؟ قال : دم عثمان ، قال: قتل الله أولانا بدم عثمان، أما تذكر يوم لقيت رسول الله ﷺ فى بنى بياضة وهو راكب حماره، فضحك إلى رسول الله ، وضحكت إليه، وأنت معه، فقلت أنت: يارسول الله. مايدع على زهوه، فقال لك "ليس به زهو: أتحبه يازبير" فقلت: إنى والله لأحبه، فقال لك "إنك والله ستقاتله وأنت له ظالم" فقال الزبير: أستغفر الله، والله لو ذكرتها ما خرجت، فقال له : يازبير ارجع، فقال : وكيف أرجع الآن

وقد التقت حلقتا البطان؟ هذا والله العار الذى لا يغسل ، فقال : يازبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار فرجع الزبير.

فقال ابنه عبد الله : أين تذهب وتدعنا؟ فقال : يابنى أذكرنى أبو الحسن بأمر كنت قد أنسيته. فقال : لا والله ، ولكنك فررت من سيوف بنى عبد المطلب؛ فإنها طوال حداد، تحملها فتية أنجاد، قال : لا والله، ولكنى ذكرت ما أنسانيه الدهر، فاخترت العار على النار، أبالجبن تعيرنى لا أبالك؟ ثم أمال سنانه وشد فى الميمنة فقال على : أفرجوا له فقد هاجوه، ثم رجع فشد فى الميسرة، ثم رجع فشد فى القلب، ثم عاد إلى ابنه، فقال : أيفعل هذا جبان؟ ثم مضى منصرفا، حتى أتى وادى السباع والأحنف بن قيس معتزل فى قومه من بنى تميم، فأتاه آت فقال له: هذا الزبير مارا، فقال : ما أصنع بالزبير وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضاً وهو مار إلى منزله سالماً ؟ ! فلحقه نفر من بنى تميم فسبقهم إليه عمرو بن جرموز، وقد نزل الزبير إلى الصلاة فقال : أتؤمنى أو أومك ؟! فأمه الزبير فقتله عمرو فى الصلاة، وقتل الزبير رضى الله عنه وله خمس وسبعون سنة، وقد رثته الشعراء وذكرت غدر عمرو بن جرموز، وممن رثاه زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل أخت سعيد بن زيد.

وأتى عمرو عليا بسيف الزبير وخاتمه ورأسه ، وقيل : إنه لم يأت برأسه، فقال على : سيف طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله ﷺ ، لكنه الحين ومصارع السوء، وقاتل ابن صفية فى النار.

ثم نادى على رضى الله عنه طلحة حين رجع الزبير: يا أبا محمد، ما الذى أخرجك؟ قال : الطلب بدم عثمان، قال على : قتل الله أولانا بدم عثمان، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول : " اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه" وأنت أولُ

من بايعنى ثم نكثت، وقد قال الله عز وجل «ومن نكث فإنما ينكث على نفسه» فقال : أستغفر الله ، ثم رجع، فقال مروان بن الحكم: رجع الزبير ويرجع طلحة، ما أبالى رميت ههنا أم ههنا، فرماه فى أكحله فقتله، فمر به علىٌّ بعد الوقعة فى موضعه فى قنطرة قرة، فوقف عليه، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنت كارهاً لهذا. وهو يمسح عن جبينه الغُبار ويقول : وكان أمر الله قدرا مقدوراً .

معركة صفين

وكان سير على من الكوفة إلى صفين لخمس خلون من شوال سنة ست وثلاثين ، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عُقبة بن عامر الأنصارى فاجتاز فى مسيره بالمدائن، ثم أتى الأنبار، وسار حتى نزل الرقة، فعُقدَ له هنالك جسر، فعبر إلى جانب الشام. وقد تنوزع فى مقدار ما كان معه من الجيش، فمكثر ومقلل، والمتفق عليه من قول الجميع تسعون ألفاً.

وسار معاوية من الشام، وقد تنوزع فى مقدار من كان معه أيضاً فمكثر ومقلل، والمتفق عيه من قول الجميع خمس وثمانون ألفاً، فسبق علياً إلى صفينَ، وعسكر فى موضع سهل أفيح اختاره قبل قدوم على ، على شريعة لم يكن على الفرات فى ذلك الموضع أسهل منها للوارد إلى الماء، وما عداها أخراق عالية، ومواضع إلى الماء وعرة، ووكل أبا الأعور السلمى بالشريعة مع أربعين ألفاً، وكان على مقدمته، وبات على وجيشه فى البر عطاشاً قد حيل بينهم وبين الورود إلى الماء، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: إن عليا لا يموت عطشاً هو وتسعون ألفاً من أهل العراق وسيوفهم على عواتقهم، ولكن دعهم يشربون ونشرب، فقال معاوية: لا والله أو يموتوا عطشاً كما مات عثمان، وخرج على يدور فى عسكره بالليل.

وأتى الأشعث بن قيس علياً رضى الله عنه، فقال له : أخرج فى أربعة آلاف من الخيل حتى تهجم بهم فى وسط عسكر معاوية فتشرب وتستقى لأصحابكم أو تموتوا عن آخركم، وأنا مُسير الأشتر فى خيل ورجاله وراءك، فسار الأشعث فى أربعة آلاف من الخيل .

ثم دعا عليّ الأشتر فسرحه في أربعة آلاف من الخيل والرجالة، فصار يؤم الأشعث وصاحب رايته وهو رجل من النخع .

ثم سار عليّ رضى الله عنه وراء الأشتر بباقى الجيش، ومضى الأشعث فما رد وجهه أحد حتى هجم على عسكر معاوية، فأزال أبا الأعور عن الشريعة، وغرق منهم بشراً وخيلا، وأورد خيله الفرات ، وذلك أن الأشعث داخلته الحمية فى هذا اليوم، وكان يقدم رمحه ثم يحث أصحابه فيقول : ازحموهم مقدار هذا الرمح، فيزيلوهم عن ذلك المكان، فبلغ ذلك من فعل الأشعث علياً، فقال هذا اليوم نصرنا فيه بالحمية.

وارتحل معاوية عن الموضع، وورد الأشتر، وقد كشف الأشعث القومَ عن الماء، وأزالهم عن مواضعهم ، وورد عليٌّ فنزل فى الموضع الذى كان فيه معاوية فقال معاوية لعمرو بن العاص: يا أبا عبد الله، ماظنك بالرجل أتراه يمنعنا الماء لمنعنا إياه؟ وقد كان انحاز بأهل الشام إلي ناحية فى البر نائية عن الماء، فقال له عمرو: لا، إن الرجل جاء لغير هذا، وإنه لا يرضي حتى تدخل فى طاعته أو يقطع حبل عاتقك، فأرسل إليه معاوية يستأذنه فى ورود مشرعته، واستقاء الناس من طريقه ودخول رسله فى عسكره، فأباحه عليٌّ كلَّ ما سأل وطلب منه.

ولما كان أول يوم من ذى الحجة بعد نزول عليّ على هذا الموضع بيومين بعث إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة والدخول فى جماعة المسلمين، وطالت المراسلة بينهما، فاتفقوا على الموادعة إلى آخر المحرم من سنة سبع وثلاثين، وامتنع المسلمون عن الغزو فى البحر والبر لشغلهم بالحروب، وقد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله إليه لشغله بعلى، ولم يتم بين على ومعاوية

صلح على غير ما اتفقا عليه من الموادعة فى المحرم، وعزم القوم على الحرب بعد انقضاء المحرم .

ولما كان فى اليوم الآخر من المحرم قبل غروب الشمس بعث على إلى أهل الشام : إنى قد احججت عليكم بكتاب الله، ودعوتكم إليه، وإنى قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لايهدى كيد الخائنين، فلم يردوا عليه جوابا إلا "السيف بيننا وبينك أو يهلك الأعجز منا".

وأصبح على يوم الأربعاء ـوكان أول يوم من صفرـ فعبأ الجيش، وأخرج الأشتر أمام الناس، وأخرج إليه معاويةـ وقد تصاف أهل الشام وأهل العراق حبيب بن مسلمة الفهرى ، وكان بينهم قتال شديد سائر يومهم، وأسفرت عن قتلي من الفريقين جميعاً، وانصرفوا .

فلما كان يوم الخميس ـ وهو اليوم الثانى ـ أخرج على هاشم بن عتبة بن أبى وقاص الزهرى المرْقَال ، وهو ابن أخى سعد بن أبى وقاص ، وإنما سمى المرقال لأنه كان يرقل فى الحرب، وكان أعور ذهبت عينه يوم اليرموك، وكان من شيعة على، فأخرج إليه معاوية أبا الأعور السلمى وهو سفيان بن عوف وكان من شيعة معاوية والمنحرفين عن على ، فكانت بينهم الحرب سجالاً، وانصرفوا فى آخر يومهم عن قتل كثير.

وأخرج على فى اليوم الثالث ـ وهو يوم الجمعة ـ أبا اليقظان عمار بن ياسر فى عدة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار فيمن تسرع معهم من الناس، وأخرج إليه معاوية عمرو بن العاص فى تنوخ وبهراء وغيرهما من أهل الشام، فكانت بينهم سجالا إلى الظهر، ثم حمل عمار بن ياسر فيمن

ذكرنا، فأزال عمراً عن موضعه وألحقه بعسكر معاوية، وأسفرت عن قتلى كثيرة من أهل الشام ودونهم من أهل العراق.

وأخرج على فى اليوم الرابع ـ وهو يوم السبت ـ ابنه محمد بن الحنفية فى همدان وغيرها ممن خف معه من الناس، فأخرج إليه معاوية عبيد الله بن عمر ابن الخطاب فى حمير ولخم وجُذام، وقد كان عبيد الله بن عمر لحق بمعاوية خوفا من علىّ أن يقيده بالهرمزان ـ وذلك أن أبا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة قاتل عمر، وكان فى أرض العجم غلاماً للهرمزان، فلما قُتل عمر شد عبيد الله على الهرمزان فقتله، وقال : لا أترك بالمدينة فارسياً ولا في غيرها إلا قتلته بأبى، وكان الهرمزان عليلا فى الوقت الذى قتل فيه عمرـ فلما صارت الخلافة إلي علىّ أراد قتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان لقتله إياه ظلماً من غير سبب استحقه فلجأ إلي معاوية، فاقتتلوا فى ذلك اليوم ، وكانت عَلَى أهل الشام، ونجا ابن عمر فى آخر النهار هرباً.

وأخرج علىّ فى اليوم الخامس ـ وهو يوم الأحد ـ عبد الله بن العباس فأخرج إليه معاوية الوليد بن عقبة بن أبى مُعيط، فاقتتلوا، وأكثر الوليد من سب بنى عبد المطلب بن هاشم، فقاتله ابن عباس قتالا شديداً، وناداه: أبرز إلى صوان، وكان لقب الوليد، وكانت الغلبة لابن عباس، وكان يوماً صعباً.

وأخرج على فى اليوم السادس ـ وهو يوم الاثنين ـ سعيد ابن قيس الهمدانى، وهو سيد همدان يومئذ، فأخرج إليه معاوية ذا الكلاع، وكانت بينهما إلى آخر النهار، وأسفرت عن قتلى، وانصرف الفريقان جميعاً.

وأخرج علىّ فى اليوم السابع ـ وهو يوم الثلاثاء ـ الأشتر فى النخع

وغيرهم، فأخرج إليه معاوية حبيب بن مسلمة الفهرى، فكانت الحرب بينهم سجالا، وصبر كلا الفريقين وتكافئوا وتواقفوا للموت ثم انصرف الفريقان وأسفرت عن قتلى منهما، والجراح فى أهل الشام أعم.

وخرج فى اليوم الثامن - وهو يوم الأربعاء - على رضى الله تعالى عنه بنفسه فى الصحابة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار وربيعة وهمدان.

قال ابن عباس : رأيت فى هذا اليوم علياً وعليه عمامة بيضاء، وكأن عينيه سراج سليط، وهو يقف على طوائف الناس فى مراتبهم يحثهم ويحرضهم، حتى انتهى إلى وأنا فى كثيف من الناس، فقال: يا معشر المسلمين ، عموا الأصوات، وأكملوا اللأمة، واستشعروا الخشية ، وأقلقوا السيوف فى الأجفان قبل السلة، والحظو السرر، واطعنوا الهبر، ونافحوا بالظبا، وصلوا السيوف بالخطا والنبال بالرماح، وطيبوا عن أنفسكم أنفساً، فإنكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله، عاودوا الكر، واستقبحوا الفر، فإنه عار فى الأعقاب، ونار يوم الحساب ودونكم هذا السواد الأعظم، والرواق المطنب، فاضربوا نهجه، فإن الشيطان راكب صعيده، مفترش ذراعيه، قد قدم للوثبة يداً وأخر للنكوص رجلاً، فصبرا جميلا حتى تنجلى عن وجه الحق، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم (ينقصكم) أعمالكم.

وتقدم علىّ للحرب على بغلة رسول الله ﷺ الشهباء، وخرج مُعاوية فى عدد أهل الشام، فانصرفوا عند المساء وكل غير ظافر.

وخرج فى اليوم التاسع - وهو يوم الخميس - علىّ، وخرج معاوية، فاقتتلوا

إلى ضحوة من النهار، وبرز أمام الناس عبيد الله بن عمر بن الخطاب فى أربعة آلاف من الخضرية معممين بشقاق الحرير الأخضر متقدمين للموت يطلبون بدم عثمان، وابن عمر يقدمهم. فناداه على : ويحك يا ابن عمر، علام تقاتلنى؟ والله لو كان أبوك حياً ما قاتلنى، قال : أطالب بدم عثمان، قال : أنت تطلب بدم عثمان، والله يطلبك بدم الهرمزان، وأمر على الأشتر النخعى بالخروج إليه، فخرج الأشتر إليه. فانصرف عنه عبيد الله ولم يبارزه، وكثرت القتلى يومئذ.

وقال عمار بن ياسر: إنى لأرى وجوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لكنا على الحق وكانوا على الباطل.

وتقدم عمار فقاتل ثم رجع إلي موضعه فاستسقى ، فأتته امرأة من نساء بنى شيبان من مصافهم بعُس فيه لبن، فدفعته إليه، فقال : الله أكبر الله أكبر، اليوم ألقى الأحبة تحت الأسنة، صدق الصادق، وبذلك أخبرنى الناطق ، وهو اليوم الذى وُعدت فيه، ثم قال : أيها الناس ، هل من رائح إلي الله تحت العوالى؟ والذي نفسى بيده لنقاتلنهم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله. فتوسط القوم ، واشتبكت عليه الأسنة ، فقتله أبو العادية العامى وابن جَون السكسكى ، واختلفا فى سلبه؛ فاحتكما إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال لهما: اخرجا عنى، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول ، أو قال : قال رسول الله ﷺ وولعت قريش بعمار "ما لهم ولعمار؟ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار" وكان قتله عند المساء وله ثلاث وتسعون سنة، وقبره بصفين وصلى عليه علىّ عليه السلام ولم يغسله، وكان يغير شيبه. وقد تنوزع فى نسبه فمن الناس من ألحقه ببنى مخزوم، ومنهم من رأى أنه من حُلفائهم، ومنهم من رأى غير ذلك.

ولما صرع عمار تقدم سعيد بن قيس الهمدانى فى همدان، وتقدم قيس ابن سعد بن عُبادة الأنصارى فى الأنصار وربيعة، وعدى بن حاتم فى طيىء وسعيد بن قيس الهمدانى فى أول الناس، فخلطوا الجمع بالجمع، واشتد القتال وحطمت همدان أهل الشام حتى قذفتهم إلى معاوية، وقد كان معاوية صَمد فيمن كان معه لسعيد بن قيس ومن معه من همدان، وأمر علىّ الأشتر أن يتقدم باللواء إلى أهل حمص وغيرهم من أهل قنسرين، فأكثر القتل فى أهل حمص وقنسرين بمن معه من القراء، وأبلى المرقال يومئذ بمن معه فلا يقوم له شىء، وجعل يرقل كما يرقل الفحل فى قيده، وعلىٌّ وراءه يقول له : يا أعور، لا تكن جبانا، تقدم. ثم صمد هاشم بن عتبة المرقال لذى الكلاع وهو فى حمير، فحمل عليه صاحب لواء ذى الكلاع، وكان رجلا من عُذرة.

فاختلفا طعنتين، فطعنه هاشم المرقال فقتله، وقتل بعده تسعة عشر رجلا، وحمل هاشم المرقال وحمل ذو الكلاع ومع المرقال جماعة من أسلم قد آلوا أن لا يرجعوا أو يفتحوا أو يقتلوا، فاجتلد الناس، فقتل هاشم المرقال، وقتل ذو الكلاع جميعاً، فتناول ابن المرقال اللواء حين قبل أبوه فى وسط المعركة وكر في العجاج.

ووقف على رضى الله عنه عند مصرع المرقال ومن صرع حوله من الأسلميين وغيرهم، فدعا لهم وترحم عليهم.

واستشهد فى ذلك اليوم صفوان وسعد ابنا حذيفة بن اليمان، وقد كان حذيفة عليلا بالكوفة في سنة ست وثلاثين، فبلغه قتل عثمان وبيعة الناس لعلى فقال : أخرجونى وادعوا الصلاة جامعة، فوضع على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ﷺ وعلى آله، ثم قال : أيها الناس ، إن الناس قد بايعوا

علياً فعليكم بتقوى الله وانصروا علياً ووازروه؛ فوالله إنه لعلي الحق آخراً وأولا ، وإنه لخير من مضى بعد نبيكم ومن بقى إلى يوم القيامة، ثم أطبق يمينه على يساره ثم قال : اللهم اشهد، إنى قد بايعت عليًا، وقال : الحمد لله الذى أبقانى إلى هذا اليوم، وقال لابنيه صفوان وسعد: احملانى وكوناً معه، فستكون له حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس، فاجتهدا أن تستشهدا معه، فإنه والله على الحق، ومن خالفه على الباطل، ومات حذيفة بعد هذا اليوم بسبعة أيام، وقيل: بأربعين يوماً واستشهد عبد الله بن الحارث النخعى أخو الأشتر واستشهد فيه عبد الله وعبد الرحمن ابنا بدَيل بن ورقاء الخزاعى فى خلق من خزاعة، وكان عبد الله فى ميسرة علَىَ.

فقتل ثم قتل عبد الرحمن أخوه بعده، فيمن ذكرنا من خزاعة.

ولما رأى معاوية القتل فى أهل الشام وكلب أهل العراق عليهم استدعى بالنعمان ابن جَبَلَة التنوخى - وكان صاحب راية قومه فى تنوخ وبهراء وقال له لقد هممت أن أولى قومك من هو خير منك مقدماً، وأنصح منك دينا، فقال له النعمان: إنا لو كنا ندعو قومنا إلى جيش مجموع لكان فى كسع الرجال بعض الأناة فكيف ونحن ندعوهم إلى سيوف فاطمة، ورُدَينية شاجرة، وقوم ذوى بصائر نافذة، والله لقد نصحتك على نفسى، وآثرت ملكك على دينى ، وتركت لهواك الرشد وأنا أعرفه،

وحدت عن الحق وأنا أبصره، وما وُفقت أرشد حين أقاتل على ملكك ابن عم رسول الله ﷺ وأول مؤمن به ومهاجر معه، ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعية، وأجزل فى العطية، ولكن قد بذلنا لك الأمر ولابد من إتمامه كان

غيا أو رشداً، وحاشا أن يكون رشداً، وسنقاتل عن تين الغوطة وزيتونها إذ حرمنا أثمار الجنة وأنهارها، وخرج إلى قومه، وصمد إلى الحرب.

وكان عبيد الله بن عمر إذا خرج إلى القتال قام إليه نساؤه فشددن عليه سلاحه، ما خلا الشيبانية بنت هانىء بن قبيصة، فخرج فى هذا اليوم، وأقبل على الشيبانية، وقال لها : إنى قد عبأت اليوم لقومك، وايم الله إنى لأرجو أن أربط بكل طنب من أطناب فُسطاطى سيداً منهم، فقالت له : ما أبغض إلا أن تقاتلهم قال : ولم ؟ قالت : لأنه لم يتوجه إليهم صنديد في جاهلية ولا إسلام وفي رأسه صعر إلا أبادوه، وأخاف أن يقتلوك، وكأنى بك قتيلا.

وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لى جيفتك، فرماها بقوس فشجها وقال لها : ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك، ثم توجه فحمل عليه حريث بن جابر الجعفى فطعنه فقتله، وقيل : إن الأشتر النخعى هو الذى قتله، وقيل : إن علياً ضربه ضربة فقطع ما عليه من الحديد حتى خالط سيفه حُشوة جوفه، وإن عليا قال حين هرب فطلبه ليقيد منه بالهرمزان: لئن فاتنى فى هذا اليوم لا يفوتنى فى غيره، وكلم نساؤه معاوية فى جيفته،

فأمر أن تأتين ربيعة فتبذلن في جيفته عشرة آلاف، ففعلن ذلك، فاستأمرت ربيعة علياً، فقال لهم: إنما جيفته جيفة كلب لا يحل بيعها، ولكن قد أجبتهم إلى ذلك ؛ فاجعلوا جيفته لبنت هانىء بن قبيصة الشيبانى زوجته،

فقالوا لنسوة عبيد الله : إن شئتن شددناه إلى ذنب بغل ثم ضربناه حتى يدخل إلى عسكر معاوية، فصرخن وقلن: هذا أشد علينا، وأخبرن معاوية بذلك، فقال لهن : أئتوا الشيبانية فسلوها أن تكلمهم فى جيفته، ففعلن ، وأتت القوم

وقالت : أنا بنت هانىء بن قبيصة وهذا زوجى القاطع الظالم وقد حذرته ما صار إليه فهبوا إلى جيفته، ففعلوا، وألقت إليهم بمطرف خز فأدرجوه فيه ودفعوه إليها فمضت به، وكان قد شد فى رجله إلى طنب فسطاط من فساطيطهم.

ولما قتل عمار ومن ذكرنا فى هذا اليوم حرض علىّ رضى الله عنه وقال لربيعة : أنتم درعى ورمحى، فانتدب له مابين عشرة آلاف إلى أكثر من ذلك من ربيعة وغيرهم، قد جادوا بأنفسهم لله عز وجل ، وعلىّ أمامهم على البغلة الشهباء.

وحمل وحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض، وأهمدوا كل ما أتوا عليه، حتى أتوا إلى قبة معاوية، وعلىٌ لا يمر بفارس إلا قده.

ثم نادى على : يا معاوية، علام يقتل الناس بينى وبينك؟ هلم أحاكمك إلى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور ، فقال له عمرو قد أنصفك الرجل، فقال له معاوية: ما أنصفت، وإنك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط إلا قتله أو أسره، فقال له عمرو: وما يجمل بك إلا مبارزته، فقال له معاوية: طمعت فيها بعدى، وحقدها عليه.

وقد قيل فى بعض الروايات : إن معاوية أقسم علي عمرو لما أشار عليه بهذا أن يبرز إلى علىّ، فلم يجد عمرو من ذلك بداً، فبرز، فلما التقيا عرفه علىّ وشال السيف ليضربه به ، فكشف عمرو عن عورته، وقال : مُكره أخوك لا بطل فحول علىٌ وجهه عنه، وقال : قبحت! ورجع عمرو إلى مصافه.

وقد ذكر هشام بن محمد الكلبى عن الشرق بن القطامى أن معاوية قال

لعمرو بعد انقضاء الحرب: هل غششتنى منذ نصحتنى ؟ قال : لا، قال : بلى والله يوم أشرت على بمبارزة على وأنت تعلم ماهو، قال : دعاك إلى المبارزة فكنت من مبارزته على إحدى الحسنيين: إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزداد شرفاً إلى شرفك ، وإما أن يقتلك فتكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، فقال معاوية ياعمرو، الثانية أشد من الأولى.

وكان فى هذا اليوم من القتال ما لم يكن قبل، فمن أخبار صفين أن هاشما المرقال لما وقع إلى الأرض وهو يجود بنفسه رفع رأسه فإذا عبيد الله بن عمر مطروحا إلى قربه جريحا، فحبا حتى دنا منه، فلم يزل يعض على ثدييه حتى ثبتت فيه أسنانه لعدم السلاح والقوة لأنه أصيب فوقه ميتاً هو ورجل من بكر بن وائل ، قد زحفا إلى عبيد الله جميعا فنهشاه، وانصرف القوم إلى مواضعهم، وخرج كل فريق منهم يحملون ما أمكن من قتلاهم.

ومر معاوية فى خواص من أصحابه فى الموضع الذى كان ميمنته فيه، فنظر إلى عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى مُعَفراً بدمائه، وقد كان على ميسرة على، فحمل على ميمنة معاوية فأصيب، فأراد معاوية أن يمثل به فقال له عبد الله بن عامر وكان صديقا لابن بديل: والله لاتركتك وإياه، فوهبه له، فغطاه بعمامته وحمله فواراه، فقال له معاوية : قد والله واريت كبشا من كباش القوم وسيداً من سادات خزاعة غير مُدافع، والله لو ظفرت بنا خزاعة لأكلونا، ولو أنا من جندل، دون هذا الكبش.

ونظر على إلى غسان في مصافهم لايزولون ، فحرض أصحابه عليهم ،

وقال : إن هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن يخرج منه النسيم، وضرب بفلق الهام ويصح العظام، وتسقط منه المعاصم والأكف، وحتى تشدخ جباههم بعُمُد الحديد، وتنتثر لمهم على الصدور والأذقان، أين أهل الصبر وطلاب الأجر؟ فثاب إليه عصابة من المسلمين من سائر الناس، فدعا ابنه محمداً، فدفع إليه الراية وقال : امش بها نحو هذه الراية مشياً رويداً، حتى إذا أشرعت فى صدورهم الرماح، فأمسك حتى يأتيك أمرى، ففعل، وأتاه علىٌّ ومعه الحسن والحسين وشيوخ بدر وغيرهم من الصحابة، وقد كردس الخيل، فحملوا على غسان ومن يليها فقتلوا منها بشراً كثيرا، وعادت الحرب في آخر النهار كحالها فى أوله، وحملت ميمنة معاوية وفيها عشرة آلاف من مذحج وعشرون ألفاً مقنعون فى الحديد على ميسرة على، فاقتطعوا ألف فارس، فانتدب من أصحاب على عبد العزيز بن الحارث الجعفى، وقال لعلى: مرنى بأمرك، فقال : شد الله ركنك! سر حتى تنتهى إلى إخواننا المحاط بهم، وقل لهم: يقول لكم على : كبروا ثم احملوا ونحمل حتى نلتقى، فحمل الجعفى، فطعن فى عرضهم حتى انتهى إليهم، فأخبرهم بمقالة على، فكبروا، ثم شدوا حتى التقوا بعلى، وشدخوا سبعمائة من أهل الشام، وقتل حوشب ذو ظليم، وهو كبش من كباش اليمن من أهل الشام، وكان على راية ذُهْل بن شيبان وغيرها من ربيعة الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الذهلى.

فأمره بالتقدم واختلط الناس ، وبطل النبل، واستعملت السيوف، وجنهم الليل، وتنادوا بالشعار، وتقصفت الرماح، وتكادم القوم، وكان يعتنق الفارس الفارس ويقعان جميعاً إلى الأرض عن فرسيهما، وكانت ليلة الجمعة - وهى ليلة الهرير- فكان جملة من قتل علىٌّ بكفه في يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرين

رجلا أكثرهم فى اليوم، وذلك أنه كان إذا قتل رجلا كبر إذا ضرب، ولم يكن يضرب إلا قتل، ذكر ذلك عنه من كان يليه فى حربه ولا يفارقه من ولده وغيرهم.

وأصبح القوم علي قتالهم، وكسفت الشمس، وارتفع القتال، وتقطعت الألوية والرايات ولم يعرفوا مواقيت الصلاة.

وكان الأشتر فى هذا اليوم - وهو يوم الجمعة - على ميمنة علي ، وقد أشرف على الفتح ، ونادت مشيخة أهل الشام: "يامعشر العرب" الله الله فى الحرمات والنساء والبنات، وقال معاوية: هلم مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا، وتذكر ولاية مصر، فقال عمرو: أيها الناس، مَنْ كان معه مصحف فليرفعه على رمحه، فكثر فى الجيش رفع المصاحف، وارتفعت الضجة ونادوا: كتاب الله بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ ومن لثغور العراق بعد أهل العراق؟ ومن لجهاد الروم؟ ومن للترك؟ ومن للكفار؟ ورفع فى عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف.

فلما رأى كثير من أهل العراق ذلك قالوا: نجيب إلى كتاب الله ونُنيب إليه، وأحب القوم الموادعة، وقيل لعلى : قد أعطاك معاوية الحق، ودعاك إلي كتاب الله فاقبل منه، وكان أشدهم فى ذلك اليوم الأشعث بن قيس، فقال على : أيها الناس، إنه لم يزل من أمركم ما أحب حتى قرحتكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت، وإنى كنت بالأمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً، وقد أحببتم البقاء، فقال الأشتر: إن معاوية لا خلف له من رجاله، ولك بحمد الله الخلف، ولو كان له مثل رجالك لما كان له مثل صبرك ولا نصرك، فاقرع الحديد بالحديد واستعن بالله، وتكلم رؤساء أصحاب عليّ بنحو من كلام الأشتر، فقال الأشعث بن قيس: إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس، ولسنا ندرى ما يكون غداً، وقد

والله فُل الحديد، وكلت البصائر، وتكلم معه غيره بكلام كثير، فقال على : ويحكم إنهم ما رفعوها لأنكم تعلمونها ولا يعلمون بها، وما رفعوها لكم إلا خديعة ودهاء ومكيدة، فقالوا له: إنه ما يسعنا أن نُدعى إلي كتاب الله فنأبى أن نقبله، فقال : ويحكم إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب، فقد عصوا الله فيما أمرهم به ، ونبذوا كتابه، فامضوا على حقكم وقصدكم، وخذوا فى قتال عدوكم؛ فإن معاوية وابن العاص وابن أبى مُعيط وحبيب بن مسلمة وابن النابغة وعدوا غير هؤلاء ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرف بهم منكم؛ صحبتهم أطفالا ورجالا، فهم شر أطفال ورجال، وجرى له مع القوم خطب طويل، وتهددوه أن يصنع به ما صنع بعثمان،

وقال الأشعث : إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد، قال : ذلك إليك فاته إن شئت، فأتاه الأشعث فسأله، فقال له معاوية: نرجع نحن وأنتم إلى كتاب الله وإلى ما أمر به فى كتابه: تبعثون منكم رجلا ترضونه وتختارونه، ونبعث برجل ، ونأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما فى كتاب الله ولا يخرجا عنه، وننقاد جميعاً إلى ما اتفقا عليه من حكم الله، فصوب الأشعث قوله، وانصرف إلى على، فأخبره ذلك، فقال أكثر الناس: رضينا وقبلنا وسمعنا وأطعنا ، فاختار أهل الشام عمرو بن العاص، وقال الأشعث ومن ارتد بعد ذلك إلى رأى الخوارج: رضينا نحن بأبى موس الأشعرى، فقال على : قد عصيتمونى فى أول هذا الأمر فلا تعصونى الآن، إنى لا أرى أن أولىَ أبا موسى الأشعرى،

فقال الأشعث ومن معه : لا نرضى إلا بأبى موسى الأشعرى، قال : ويحكم ! هو ليس بثقة : قد فارقنى وخذل الناس منى وفعل كذا وكذا، وذكر أشياء فعلها أبو موسى، ثم إنه هرب شهوراً حتى أمنته، لكن هذا عبد الله بن

عباس أوليه ذلك، فقال الأشعث وأصحابه: والله لا يحكم فينا مُضريان، قال عليّ: فالأشتر : قالوا : وهل هاج هذا الأمر إلا الأشتر، قال : فاصنعوا الآن ما أردتم، وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه، فبعثوا إلى أبى موسى وكتبوا له القصة، وقيل لأبى موسى : إن الناس قد اصطلحوا، فقال : الحمد لله، قيل : وقد جعلوك حكما، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون.

التحكيم

كان أبو موسى الأشعرى يحدث قبل وقعة صفين ويقول : إن الفتن لم تزل فى بنى إسرائيل ترفعهم وتخفضهم حتى بعثوا الحكمين يحكمان بحكم لايرضى به من ابتعهما وإن هذه الأمة لا تزال بها الفتن ترفعها وتخفضها حتى يبعثوا حكمين يحكمان بما لا يرضى به من اتبعثهما، فقال له سويد بن غفلة: إياك إن أدركت ذلك الزمان أن تكون أحد الحكمين ، قال : أنا ؟ قال : نعم أنت، قال : فكان يخلع قميصه ويقول : لا جعل الله لى إذا فى السماء مصعداً، ولا في الأرض مقعداً، فلقيه سويد بن غفلة بعد ذلك فقال : يا أبا موسى، أتذكر مقالتك؟ قال : سل ربك العافية.

وكان فيما كتب فى الصحيفة أن يحيى الحكمان ما أحيا القرآن! ويميتا ما أمات القرآن، ولا يتبعان الهوى، ولا يُداهنان فى شىء من ذلك فإن فعلا فلا حكم لهما، والمسلمون من حكمهما براء، وقال على للحكمين حين أكره علي أمرهما ورد الأشتر وكان قد أشرف في ذلك اليوم على الفتح فأخبره مخبر بما قالوا فى على وأنه إن لم يرده سلُم إلى معاوية يفعل به ما فعل بابن عفان ، فانصرف الأشتر خوفاً على عليّ فقال لهما عليٌّ: على أن تحكما بما فى كتاب

الله، وكتاب الله كله لى، فإن لم تحكما بما فى كتاب الله فلا حكم لكما، وصبروا الأجل إلى شهر رمضان على اجتماع الحكمين فى موضع بين الكوفة والشام، وكان الوقت الذى كتبت فيه الصحيفة لأيام بقين من صفر سنة سبع وثلاثين، وقيل : بعد هذا الشهر منها، ومر الأشعث بالصحيفة يقرؤها على الناس فرحاً مسروراً ، حتى انتهى إلى مجلس لبنى تميم، فيه جماعة من زعمائهم، منهم عروة بن أدية التميمى، وهو أخو بلال الخارجى، فقرأها عليهم، فجرى بين الأشعث وبين أناس منهم خطب طويل، وإن الأشعث كان بدء هذا الأمر والمانع لهم من قتال عدوهم حتى يفيئوا إلى أمر الله، وقال له عروة بن أدية: أتحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال ؟ لا حكم إلا لله، فكان أول من قالها وحكم بها، وقد تنوزع فى ذلك ، وشد بسيفه على الأشعث فضم فرصه عن الضربة فوقعت فى عجز الفرس ونجا الأشعث، وكادت العصبية أن تقع بين النزارية واليمانية، لولا اختلاف كلمتهم فى الديانة والتحكيم.

وقد تنوزع فى مقدار من قتل من أهل الشام والعراق بصفين : فذكر أحمد ابن الدورقى عن يحيى بن معين أن عدة من قتل بها من الفريقين فى مائة يوم وعشرة أيام مائة ألف وعشرة آلاف من الناس: من أهل الشام تسعون ألفاً، ومن أهل العراق عشرون ألفا، وكان عدد من حضر الحرب من أهل الشام بصفين أكثر مما قيل فى هذا الباب، وهو خمسون ومائة ألف مقاتل، سوى الخدم والأتباع، وعلى هذا يجب أن يكون مقدار القوم جميعاً من قاتل منهم ومن لم يقاتل من الخدم وغيرهم ثلثمائة ألف، بل أكثر من ذلك؛ لأن أقل من فيهم معه واحد يخدمه، وفيهم من معه الخمسة والعشرة من الخدم والأتباع وأكثر من ذلك، وأهل العراق كانوا فى عشرين ومائة ألف مقاتل دون الأتباع والخدم.

وأما الهيثم بن عدى الطائى وغيره مثل الشرقى بن القطاعى وأبى مخنف لوط ابن يحيى فذكروا أن جملة من قتل من الفريقين جميعاً سبعون ألفا: من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً ، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا، فيهم خمسة وعشرون بدريا، وأن العدد كان يقع بالتقصى والإحصاء للقتلي فى كل وقعة، وتحصيل هذا يتفاوت ؛ لأن فى قتلى الفريقين من يُعرف ومن لا يعرف، وفيهم من غرق، وفيهم من قتل في البر؛ فأكلته السباع فلم يدركهم الإحصاء.

ولما وقع التحكيم تباغض القوم جميعا وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض: يتبرأ الأخ من أخيه، والاب من أبيه، وأمر علىٌّ بالرحيل، لعله باختلاف الكلمة، وتفاوت الرأى، وعدم النظام لأمورهم، وما لحقه من الخلاف منهم، وكثر التحكيم فى جيش أهل العراق، وتضارب القوم بالمقارع والنعال والسيوف، وتسابوا ، ولام كل فريق منهم الآخر فى رأيه، وسار علىٌّ يؤم الكوفة، ولحق معاوية بدمشق من أرض الشام، وفرق عساكره فلحق كل جند منهم ببلده.

ولما دخل علىّ رضى الله عنه الكوفة انحاز عنه اثنا عشر ألفاً من القراء وغيرهم فلحقوا بحروراء قرية من قرى الكوفة - وجعلوا عليهم شبيب بن ربعى التميمى، وعلى صلاتهم عبد الله بن الكواء اليشكرى من بكر بن وائل، فخرج علىّ إليهم وكانت له معهم مناظرات، فدخلوا جميعا الكوفة، وإنما سُموا الحرورية لاجتماعهم فى هذه القرية، وانحيازهم إليها.

وقد ذكر يحيى بن معين قال : حدثنا وهب بن جابر بن حازم، عن الصلت ابن بهرام ، قال : لما قدم علىّ الكوفة جعلت الحرورية تناديه وهو على المنبر: جزعت من البلية، ورضيت بالقضية، وقبلت الدنية، لا حكم إلا لله ، فيقول : حُكم الله أنتظر فيكم، فيقولون «ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت

ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين» فيقول على : «فاصبر إن وعد الله حق، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون».

وفى سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين بدومة الجندل، وقيل : بغيرها، وبعث علىّ بعبد الله بن العباس وشريح ابن هانىء الهمدانى في أربعمائة رجل فيهم أبو موسى الأشعرى، وبعث معاوية بعمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن السمط فى أربعمائة، فلما تَدَانى القوم من الموضع الذى كان فيه الاجتماع قال ابن عباس لأبى موسى: إن علياً لم يرض بك حكما لفضل عندك والمتقدمون عليك كثير، وإن الناس أبوا غيرك، وإنى لأظن ذلك لشر يُراد بهم، وقد ضم داهية العرب معك، إن نسيت فلا تنس أن علياً بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة، وليس فى معاوية خصلة تقربه من الخلافة، ووصى معاوية عمراً حين فارقه وهو يريد الاجتماع بأبى موسى، فقال: يا أبا عبد الله، إن أهل العراق قد أكرهوا علياً على أبى موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأى، فأخذ الجد ، وطبق المفصل، ولا تلقه برأيك كله، ووافاهم سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن عوف الزهرى والمغيرة ابن شعبة الثقفى وغيرهم،

وهؤلاء ممن قعد عن بيعة على، فى آخرين من الناس، وذلك فى شهر رمضان من سنة ثمان وثلاثين، فلما التقى أبو موسى وعمرو قال عمرو لأبى موسى: تكلم وقل خيراً ، فقال أبو موسى : بل تكلم أنت يا عمرو فقال عمرو: ما كنت لأفعل وأقدم نفسى قبلك، ولك حقوق كلها واجبة لسنك وصحبتك رسول الله ﷺ ، وأنت ضيف، فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه، وذكر الحدث الذى حل بالإسلام، والخلاف الواقع بأهله، ثم قال : يا عمرو، هلم إلى أمر يجمع الله به

الألفة، ويلم الشعث، ويصلح ذات البين؟ فجزاه عمرو خيراً ، وقال : إن للكلام أولا وآخراً، ومتى تنازعنا الكلام خطباً لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله، فاجعل ما كان من كلام بيننا فى كتاب يصير إليه أمرنا، قال : فاكتب ، فدعا عمرو بصحيفة وكاتب، وكان الكاتب غلاماً لعمرو، فتقدم إليه ليبدأ به أولا دون أبى موسى ؛ لما أراد من المكر به، ثم قال له بحضرة الجماعة: اكتب فإنك شاهد علينا، ولا تكتب شيئا يأمرك به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه، فإذا أمرك فاكتب، وإذا نهاك فانته حتى يجتمع رأينا، اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان فكتب، وبدأ بعمرو، فقال له عمرو: لا أم لك ! أتقدمنى قبله كأنك جاهل بحقه؟ فبدأ باسم عبد الله بن قيس، وكتب : تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، ثم قال عمرو: ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ عمل بكتاب الله وسنة رسول الله حتى قبضه الله إليه، وقد أدى الحق الذى عليه،

قال أبو موسى : اكتب ، ثم قال فى عمر مثل ذلك، فقال أبو موسى : أكتب، ثم قال عمرو: واكتب "وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضاً منهم، وأنه كان مؤمنا، فقال أبو موسى الأشعرى : ليس هذا مما قعدنا له، قال عمرو: والله لابد من أن يكون مؤمناً أو كافراً فقال أبو موسى : كان مؤمنا، قال عمرو : فمره يكتب : قال أبو موسى : أكتب، قال عمرو: فظالما قتل عثمان أو مظلوما، قال أبو موسى: بل قتل مظلوما ،

قال عمرو : أفليس قد جعل الله لولى المظلوم سلطانا يطلب بدمه؟ قال أبو

موسى : نعم، قال عمرو: فهل تعلم لعثمان وليا أولى من معاوية ؟ قال أبو موسى : لا ، قال عمرو: أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه؟ قال أبو موسى : بلى، قال عمرو للكاتب : أكتب ، وأمره أبو موسى فكتب، قال عمرو: فإنا نقيم البينة أن عليا قتل عثمان، قال أبو موسى : هذا أمر قد حدث فى الإسلام، وإنما اجتمعنا لغيره، فهلم إلى أمر يصلح الله به أمر أمة محمد، قال عمرو: وما هو؟

قال أبو موسى: قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبداً، وأن أهل الشام لا يحبون عليا أبداً؛ فهلم نخلعهما جميعا ونستخلف عبد الله بن عمر؟ وكان عبد الله بن عمر على بنت أبى موسى، قال عمرو: أيفعل ذلك عبد الله بن عمر؟ قال أبو موسى : نعم إذا حمله الناس على ذلك فعل، فعمد عمرو إلى كل ما مال إليه أبو موسى فصوبه، وقال له : هل لك فى سعد ؟

قال له أبو موسى : لا، فعدد له عمرو جماعة وأبو موسى يأبى ذلك إلا ابن عمر فأخذ عمرو الصحيفة وطواها وجعلها تحت قدمه بعد أن ختماها جميعا، وقال عمرو: أرأيت إن رضى أهل العراق بعبد الله بن عمر وأباه أهل الشام أتقاتل أهل الشام؟ قال أبو موسى : لا، قال عمرو: فإن رضى أهل الشام وأبي أهل العراق أتقاتل أهل العراق ؟ قال أبو موسى : لا ، قال عمرو: أما إذا رأيت الصلاح فى هذا الأمر والخير للمسلمين فقم فاخطب الناس، واخلع صاحبينا معا وتكلم باسم هذا الرجل الذي تستخلفه، فقال أبو موسى : بل أنت قم فاخطب فأنت أحق بذلك، قال عمرو: ما أحب أن أتقدمك، وما قولى وقولك للناس إلا قول واحد، فقم راشداً.

مقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب

رضى الله عنه !

وفى سنة أربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج، فتذاكروا الناسَ، وماهم فيه من الحرب والفتنة، وتعاهد ثلاثة منهم على قتل علىّ، ومعاوية وعمرو بن العاص، وتواعدوا، واتفقوا على أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذى يتوجه إليه، حتى يقتله أو يُقتل دونه، وهم : عبد الرحمن ابن مُلجم، لعنه الله ! وكان من تُجيب، وكان عدادهم فى مُراد، فنسب إليهم، وحجاج بن عبد الله الصريمى، ولقبه: البُرك، وزادويه : مولى بنى العنبر، فقال ابن مُلجَم - لعنه الله ! - أنا أقتل عليّا، وقال البرك : أنا أقتل معاوية، وقال زادويه: أنا أقتل عمرو بن العاص، واتعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من شهر رمضان، وقيل : ليلة إحدى وعشرين.

فخرج عبد الرحمن بن مُلجم المرادي إلى علىَ، فلما قدم الكوفة أتى قطام بنت عمه، وكان علىٌّ قد قتل أباها وأخاها يوم النهروان، وكانت أجمل أهل زمانها، فخطبها، فقالت: لا أتزوج حتى تسمى لى، قال : لا تسألّيى شيئًا إلا أعطيته، فقالت : ثلاثة آلاف وعبداً وقينة، وقتل علىّ، فقال : ما سألت هو لك مهر إلا قتل على ، فلا أراك تدركينه، قالت : فالتمس غرته، فإن أصبته شفيت نفسى ونفعك العيش معى، وإن هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا، فقال : والله ماجاء بى إلى هذا المصر، وقد كنت هاربًا منه إلا ذلك، وقد أعطيتك ما سألت ، وخرج من عندها.

فلقيه رجل من أشجع يقال له شبيب بن نجدة من الخوارج، فقال له : هل

لك فى شرف الدنيا والآخرة؟ فقال : وما ذاك ؟ قال : تساعدني علي قتل عليّ، قال : ثكلتك أمك! لقد جئت شيئًا إدا، قد عرفت غناءه فى الإسلام، وسابقته مع النبى ﷺ، فقال ابن مُلجم: ويحك! أما تعلم أنه قد حكم الرجال في كتاب الله، وقتل إخواننا المصلين؟ فنقتله ببعض إخواننا، فأقبل معه حتى دخل على قطام، وهى فى المسجد الأعظم، معتكفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر رمضان، فأعلمتهما أن مجاشع بن وردان بن علقمة قد انتدب لقتله معهما، فدعت لهما بحرير فعصبتهما وأخذوا أسيافهم وقعدوا مقابلين لباب السدة التى يخرج منها على للمسجد، وكان على يخرج كل غداة أول الأذان يوقظ الناس للصلاة، وقد كان ابن مُلجم مر بالأشعث وهو فى المسجد، فقال له: فضحك الصبح، فسمعها حُجر بن عدى، فقال : قتلته يا أعور قتلك الله، وخرج على رضى الله عنه ينادى : أيها الناس، الصلاة ، فشد عليه ابن مُلجم وأصحابه وهم يقولون : الحكم لله، لا لك ، وضربه ابن مُلجم على رأسه بالسيف فى قرنه، وأما شبيب فوقعت ضربته بعضادة الباب، وأما مجاشع بن وردان فهرب، وقال على: لا يفوتنكم الرجل، وشد الناس على ابن مُلجم يرمونه بالحصباء، ويتناولونه ويصيحون ، فضرب ساقه رجل من همدان برجله، وضرب المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وجهه فصرعه، وأقبل به إلى الحسن، ودخل ابن وردان بين الناس، فنجا بنفسه، وهرب شبيب حتى أتى رحله، فدخل إليه عبد الله بن نجدة ـ وهو أحد بنى أبيه فرآه ينزع الحرير عن صدره ، فسأله عن ذلك، فخبره خبره فانصرف عبد الله إلى رحله، وأقبل إليه بسيفه فضربه حتى قتله.

وقيل : إن عليّا لم ينم تلك الليلة، وإنه لم يزل يمشى بين الباب والحجرة، وهو يقول : والله ما كذبت ولا كُذبت، وإنها لليلة التى وعدت فيها فلما خرج

صاح بط كان للصبيان، فصاح بهن بعض من فى الدار، فقال على : ويحك! دعهن فإنهن نوائح.

وقد ذكرت طائفة من الناس أن عليًا رضى الله عنه أوصى إلى ابنيه الحسن والحسين ؛ لأنهما شريكاه فى آية التطهير، وهذا قول كثير ممن ذهب إلى القول بالنص ، قلت : وهذا من قول الشيعة ولا دليل عليه .

ودخل عليه الناس يسألونه، فقالوا : يا أمير المؤمنين، أرأيت إن فقدناك، ولا نفقدك، أنبايع الحسن ؟ قال : لا آمركم ولا أنهاكم، وأنتم أبصرُ، ثم دعا الحسن والحسين ، فقال لهما: أوصيكما بتقوى الله وحده، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ولا تأسفا علي شيء منها، قولا الحق، وارحما اليتيم، وأعينا الضعيف، وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا، ولا تأخذكما فى الله لومة لائم؛ ثم نظر إلي ابن الحنفية فقال : هل سمعت ما أوصيت به أخويك؟ قال : نعم، قال : أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك، وتزيين أمرهما، ولا تقطعن أمراً دونهما، ثم قال لهما : أوصيكما به، فإنه سيفكما وابن أبيكما، فأكرماه واعرفا حقه.

فقال له رجل من القوم : ألا تعهد يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا، ولكنى أتركهم كما تركهم رسول الله ﷺ ، قال : فماذا تقول لربك إذا أتيته؟ قال : أقول: اللهم إنك أبقيتنى فيهم ما شئت أن تبقينى، ثم قبضتنى وتركتك فيهم فإن شئت أفسدتهم، وإن شئت أصلحتهم، ثم قال : أما والله إنها الليلة التى ضرب فيها يُوشع بن نون ليلة سبع عشرة، وقبض ليلة إحدى وعشرين.

وبقى على الجمعة والسبت، وقبض ليلة الأحد، ودفن بالرحبة عند مسجد الكوفة.

وقبض وقد أتى عليه اثنتان وسبعون سنة ، وقيل : اثنتان وستون، وقد تنازع الناس فى مقدار سنه، وكان كما قال الحسن: والله لقد قبض فيكم الليلة رجل ما سبقه الأولون إلا بفضل النبوة، ولا يدركه الآخرون ، وإن رسول الله ﷺ كان يبعثه المبعث فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه.

وكان الذى صلى عليه الحسن ابنه، وكبر عليه سبعًا، وقيل غير ذلك.

ولم يترك صفرا، ولا بيضاء، إلا سبعمائة درهم بقيت من عطائه، أراد أن يشترى بها خادمًا لأهله، وقال بعضهم: ترك لأهله مائتين وخمسين درهما ومصحفه وسيفه.

ولما أرادوا قتل ابن مُلجم لعنه الله قال عبد الله بن جعفر: دعونى حتى أشفى نفسى منه، فقطع يديه ورجليه وأحمى له مسماراً حتى إذا صار جمرة كحله به، فقال : سبحان الذى خلق الإنسان، إنك لتكحل عمك بملمول الرصاص، ثم إن الناس أخذوه وأدرجوه فى بوارى ثم طلوها بالنفط وأشعلوا فيها النار فاحترق .

وكان آخر من خرج من الخوارج ربيعة المعروف بغيرون، فأدخل على المقتدر بالله، بعث به ابن حمدان من كفرتوتا، وقد كان خرج فى أيامه أيضًا المعروف بأبى شعيب.

وقد رثى الناس أمير المؤمنين عليًا رضى الله عنه فى ذلك الوقت وإلي هذه الغاية، وذكروا مقتله، ومن رثاه فى ذلك الوقت أبو الأسود الدؤلى

البرك ومعاوية :

وانطلق البركُ الصريمى إلى معاوية فطعنه بخنجر في أليته وهو يصلى فأخذ وأوقف بين يديه، فقال له : ويلك ! وما أنت ؟ وما خبرك؟ قال : لا تقتلنى وأخبره، قال : إنا تبايعنا فى هذه الليلة عليك وعلى علىّ وعلى عمرو؛ فإن أردت فاحبسنى عندك، فإن كانا قتلا وإلا خليت سبيلى فطلبت قتل علىّ، ولك علي أن أقتله وأن آتيك حتى أضع يدى فى يدك، فقال بعض الناس : قتله يومئذ، وقال بعضهم: حبسه حتى جاءه خبر قتل على فأطلقه.

وانطلق زادويه ـ وقيل : إنه عمرو بن بكر التميمى ـ إلى عمرو بن العاص، فوجد خارجة قاضى مصر جالساً على السرير يطعم الناس فى مجلس عمرو ، وقيل : بل صلى خارجة بالناس الغداة ذلك اليوم، وتخلف عمرو عن الصلاة لعارض، فضربه بالسيف، فدخل عليه عمرو وبه رمق، فقال له خارجة : والله ما أراد غيرك، فقال عمرو: ولكن الله أراد خارجة، وأوقف الرجل بين يدى عمرو، فسأله عن خبره؛ فقص عليه القصة وأخبره أن علياً ومعاوية قد قتلا فى هذه الليلة، فقال : إن قتلا أو لم يقتلا فلابد من قتلك، فبكى، فقيل له : أجزعاً من الموت مع هذا الإقدام؟ ! قال : لا والله، ولكن غما أن يفوز صاحباى بقتل على ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو، فضربت عنقه وصلب.

وسمعا منه في الوقت الذى قتل فيه، فإنه قد خرج إلى المسجد، وقد عسر عليه فتح باب داره، وكان من جنوع النخل، فاقتلعه وجعله ناحية، وانحل إزاره، فشده وجعل ينشد.

وقد كان معاوية دس أناساً من أصحابه إلى الكوفة يشيعون موته، وأكثر

الناس القول فى ذلك حتى بلغ عليا، فقال فى مجلسه: قد أكثرتم من نعى معاوية، والله ما مات ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمى، وإنما أراد ابن آكلة الأكباد أن يعلم ذلك منى، فبعث من يشيع ذلك فيكم ليعلم ويتيقن ما عندى فيه، وما يكون من أمره فى المستقبل من الزمان، ومر فى كلام كثير يذكر فيه أيام معاوية ومن تلاه من يزيد ومروان وبنيه وذكر الحجاج وما يسومهم من العذاب، فارتفع الضجيج، وكثر البكاء والشهيق، فقام قائم من الناس فقال : يا أمير المؤمنين، ولقد وصفت أموراً عظيمة، آلله إن ذلك كائن؟ قال على: والله إن ذلك لكائن، ما كذبت ولا كذبت، فقال آخرون: متى يكون ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : إذا خُضبت هذه من هذه، ووضع إحدى يديه على لحيته والأخرى على رأسه، فأكثر الناسُ من البكاء، فقال : لا تبكوا فى وقتكم هذا فستبكون بعدى طويلا، فكاتب أكثر أهل الكوفة معاوية سراً فى أمورهم، واتخذوا عنده الأيادى، فوالله ما مضت إلا أيام قلائل حتى كان ذلك (١).

من أخبار على وزهده

لم يلبس (رضى الله عنه) فى أيامه ثوبا جديداً، ولا اقتنى ضيعة ولا رَبْعاً، إلا شيئاً كان له بينبع مما تصدق به وحبسه.

والذى حفظ الناس عنه من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة؛ وتداول الناس ذلك عنه قولا وعملا.

وقيل له: مَن خيار العباد؟ قال : الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤا

---

(١) لعل ما أخبر به على (رضى الله عنه) أخبره به النبى ﷺ ، قال تعالى : عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحداً إلا من ارتضى من رسول ... الآية .

استغفروا وإذا أعطوا شكروا وإذا ابتلوا صبروا، وإذا أغضبوا غفروا.

وكان يقول : الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، الدنيا مسجد أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحيه، ومتجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة، ومن ذا يذمها وقد آذنت ببينها، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها، ومثلت لهم ببلائها البلاء، وشوقت بسرورها إلى السرور، وراحت بفجيعة، وابتكرت بعافية؛ تحذيراً وترغيباً وتخويفًا، فذمها رجال غب الندامة، وحمدها آخرون غب المكافأة، ذكرتهم فذكرا تصاريفها، وصدقتهم فصدقوا حديثها، فياأيها الذامُ للدنيا المغتر بغرورها، متى استدامت لك الدنيا؟ بل متي غرتك من نفسها؟ أبمضاجع آبائك من البلى؟ أم بمصارع أمهاتك من الثرى؟ كم قد عللت بكفك ومرضت بيدك من تبغى له الشفاء وتستوصف له الدواء من الأطباء! لم تنفعه بشفائك، ولم تسعف له بطلبتك، وقد مثلت لك به الدنيا نفسك، وبمصرعه مصرعك: غداً لا ينفعك بكاؤك، ولا يغنى عنك أحساؤك - ولا تسمع فى مدح الدنيا أحسن من هذا.

ومما حفظ من كلامه فى بعض مقاماته في صفة الدنيا أنه قال : ألا إن الدنيا قد ارتحلت مُدبرة، وإن الآخرة قد دنت مُقبلة، ولهذه أبناء، ولهذه أبناء ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا وكونوا من الزاهدين فى الدنيا، والراغبين فى الآخرة، إن الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الأرض بساطًا والتراب فراشًا والماء طيبًا، وقوضُوا الدنيا تقويضًا، ألا ومن اشتاق إلي الجنة سَلاَ عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات، ومن راقب الآخرة سارع في الخيرات، ألا وإن لله عباداً كأنهم يرون أهل الجنة فى الجنة منعمين مخلدين، ويرون أهل النار فى النار

معذبين قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، أنفسهم عفيفة، وحاجتهم خفيفة صبروا أياماً قليلة فصارت لهم العقبى، راحة طويلة، أما الليل فصافوا أقدامهم، تجرى دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم، ويسعون فى فكاك رقابهم، وأما النهار فعلماء حكماء بررة أتقياء، كأنهم القداح براهم الخوف والعبادة ينظر إليهم الناظر فيقول : مرضى، وما بالقوم من مرض، إن خولطوا فقد خالطهم أمر عظيم من ذكر النار ومن فيها.

وقال لابنه الحسن: يا بنى، استغن عمن شئت تكن نظيرهُ، وسل من شئت تكن حقيره، وأعط من شئت تكن أميره.

ودخل عليه رجل من أصحابه فقال : كيف أصبحت يا أمير المؤمنين؟ قال: أصبحت ضعيفاً مُذنباً، آكل رزقى، وأنتظر أجلى، قال : وما تقول فى الدنيا؟ قال: وما أقول فى دار أولها غم، وآخرها موت، من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، حلالها حساب، وحرامها عقاب، قال : فأى الخلق أنعم؟ قال : أجساد تحت التراب، قد أمنت من العقاب، وهى تنتظر الثواب.

ودخل ضرار بن ضمرة ـ وكان من خواص على ـ على معاوية وافداً، فقال له: صف لى علياً، قال : أعفنى يا أمير امؤمنين، قال معاوية: لابد من ذلك، فقال: أما إذا كان لابد من ذلك فإنه كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فَصْلا، ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يعجبه من الطعام ماخشن، ومن اللباس ماقصر وكان والله يجيبنا إذا دعوناه، ويعطينا إذا سألناه، وكنا والله ـ على تقريبه لنا وقربه منا ـ لا نكلمه هيبة له، ولا نبتدئه لعظمه فى نفوسنا، يبسم عن ثغر كاللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويرحم المساكين ، ويطعم فى المسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة، يكسو العُريان، وينصر

اللهفان، ويستوحش من الدنيا وزهرها، ويأنس بالليل وظلمته، وكأنى به وقد أرخى الليل سُدوله، وغارت نجومه ، وهو فى محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكى بكاء الحزين، ويقول : يا دنيا غُرى غيرى، ألى تعرضت أم إلى تشوفت ؟ هيهات هيهات !! لا حان حينك، قد أبنتك ثلاثًا لا رجعة لى فيك، عمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك يسير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق.

فقال له معاوية : زدنى شيئًا من كلامه، فقال ضرار : كان يقول : أعجب ما فى الإنسان قلبه، وله مواد من الحكمة، وأضداد من خلافها، فإن سنح له الرجاء أماله الطمع، وإن مال به الطمع أهلكه الحرص، وإن ملكه القنوط قتله الأسف، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ، وإن أسعده الرضا فى التحفظ، وإن ناله الخوف فضحه الجزع ، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى، وإن عضته فاقة فضحه الفقر، وإن أجهده الجوع أقعده الضعف، وإن أفرط به الشبع كظته البطنة، فكل تقصير به مضر، وكل إفراط له مفسد.

فقال له معاوية: زدنى كلما وعيته من كلامه، قال : هيهات أن آتى على جميع ما سمعته منه، ثم قال : سمعته يوصى كميل بن زياد ذات يوم فقال له : يا كميل ذُبَّ عن المؤمن فإن ظهره حمى الله، ونفسه كريمة على الله وظالمه خصم الله، وأحذركم من ليس له ناصر إلا الله.

قال : وسمعته يقول ذات يوم: إن هذه الدنيا إذا أقبلت على قوم أعارتهم محاسن غيرهم، وإذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن أنفسهم.

قال : وسمعته يقول : بطر الغنى يمنع من عز الصبر.

قال : وسمعته يقول : ينبغى للمؤمن أن يكون نظره عبرة، وسكوته فكرة، وكلامه حكمة. وكان رسول الله ﷺ ـ بعد أن قتل جعفر بن أبى طالب الطيار بمؤتة من أرض الشام لا يبعث بعلى فى وجه من الوجوه إلا يقول : رب لا تذرنى فرداً ، وأنت خير الوارثين.

وحمل علىٌّ يوم أحد على كردوس من المشركين خشن فكشفهم، فقال جبريل : يا محمد، إن هذه لهى المواساة، فقال النبى ﷺ : يا جبريل إن علياً منى" قال جبريل : وأنا منكم، كذلك ذكره إسحاق عن ابن إسرائيل وغيره.

ووقف على على سائل، فقال للحسن : قل لأمك تدفع إليه درهما، فقال : إنما عندنا ستة دراهم للدقيق، فقال على : لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده، ثم أمر للسائل بالستة الدراهم كلها، فما برح على رضى الله عنه حتى مر به رجل يقود بعيراً، فاشتراه منه بمائة وأربعين درهما، وأنسأ أجله ثمانية أيام، فلم يحل أجله حتى مر به رجل والبعير معقول فقال : بكم هذا؟ فقال: بمائتى درهم، فقال : قد أخذته، فوزن له الثمن، فدفع على منه مائة وأربعين درهما للذى ابتاعه منه، ودخل بالستين الباقية على فاطمة عليها السلام، فسألته : من أين هى ؟ فقال: هذه تصديقٌ لما جاء به أبوك ﷺ: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها».

ومر ابن عباس بقوم ينالون من على ويسبونه، فقال لقائده: أدننى منهم، فأدناه، فقال : أيكم الساب الله ؟ قالوا: نعوذ بالله أن نسب الله ، فقال : أيكم الساب رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : نعوذ بالله أن نسب رسول اله ﷺ ، فقال : أيكم الساب على بن أبى طالب؟ قالوا: أما هذه فنعم، قال : أشهد لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : "من سبنى فقد سب الله، ومن سب علياً فقد سبنى"

فاطرقوا . قال زدني فداك أبي وأمي، قال : ما عندي مزيد.

وقد ذكر جماعة من أهل النقل عن أبي عبد الله جعفر بن محمد عن أبيه محمد ابن علي بن الحسين بن علي بن عليّ قال في صبيحة الليلة التي ضربه فيها عبد الرحمن ابن مُلجم، بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ﷺ: كل امرىء ملاقيه ما يفر منه، والأجل تساق النفس إليه، والهرب منه موافاته، كم أطردت الأيام أتحينها عن مكنون هذا الأمر فأبي الله عز وجل إلا إخفاءه، هيهات علم مكنون، أما وصيتي فالله لا تشركوا به شيئًا، ومحمداً لا تضيعوا سنته، أقيموا هذين العمودين، حمل كل امرىء منكم مجهوده، وخفف عن الحملة رب رحيم، ودين قويم، وإمام عليم، كنا في إعصار ذي رياح تحت ظل غمامة اضمحل راكدها فمحطها من الأرض حيا، وبقي من بعدي جثة جاواء، ساكنة بعد حركة، كاظمة بعد نُطق، ليعظكم هدوئي وخُفُوت أطرافي، إنه أوعظ لكم من نطق البليغ، ودعتكم وداع امرىء مرصد لتلاق، وغدا ترون ويكشف عن ساق، عليكم السلام إلى يوم المرام، كنت بالأمس صاحبكم واليوم عظة لكم وغداً أفارقكم، إن أفق فأنا ولي دمي، وإن أمت فالقيامة ميعادي، والعفو أقرب للتقوى، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم.

ومن خطبه قبل هذا وتزهيده في هذه الدنيا قوله في بعض مقاماته وخطبه: إن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أشرفت وأقبلت باطلاع، وإن المضمار اليوم والسباق غدا، ألا إنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن أخلص في أيام أمله قبل حضور أجله فقد حسن عمله، وما قصر أجله، ومن قصر في أيام أجله خسر أجله، ألا فاعملوا لله في الرغبة، كما تعملون في الرهبة، ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها، ألا وإنه من لم

ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم له الهدى يخزيه الضلال وقد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل. وفضائل على ومقاماته ومناقبه ووصف زهده ونسكه أكثر من أن يأتى عليه كتاب .

قال المسعودى : والأشياء التى استحق بها أصحاب رسول الله ﷺ الفضل هى : السبق إلى الإيمان ، والهجرة ، والنصرة لرسول الله ﷺ ، والقربى منه والقناعة وبذل النفس له، والعلم بالكتاب والتنزيل، والجهاد فى سبيل الله، والورع، والزهد ، والقضاء، والحكم ، والفقه والعلم وكل ذلك لعلى عليه السلام منه النصيب الأوفر، والحظ الأكبر، إلى ما ينفرد به من قول رسول الله ﷺ حين آخى بين أصحابه " أنت أخى" وهو ﷺ لا ضد له، ولا ند، وقوله صلوات الله عليه: "أنت منى بمنزلة هرون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى" وقوله عليه الصلاة والسلام: "من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم والى من والاه، وعاد من عاداه" ثم دعاؤه عليه السلام وقد قدم إليه أنس الطائر: اللهم أدخل إلى أحب خلقك إليك يأكل معى من هذا الطائر، فدخل عليه على، إلى آخر الحديث، فهذا وغيره من فضائله وما اجتمع فيه من الخصال مما تفرق فى غيره، ولكل فضائل ممن تقدم وتأخر، وقبض النبى ﷺ وهو راضٍ عنهم، مُخبر عن بواطنهم بموافقتها لظواهرهم بالإيمان، وبذلك نزل التنزيل، وتولى بعضهم بعضاً، فلما قبض رسول الله ﷺ وارتفع الوحى حدثت أمور تنازع الناس فى صحتها منهم، وذلك غير يقين، ولا يُقطع عليهم بها، واليقين من أمورهم ما تقدم، وما روى مما كان فى أحداثهم بعد نبيهم ﷺ فغير متيقن، بل هو ممكن، ونحن نعتقد فيهم ما تقدم، والله أعلم بما حدث، والله ولى التوفيق.

خلافة الحسن بن على

رضى الله عنه

لما قتل عثمان رضى الله عنه ، نشب الخلاف بين على (رضى الله عنه) أمير المؤمنين وبين معاوية بن أبى سفيان أمير الشام وقامت بينهما الحروب حتى كان التحكيم وفيه خلع أبو موسى الأشعرى على بن أبى طالب (رضى الله عنه) وثبت عمرو بن العاص معاوية، ثم ما لبث على أن قتل على يد الخارجى عبد الرحمن بن ملجم وبايع أهل المدينة الحسن بن على بن أبى طالب خليفة للمسلمين.

وقد كان الناس قد اجتمعوا حول على وهو فى جراحه وقالوا له : استخلف يا أمير المؤمنين فقال لا ولكن أدعكم كما ترككم رسول الله ﷺ يعنى بغير استخلاف- فإن يرد الله بكم خيرا يجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله ﷺ ، فلما توفى وصلى عليه ابنه الحسن- لأنه أكبر بنيه رضى الله عنهم - ودفن بدار الإمارة، فلما فرغ من شأنه كان أول من تقدم إلى الحسن بن على قيس بن سعد بن عبادة فقال له : ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه، فسكت الحسن فبايعه ثم بايعه الناس بعده وكان ذلك يوم مات على،

وكان موته يوم ضرب وهو يوم الجمعة السابع عشر من رمضان سنة أربعين، وقيل إنما مات بعد الطعنة بيومين، وقيل مات فى العشر الأخير من رمضان، والأشهر أنه مات فى السابع عشر من رمضان، ومن يومئذ ولى الحسن بن على ، وكان قيس بن سعد على إمرة أذربيجان تحت يده أربعون

ألف مقاتل، قد بايعوا عليا على الموت، فلما مات على ألح قيس بن سعد على الحسن فى النفير لقتال أهل الشام، فعزل قيسا عن إمرة أذربيجان، وولى عبد الله بن عباس عليها، ولم يكن فى نية الحسن أن يقاتل أحدا، ولكن غلبوه على رأيه، فاجتمعوا اجتماعا عظيما لم يسمع بمثله ، فأمر الحسن بن على قيس بن سعد على المقدمة فى أثنى عشر ألفا بين يديه، وسار هو بالجيوش فى أثره قاصدا بلاد الشام، ليقاتل معاوية وأهل الشام فلما اجتاز بالمدائن نزلها وقدم المقدمة بين يديه، فبينما هو فى المدائن معسكرا بظاهرها، إذ صرخ فى الناس صارخ: ألا إن قيس بن سعد بن عبادة قد قتل، فثار الناس فانتهبوا أمتعة بعضهم بعضا حتى انتهبوا سرادق الحسن، حتى نازعوه بساطا كان جالسا عليه، وطعنه بعضهم حين ركب طعنة أثبتوه ، فكرههم الحسن كراهية شديدة ، وركب فدخل القصر الأبيض من المدائن فنزله وهو جريح.

وكان عامله على المدائن سعد بن مسعود بن سعود الثقفى أخو عبيد صاحب يوم الجسر فلما استقر الجيش بالقصر قال المختار بن أبى عبيد الثقفى لعمه سعد بن مسعود- هل لك فى الشرف والغنى؟ قال : ماذا؟ قال : تأخذ الحسن بن على فتقيده وتبعه إلى معاوية، فقال له عمه: قبحكم الله وقبح ما جئت به ، أغدر بابن بنت رسول الله ﷺ؟

ولما رأى الحسن بن على تفرق جيشه عليه مقتهم وكتب عند ذلك إلى معاوية بن أبى سفيان- وكان قد ركب فى أهل الشام فنزل مسكن يراوده على الصلح بينهما، فبعث إليه معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة، فقدما عليه الكوفة فبذلا له ما أراد من الأموال ، فاشترط أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف درهم، وأن لا يُسب على وهو يسمع فإذا فعل ذلك نزل

عن الإمرة لمعاوية، ويحقن الدماء بين المسلمين فاصطلحوا على ذلك واجتمعت الكلمة على معاوية.

وقد لام الحسين أخاه الحسن على هذا الرأى فلم يقبل منه، وبعث الحسن إلى أمير المقدمة قيس بن سعد أن يسمع ويطيع، فأبى قيس بن سعد من قبول ذلك، وخرج عن طاعتهما جميعا واعتزل عن الطاعة ثم راجع الأمر فبايع معاوية عن قريب. وكانت مبايعة الحسن لمعاوية سنة إحدى وأربعين والذى سمى عام الجماعة لاجتماع الكلمة فيه على معاوية.

وحج بالناس فى هذه السنة المغيرة بن شعبة.

وقد فرط أهل العراق فى خلافة الحسن وهو ابن بنت رسول الله ﷺ وسيد المسلمين، وأحد علماء الصحابة وحلمائهم وذوى آرائهم وأحد الخلفاء الراشدين وقد روى سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

"الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا، وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن على، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين وذلك كمال الثلاثين من موت رسول الله ﷺ فإنه توفى فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة وفى حديث أبى بكرة الثقفى أن رسول الله ﷺ صعد المنبر يوما وجلس الحسن بن على إلى جانبه، فجعل ينظر إلى الناس مرة وإليه أخرى ثم قال : أيها الناس إن ابنى هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، رواه البخارى.

فمدحه رسول الله ﷺ على صنيعه هذا وهو تركه الدنيا الفانية، ورغبته فى الآخرة الباقية، وحقنه دماء هذه الأمة، وجمع كلمة المسلمين على أمير واحد.

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس